سلسلة « الحقيقة الصعبة » (١)

Series "The Truth Hard" (1)



بحث في نشأَة الإسلام

PRIEST & PROPHET

STUDY ON ORIGIN OF ISLAM

أبو موسى الحريري

ABÛ MÛSÂ AL-HARÎRÎ

www.muhammadanism.org
August 10, 2010
Format: printed book
Fonts: Arabic Transparent, Simplified Arabic, Serto Batnan for Syriac

أبو موسى الحريري

قَسٌّ وَنَبيٌّ

بحث في نشأَة الإسلام

١٩٧٩

قَسٌّ وَنَبِيٌّ

بحث في نشأة الإسلام

مُقَدِّمَة

المقصود هو البحث عن هويّة القسّ ورقة بن نوفل، وعن صلته بالنبيّ محمّد بن عبد الله. والنتيجة هي إظهار ما أخفاه التاريخ عن حقيقة الإسلام وعلاقته بالنصرانية. ولن تمــرّ بالبال قط أيّة محاولة للتقارب بينهما. تلك المحاولة المستمرّة التي ضلّت الحقيقــة وعطّلــت العقول. إنها محاولة فاشلة وضالّة ومضلّة، مع كونها تدعو إلى الوئام والألفة والسلام. هــي فاشلة لأنها لم يتوفّر لها النجاح يوماً، وهي ضالّة لأنها تُبنى على أسس غير صحيحة، وهــي مضلّة لأن المقصود منها كل شيء سوى حقيقة الدين.

وسبب الفشل والضلال جهل مطبق بالنصرانية والإسلام. فلا هذه النصرانية التي يأخذ بها مسيحيو اليوم هي تلك التي كانت في أيام القس والنبي، ولا هذا الإسلام هو ذاك الذي دعا إليه كلّ من القسّ والنبي. وسبب الجهل يعود إلى أنّ فرقاً شاسعاً بين نصرانية القسّ ومسيحية اليوم، وبين إسلام النبي وإسلام اليوم. هذا الفرق أضلّ الكثير من مؤرّخي الأديان : فمؤرّخو الإسلام حقّقوا فيما نقلت كتب السير والأخبار دون أن يحقّقوا في مقصود أهل السير والأخبار، وحقّقوا فيما هو عليه القرآن اليوم دون أن يحقّقوا فيما كان عليه بالأمس. ومؤرّخو النصرانية تتبّعوا النصرانية في كل مكان ما عدا المكان الذي احتجزت فيه في مكّــة والحجــاز. هــذه النصرانية أهملوها وأهملوا تطوّراتها وأحزابها ظنّاً بموتها وانقراضها.

ولئلا يكون كلامنا عامّاً على النصرانية والإسلام فانّنا سنحدّده في فترة مــن الــزمن معيّنة، وهي الفترة التي انقرضت فيها النصرانيّة في مكة ونشأ الإسلام على انقراضها. ولئلا يدور البحث في كل شيء فانّنا سنقف عند القسّ والنبيّ ومقصدهما

العظيم. وقد ننكر الآن مقصدهما العظيم هذا، ولكنّنا لا نستطيع التنكّــر للحقيقــة التاريخيّــة. فمهلاً! إن ما نسعى إليه اليوم من تقارب ونفشل، قد سعى إليه كل من القسّ والنبــي ونجــح. وتمّ النجاح في الإسلام بعدما ذابت النصرانية فيه. ولا تظنّن، للمــرّة الثانيــة، أن نصــرانية الأمس هي مسيحية اليوم. فتلك أسلمت وهذه لم يعرفها الإسلام قط. ونصرانية مكة ليست هي مسيحيّة انطاكيا وروما والإسكندرية. ومقصد القسّ والنبي كان تلك لا هذه. وتلك كهذه كانت مبعثرة في شيع وأحزاب. وأراد القس والنبي جمع شتاتها في دين واحد جديد.

ولكل من القسّ والنبي، في الدين الجديد، دور : الأوّل أوحى وعلّــم ودرّب وأرســى الدعائم، والثاني سمع وتعلّم ودرس وشيّد البنيان. وفضل الأوّل على الثاني كفضــل العربــيّ على ربيبه. القس أستاذ علّم فتى ذكيّ الفؤاد عرف اختياره ونجح، والنبي تلميذ نجيب حفظ ما تعلّم وأبدع. الأوّل نقل كلمة الله الأعجميّة إلى « لسان عربي مبين » ، والثاني « بلّغ » كلمة العربية و « تلاها » على المؤمنين. كلاهما عمل لأجل الله، ولأجل أن يكون للأميّين رســول وكتاب. فكان للعرب إله يعبدون، ورسول يتبعون، وكتاب فيه يقرأون.

بيد أن النبي استطاع أن يتفوّق على القسّ ويستقلّ عنه، شأنه كشأن أيّ تلميــذٍ بــارعٍ يتخطّى بذكائه قدرات معلّمه. وشأن القسّ كشأن أيّ مربٍّ حكيم يترك لربيبه حرّيّة التصرّف. لقد كان النبي، لفرط ذكائه، ينشد الحرّيّة ويلتمس الاستقلال، وكان القس، لوفرة حكمته، يختفي أمام عنفوان تلميذه بلباقة، ويتوارى عن مسرح التاريخ الذي واراه وراء ستار حاجب. لقد أدّى القسّ خدمته وذهب، وبقي النبي يجاهد ويناضل حتى حفظ له التاريخ أجمل ما حفــظ. إلاّ أنّ النبي، كما عرف أن يتدرّب على القسّ بأمانة، عرف أيضًا كيف يتصرّف بما تعلّــم بحكمــة فجاءت رسالته مناسبة لظروف البيئة والمجتمع.

ولئن كان كلنا يعرف النبي ورسالته وسيرته، فإن أكثرنا يجهل القسّ وهويّتـه ودوره في بنيان الدين الجديد. وسبب جهلنا، لا بدّ، مصيبة عمياء، أرادها التاريخ كما أراد سواها في هذه البقعة من الأرض. والمصيبة الكبرى تقع، لا محالة، على من يريد نبش مطـامير هـذا التاريخ المنكود، لأنّ المتعصّبين للحقائق المنزلة يصعب عليهم البحث في حقيقة التاريخ، ولن يدركوا أن باستطاعة الله استعمال البشر واسطة لإعلان كلمته. ومع هذا، فإننا غير مجبـرين على تصديق الحقائق حتى ولو كانت منزلة من لدن الله، لأنّ لنا حرّيّة البحث عن كل شـيء مكنون، فهي أيضاً منزلة من لدن الله.

كلّنا يؤمن بقدرة الله القديرة ولا أحد ينكر تصرّف الله بملكه كما يشاء. ولكن أيضاً لا أحد ينكر حرّيّة الإنسان في البحث عمّا يشاء. ولا أحد يسلّم بأن الله حفظـاً لكرامتـه يسـلب الإنسانَ كرامتَهُ. فالله يترك التاريخ يسير، ويترك الإنسان يتدبّر في التاريخ أمـرَه. لهـذا، إذا كانت الحقيقة وحيًا من الله فليس كالإنسان واسطةً يعلنها في التاريخ باسم الله. وبالتالي، لا بدّ أن يكون الوحي اللاحق تذكرة للوحي السابق, كما شهد الكتاب على نفسه: « هذا ذكر » (٣ / ٤٩)، و « هذه تذكرة » (٧٤ / ٥٥)، وكما شهد على نبيّه: « ذكّر. إنما أنت مذكّر » (٨٨ / ٢). ويوم يرتاب النبي من صحّة ما يذكّر به يقال له : « إن كُنْتَ فِي شَكٍّ ممَّا أَنزَلْنـا إِلَيْـكَ فَاْسأَلِ الَّذِيْنَ يَقْرَأُونَ الْكِتَاب مِنْ قَبلِكَ » (١٠ / ٩٤). هذه القراءة الـ« من قبل » تنبـئ، لا محالة، عن واحد كان « قبل » النبي يقرأ عليه الكتاب ويهمس في أذنه وحـي الله مـن وراء الستار.

لقد عظم على المتديّنين أن يَرَوا وراء النبي غيرَ الله، أمّا الحقّ فيقضـي علـيّ بـأن أُعطيَ للتاريخِ دورَه، وبأن أرى الله يستعملُ البشرَ واسطةً بعضهم لبعض للوصول إليه. ولن أكونَ بذلك أقلَّ إيمان منهم. وغالباً ما يُخفي التاريخُ من على صفحاته دورَ البطلِ الأساسـي، وذلك لكي يبقى له فاعليةُ السحر ورهبَة السرّ.

وبطل الإسلام هو القسّ، واسمه في التاريخ وَرَقَة بن نَوفَل بن أَسَد بن عَبْدِ العزَّى بن قُصَيّ. عُرِفَ بانقطاعِه عن الناس وبخلوته بربّه، فحفظ له التاريخ انقطاعَه وخلوَته. وأخشى فيما أَخشى أن أقطع عليه خلوته هذه فأظهر ما ودّ التاريخ إخفاءه. لا بأس، فإن من يتحمّل ظلمة غار حراء يتحمّل ثقلَ الكلام عليه ... جلّ ما أبغي ألاّ أتركَ النبيَ معلَّقًا بينَ الأرضِ والسماء، لا أصلَ له ولا أساس، ولو اضطربتْ ذلك طمأنينةُ المتديّنين.

*****

لكي تتأكّد لنا هذه النتيجة، لا بدّ لنا من أن نقابل بين تعاليم القسّ وتعاليم النبيّ، أي بين إنجيل القسّ وقرآن النبي. والمواضيع الواردة في الكتابين تحدّد مواقفنا من الرجلين. كتاب القسّ هو « الإنجيل بحسب العبرانيين » لا شكّ في ذلك، وكتاب النبي هو « القرآن » وفيه نظر. إن القرآن، كما وصل إلينا، في مصحف عثمان بن عفّان، يتحدّى معطيات الواقع التاريخي، ويقرأ حوادث التاريخ بالمقلوب. فالسور الأولى هي في آخره، والسور الأخيرة هي في أوّله. وبذلك قيست الحقيقة بطول السور وبقصرها. فلكي نقرأ كتاب النبي قراءة صحيحة علينا أن نقرأ مصحف عثمان بدءاً من آخره.

ثم إن المواضيع التي يتناولها قرآن النبي تختلف اختلافاً جوهرياً عن المواضيع التي يعالجها مصحف عثمان. فكلام مسلمي قرآن النبي على النصارى، مثلاً، غير كلام مسلمي مصحف عثمان. أولئك أهل مودّة وإحسان، وهؤلاء مشركون يجب قتالهم. وقصّة عيسى المسيح وأمّه في كتاب النبي تختلف في جوهرها عمّا هي في مصحف عثمان ... وغير ذلك. في هذه القراءة الجديدة للقرآن قد تتبدّل معنا مفاهيم كثيرة شهد لها المتديّنون شهادة زور طيلة ألف وأربعمائة سنة، وشهد

الباحثون المعنيون بأمور الإسلام شهادة خطأ تنال من حقيقة التاريخ. وقصدهم في ذلك حفظهم لإيمان الملايين المذهولين بالوحي ذهولاً، والمطمئنّين إلى الله كأنّه في متنـــاول كـــل عقـــل مرتاح.

وسبب مصيبتنا هذه أربعة : جهلنا بالقس وكتابه، واعتمادنا على مصحف عثمان على حساب قرآن النبي، ومحاولتنا الفاشلة أبداً في الوفاق بين المسيحية والإسلام، وأخيراً ارتياحنا التامّ إلى الحقيقة كل حقيقة كأنّها وحي من عند الله لا مجال للبحث فيها.

الفصل الأول

هويّة القسّ ورقة وحياته

أولاً ــ نسب القسّ ورقة

ثانياً ــ نصرانيّة القسّ ورقة

ثالثاً ــ أبيونيّة القسّ ورقة

رابعاً ــ علم القسّ ورقة

خامساً ــ مهمّة القسّ ورقة

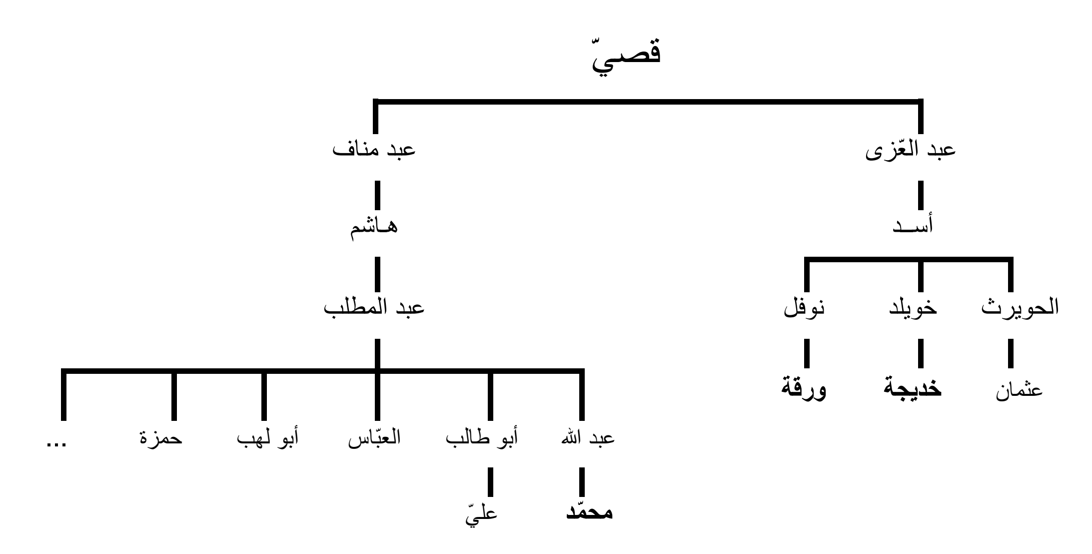
سادساً ــ القسّ ورقة رئيس النصارى

سابعاً ــ موت القسّ ورقة

[Blank Page]

أولاً ــ نَسَب القسّ وَرَقَة

هو القسّ وَرَقَة بن نَوفَل بن أَسَد بن عَبد العِزَى بن قُصَيّ، ابن عمّ خَدِيجَة بنت خُوَيلِد بن أَسد بن عبد العِزّى بن قُصَيّ، زوجة النبي محمّد بن عبد الله بن عَبد المُطَّلِب بن هَاشم بن عَبد مَنَاف بن قُصيّ. فيكون قُصَيّ الجدَّ الثالث لوَرَقَة وخَديجَة، والجدّ الرابع لمحمّد. والثلاثة يلتقون في قُصَي نَسَبًا وجَاهًا وإيمانًا ودينًا ومقامًا. والثلاثة من قُرَيش سَدَنَةِ الكعبة، ومن سكّان مكّة، وأصحاب دار الندوة.



عُرف عن قصيّ أنه تَولّى أمر الكعبة بعد طرده قبيلَتَي بني بَكر وخُزَاعة من مكة، وأنّه جمع شتات القبائل المبعثرة في شِعاب مكّة وبطاحِها تحت زعامته، وأطلق على هذا التجمّع اسمَ « قريش » . وقريش هو التجمّع من قول ابن اسحق « إنما سميت قريش قريشًا لتجمعها بعد تفرّقها. ويقال للتجمّع التقرّش»[١] . ولمّا تزوّج قصيّ من حُبَى بنت حُليل الخزاعي، وكان له أولاد ومال، عظم شرفه وجمع قومه وتملك

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٨٧.

عليهم. فكانت إليه ستّة أمور : الحجابة والقيادة والسقاية والرفادة والندوة واللـواء، توزّعهـا أبناؤه الأربعة من بعده بالتساوي[٢] ، وهم عبد الدار وعبد العزّى وعبد قصيّ وعبد مناف.

ونحن نعرف الكثير عن فرع عبد مناف من كتب السير والاخبار، ولكنّنا لا نعـرف شيئًا يذكر عن فرع عبد العزّى. وقد يكون ذلك اهمالاً مقصوداً أو لا مبالاة من قبل أصـحاب السير. وسبب ذلك أنه لا علاقة قريبة بين ما تهتمّ به السيرة النبوية من أخبار عن النبي وبين ما لا صلة له بهذه السيرة من أبناء قصيّ وأحفاده الآخرين. وهذا هو همّنا فـي كتابـة هـذا البحث عن القسّ ورقة وفي السعي وراء هويّة هذا الفرع المنكود الحظّ الذي لـم يحـظ بمـا يستحق من عناية.

وقد يكون ما كتبه أهل السيرة النبوية عن فرع عبد مناف وأحفاده غير موافق للحقيقة، لأن همّ الذين كتبوا عنه كان لأجل غاية معروفة ومقصودة سلفاً، وهو ان يدلّوا علـى جـدّة الرسالة المحمدية وإظهارِ ما سواها ظلمةً قاتمة ووضْعِهَا في خانة الجاهلية. كما أن الإهمـال الذي حدث بالنسبة إلى فرع عبد العزّى ربما كان هو الآخر مقصوداً إذ كان من المفـروض على أهل الأخبار أن يعنوا بالتاريخ في جميع جوانبه، وأن يولوا لأحفاد عبد العزّى اهتمامهم، في حين أنهم رجعوا بسلالة النبي إلى اسمعيل وابراهيم وآدم، ودقّقوا في أخبار كل جدّ مـن أجداد محمّد.

وكما أن كتّاب السير والأخبار راحوا في كتابة سيرة فرع عبد مناف انطلاقاً من النبي محمّد، فنحن أيضاً سنعمد في كتابة سيرة فرع عبد العزّى انطلاقاً من القسّ ورقـة. والقليـل المذكور عن القسّ لا يسمح لنا بوافر من المادّة لارواء غليل المتبحرين. عكس ذلك عمّا هـو المعروف عن النبي. وإذا كان حظّ أجداد النبي إنهم عرفوا بالنسبة إليه وبفضله، فلن يقلّ حظّ القسّ فيما عرف عنه بالنسبة إلى

---

(٢) سيرة ابن هشام ١ / ١١٥.

النبي وبفضله أيضاً. لذلك سيتضح لنا نسب القس بصلته بالنبي، وستتضح لنا رسالة النبي لصلته بالقسّ.

فالمهمّ إذن إن القسّ ورقة وخديجة والنبي محمّد ينتمون إلى قصيّ الجدّ الأوّل لقبيلة قريش، الذي، بمساعدة قبيلة بني عذرة النصرانية، أخرج خزاعة من مكة وقضى عليها[٣] . وفي رواية أخرى أن قيصر الروم أعان قصيّا على خزاعة[٤] ، وذلك عن طريق الغساسنة حلفاء الروم. وقد تكون قبيلة بني عذرة النصرانية، التي عاشت على مقربة من حدود بلاد الشام، هي التي توسّطت فيما بين قصيّ والروم، وقد كانت خاضعة لنفوذهم[٥] . وهي الإشارة الأولى لعلاقة قبيلة قريش، منذ نشأتها، على يد قصيّ موسّسها، بالروم والقبائل النصرانية. ولا بدّ أن يكون لهذه العلاقة السياسية من أثر في الدين والإيمان. ويشهد على ذلك هدم قصيّ للأصنام التي أدخلتها قبيلة خزاعة على يد ملكها **عمرو بن لُحَيّ** الذي « غيّر دين التوحيد »[٦].

والمعروف عن قصيّ أنه كان أوّل من بني الكعبة، بعد بناء تبّع اليمني، وسقفها بالخشب، وأوّل من أظهر الحجر الأسود، وكانت قبيلة أَيَاد دفنته في جبال مكة، وأوّل من بنى المساكن في مكة، ونقض الخيام، وأوّل من نظّم شؤون المدينة ...

وبهذا النسب إلى قصيّ كان القسّ والنبي يتشوّفان.

---

(٣) طبقات ابن سعد ١ / ٦٦، نهاية الارب ١٦ / ٢٠، تاريخ الطبري ٢ / ٢٥٥.
(٤) ابن قتيبة، المعارف ٦٤٠.
(٥) البلاذرى انساب ١ / ٤٧، الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢ / ٧، الأزرقي، تاريخ مكة، ١ / ٥٥.
(٦) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٤ / ١٤.

ثانياً ــ نَصْرانيّة القسّ وَرَقة

لقد قيل عن القسّ ورقة إنه « كان على دين موسى، ثم صار على دين عيسى عليهما الصلاة والسلام، أي كان يهوديّا ثم صار نصرانياً » [٧] . هذا القول يعني إن ورقة كان يأخذ بتعاليم موسى وعيسى معاً، أي كان يقيم التوراة والإنجيل معاً، بحسب تحديد القرآن : « يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل » (٥ / ٦٨)؛ ويعني ثانياً إن ورقة كان مقتصداً في عقيدته، لا يغلو في نظرته إلى المسيح كوفد نجران المسيحي القائل بألوهيّة المسيح، ولا يقتصر على موسى كاليهود الذين ينكرون على عيسى نبوته. فورقة إذن يكون من « اليهود ــ المتنصرين »، أي من اليهود الذين تنصروا، واعتقدوا في المسيح نبيّاً أتى يكمّل ناموس موسى دون أن يكون إلهاً أو ابناً لله؛ ويعني أخيراً إن بعضاً من العرب قد استجاب لبشارة المبشّرين من النصارى ولم تبقَ النصرانيّة وقفاً على الغرباء عنهم.

وشهد التاريخ الإسلامي على تنصّر أحياء كثيرة من العرب، ودل خاصّة على دخول النصرانية بعض قبائل مكة والحجاز، وأشار بوضوح إلى اعتناق بعض بطون قريش لها، وأخصّها فرع عبد العزى بن قصيّ. قال اليعقوبي في تاريخه : « وأمّا من تنصّر من أحياء العرب فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزّى، منهم عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزّى، وورقة بن نوفل بن أسد ...» [٨] وأَشَارَ أيضاً إلى تديّن قبيلة قريش كلها في قوله: « وكانت العرب في أديانهم على صنفين : الحمس والحلّة. فأما الحمس فقريش كلّها » [٩] . وأوضح معنى هذا التديّن قائلاً : « كانت قريش وعامة ولد معد بن عدنان على بعض دين ابراهيم، يحجّون البيت،

---

(٧) سيرة ابن هشام ١ / ٢٠٣.
(٨) تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٥٧.
(٩) نفس المرجع ١ / ٢٥٦.

ويقيمون المناسك، وَيُقْرُونَ الضيف، ويعظّمون الأشهرَ الحرم، ويُنكرون الفواحش، والتقاطعَ، والتظالمَ، ويعاقبون على الجرائم؛ فلم يزالوا على ذلك ما كانوا ولاة البيت » (١٠) .

ويؤكّد الأزرقي في آثار مكة نصرانيّة قريش وتديّنها في قوله : « وجعلوا (قريش) في دعائمها (الكعبة) صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة. فكان فيها صورة ابراهيم الخليل شيخ يستقسم بالأزلام، وصورة عيسى بن مريم أمّه، وصور الملائكة. فلمّا كان يوم فتح مكة دخل رسول الله البيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب فجاء بماء زمزم، ثم أمر بثوب فبلّ الماء وأمر بطمس تلك الصور. فطمست. وقال : ووضع كفّيه على صورة عيسى بن مريم وأمّه عليهما السلام، وقال : امحوا جميع الصور إلاّ ما تحت يدي. فرفع يديه عن صورة عيسى بن مريم وأمّه » (١١) .

امّا الكلام على تنصّر الكثير من أحياء العرب وقبائلهم فيشهد له المؤرّخون وأهل السير عامّة. يقول ابن قتيبة: « إن النصرانية كانت في ربيعة وغسان وبعض قضاعة » (١٢). ويقول اليعقوبي في تنصّر « تميم وربيعة وبني تغلب وطيء ومذحج وبهراء وسليخ وتنوخ ولخم » (١٣) . ويشهد الجاحظ بقوله : « كانت النصرانيّة قد وجدت سبيلها بين تغلب وشيبان وعبد القيس وقضاعة وسليخ والعباد وتنوخ ولخم وعاملة وجذام وكثيّر بن بلحارث بن كعب ... » (١٤) .

هذه الشهادات وغيرها في كتب السير والأخبار تدلّ على وجود نصراني واسع في مكة والحجاز وسائر أنحاء الجزيرة العربية وبلاد الشام، وتدلّ على اعتناق بعض العرب للنصرانيّة، وعلى كثرة معتنقيها. وهو ما يبرّر وجود قسّ عليها

(١٠) تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٥٤.
(١١) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار للأزرقي ١ / ١٦٥.
(١٢) المعارف لابن قتيبة الدينوري ص ٦٢١.
(١٣) تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٥٧.
(١٤) كتاب الحيوان للجاحظ ٧ / ٢١٦.

يدبر شؤونها الروحيّة ويرعى أمورها الزمنية والاجتماعية، وهو القسّ ورقة بن نوفل قسّ مكّة وقبيلة قريش.

والجدير بالذكر أن كتب السير والأخبار شهدت على نصرانية فرع عبد العزّى بن قصيّ ولاذت بالصمت حيال فرع عبد مناف. ولا ندري إذا كان الصمت جهلاً أم تنكّراً. وكلا الاثنين لا يجوز : فالجهل مردود على أصحابه لأن معرفتهم تعدّت إلى فرع لا أهميّة له بالنسبة إلى سيرة النبي وهو فرع عبد العزّى؛ والتنكّر هو طعنة في حقيقة التاريخ. فالنصرانية غزت فرع عبد مناف كما غزت فرع عبد العزّى من قريش. ويثبت ذلك تأرجح كتّاب السير بين أن يصوّروا لنا أجداد النبي على الإيمان والهداية وبين أن يكونوا على الوثنية والشرك. ويميل المسعودي إلى الرجيحة الأولى[١٥] ، كما سنظهر ذلك.

أمّا نصرانيّة القسّ ورقة فكانت تقوم على ما كانت تقوم عليه النصرانية في تاريخ الكنيسة. قيل عن ذلك إن القسّ ورقة « كان أحد من اعتزل عبادة الأوثان في الجاهلية، وطلب الدين، وقرأ الكتب، وامتنع عن أكل ذبائح الأوثان » [١٦] . وقيل أيضاً إنه « كان رابع أربعة تركوا الأوثان، والميتة، وما يذبح للأوثان » [١٧] ، وهم **عبيد الله بن جحش بن أميمة بنت عبد المطّلب** عمّة النبيّ وقد مات نصرانيًا في أرض الحبشة تاركاً امرأته أم حبيبة التي تزوّجها الرسول بعده[١٨] ، **وعثمان بن الحويرث،** ابن عمّ ورقة بن نوفل وخديجة بنت خويلد زوجة محمّد، تنصّر بأرض الروم وحسنت منزلته عند القيصر، وكان يقال له البطريق، لا عقب له، مات بالشام مسموماً[١٩] ، **وزَيد بن عمرو بن نُفيل** الذي قال فيه النبي : « إنه يُبْعَث

---

(١٥) مروج الذهب للسعودي ٢ / ١٠٨ ـ ١٠٩.
(١٦) الأصفهاني في الأغاني ٣ / ١١٣.
(١٧) طبقات ابن سعد ١ / ١٦٢، السيرة المكية ١ / ١١٠.
(١٨) سيرة ابن هشام ١ / ٢٠٦.
(١٩) نفس المرجع ١ / ٢٠٦ في إشارة حاشية (١).

امّةً وحدَه » [٢٠] ، وهو ابن أخي الخطّاب، اشتهر عنه أنه « نهى عن قتل المؤودة » [٢١] .

هؤلاء الأربعة، من فرعي عبد العزّى وعبد مناف على السواء، اشتهروا بتنصّرهم وفق الواجبات والفروض النصرانية المتّبعة في الكنيسة، والمعروفة في مقرّرات مجمع أورشليم الرسولي المعقود سنة ٤٩ ميلادية، وهي تقوم على « الامتناع عن نجاسات الأصنام، والفحشاء، والمخنوق، والدم » [٢٢] ، كما تقوم على الأخذ بناموس موسى وإنجيل عيسى على السواء، وعلى الختان والمعمودية معاً ...

إلاّ إنّ نصرانيّة القسّ ورقة وندمائه الثلاثة الآخرين تختلف، على ما يبدو، عن نصرانية مقرّرات مجمع أورشليم المنسوبة إلى يعقوب الرسول. فنصرانية يعقوب تؤمن بألوهيّة المسيح وببنوّته لله، وتحتكم بأحكام الإنجيل وتعاليمه، وتعتقد بصلب عيسى وقيامته من بين الأموات، في حين **إن نصرانية القس ورقة وزملائه تنكر ألوهيّة المسيح وبنوّته لله انكاراً مباشراً، وترفض قيامته وصلبه رفضاً قاطعاً، وذلك، على ما يظهر، تبعاً لشيعة في النصرانية معيّنة انتمى إليها القسّ ومعظم قبيلة قريش واعتنقوها وأقاموا فرائضها وموجباتها، وهي الشيعة الأبيونيّة.**

---

(٢٠) سيرة ابن هشام ١ / ٢٠٨.
(٢١) نفس المرجع ١ / ٢٠٦ ـ ٢٠٧.
(٢٢) سفر أعمال الرسل ١٥ / ٢٠ و٢٩، ٢١ / ٢٥.

ثالثاً ــ أبيُونيّة القسّ ورَقة

عُرف عن النصارى من بني إسرائيل الضاربين في مكة والحجاز انقسامهم فيما بينهم إلى « شيع » و « فرق » و « أحزاب » [٢٣] . وأشار القرآن العربي بوضوح إلى هذه الخلافات، وقال : « اختلف الأحزاب من بينهم » [٢٤] ، « أي النصارى » بحسب تفسير الجلالين للآية المذكورة. وقال أيضاً : « ومن الأحزاب من ينكر بعضه » (١٣ / ٣٦)، ويصف أحوال كل منهم بأن « كل حزب بما لديهم فرحون » [٢٥] . ولا يعجب أتباع النبي من كثرة الأحزاب هذه لأنهم حذروا منها مسبقاً وأعلموا بوجودها : « ولما رأى المؤمنين (من أتباع محمد) الأحزاب (عند النصارى)، قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله » (٢٣ / ٢٢).

ويخشى النبي فيما يخشى أن يكون انتمى إلى حزب منها، أو أن يكون ساهم في توسيع رقعة الخلاف بينها، فيقول : « إني خشيت أن تقول فرّقت بين بني إسرائيل » (٢٠ / ٩٤). كما يرفض أن يفرّق بين الأحزاب، بل يريد لها السلم، ويبغي توحيدها : « لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » [٢٦] . ويقول عن أتباعه بأنهم هم أيضاً : « آمنوا بالله ورسله، ولم يفرّقوا بين أحد منهم » (٤ / ١٥٢). وفي رأيه هم أيضاً : « آمنوا بالله ورسله، ولم يفرّقوا بين أحد منهم » (٤ / ١٥٢). وفي رأيه أن كل حزب « آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرّق بين أحد من رسله » (٢ / ٢٨٥).

وتضاف إلى شهادة القرآن العربي هذه شهادة التاريخ الكنسي. فهي تشير إلى أسماء هذه الأحزاب وإلى تعاليمها. وما يؤكّد لنا الوفاق بين الشهادتين

---

(٢٣) القرآن : ٣٠ / ٣٢، ٤ / ١٥٠ و١٥٢، ٣ / ١٠٣ و١٠٥، ٤٢ / ١٣، ٩ / ١٢٢، ٢ / ٧٥ و١٠٠ و١٠١ و١٤٦، ٣ / ٧٨ وغيرها ...
(٢٤) القرآن : ١٩ / ٣٧، ٤٣ / ٦٥.
(٢٥) القرآن : ٢٣ / ٥٣، ٣٠ / ٣٢.
(٢٦) القرآن : ٢ / ١٣٦، ٣ / ٨٤.

وحدة التعاليم التي تأخذ بها الأحزاب في كلا المصدرين. ونقتصر على ذكر بعضها كالأبيونيّة والقيرنثية والكسائيّة لشهرتها ومعرفة تعاليمها :

١ ـــ **الأَبْيُونِيَّة** وهي فئة من اليهود المتنصرين، التحقوا بالمسيح ورأوا فيه نبيّاً عظيماً من الأنبياء. لا يعترفون بألوهيّته ولا ببنوّته لله؛ بل يقولون بأنه رجل كسائر الرجـال جـاءه الوحي بعد معموديته على يد يوحنا المعمدان، أو بالحري أن المسيح المبدأ الأزلي دخل يسوع يوم عماده وفارقه يوم استشهاده. تقوم رسالته على التعليم والتبشير دون الفداء والخلاص(٢٧) . يقبل الأبيونيون إنجيل متى وحده، ويسمّونه « الإنجيل بحسب العبرانيين » ، وهو نفسه إنجيل متى الآرامي ولكنه ناقص ومحرّف ومزيّف، كما يشهد أبيفانوس(٢٨) . أمّا فروضهم فتتركّـز على الاغتسال الدائم بالماء للوضوء والتطهير، وعلى تحريم الذبائح. ويشدّدون على أعمـال البرّ والاهتمام باليتامى والعناية بالفقراء والمساكين وأبناء السبيل، ويوصون بإعالة المحتاجين وإطعام الجياع واقراء الضيوف والغرباء ... واسمهم يدلّ على ذلك، فهو يشـتقّ مـن قـول المسيح : « طوبى للفقراء » ، وبلغتهم العبرانية : « طوبى للأبيونيين » . ذكرهم ايرينـاوس في كتابه « ضد البدع » (٢٩) ، وأوريجانوس في كتابه « ضد سلسوس » (٣٠) ، وأبيفانوس في « الشامل في الهرطقات » (٣١) . دخل في شيعتهم معظمُ رهبان قُمْران بعـد خـراب هيكـل أورشليم، فهاجروا إلى الحجاز وانتمى إليهم بعضُ القبائل العربية.

(٢٧) J. Daniélou, Théologie du Judéo-christianisme, 76
(٢٨) Epiphane, Panarion XXIX, 3 et 13
(٢٩) St. Irénée, Contre les Hérésies I, 26, 12
(٣٠) Origène, Contre Cels II, 1
(٣١) Epiphane, Panarion XXIX-XXX ...

٢ً ــ **القِيَرنْثِيَّــة** نسبة إلى مؤسسها « قيرنث » Cérinthe تتميّز بقولها إن ملكــوت المسيح السماوي هو على مثال الأرضي، وإن دور المسيح يقوم على تحرير شعبه من الحكم الروماني والأجنبي، وأن مهمّته هي سياسية واجتماعية. وتقول بأن الجنّة السماوية هي متاع الجسد وشهواته. يذكر أوسابيوس قيرنث في قوله : « بما أنّه هو نفسه يحبّ جســده، وكــان شهوانياً، فهو يحلم أن هذا الملكوت يقوم على الأشياء التي يشتهيها، أي الطعام والشراب ولذّة الجسد » (٣٢) .

٣ً ــ **الكسائيّة** نسبة إلى « **الكسائي** » Elxai. تذهب في الغنوص إلى أبعــد حــدّ. وتسمّي أنصارها « أهل العلم » . وتعلّم في المسيح أنه بشر كسائر البشر(٣٣) ، وأن المســيح فارق يسوع قبل استشهاده، وأن الروح القدس تارة هو أمّ المسيح فهو بالتالي مؤنّث، وطــوراً هو الملاك جبرائيل فهو مذكّر. ويدّعي « الكسائي » بأن ملاكاً دفع إليه بكتاب من السماء كان محفوظاً في لوح مقدس نزّله عليه جبرائيل(٣٤) ، وعلّمه أسرار الحكمة والغيب.

هذه هي شهادات التاريخ الكنسي على بعض الشيع النصرانية، وهي على ما يظهــر، تتفق مع شهادات القرآن العربي، أقلّه في الأمور الأساسية مثل إنكار ألوهيّة المسيح، واعتباره نبياً عظيماً، والشبه الواقع على صلبه، ومثل إقامة أحكــام التــوراة والإنجيــل، والاهتمــام بالمساكين، ووصف الجنّة السماوية ... وغيرها. ويكفي منها شهادة وجودها في مكة وتعرّف القرآن العربي عليها. الاّ أنّ الجانب الأبيوني كان واضحاً أكثر من سواه في حياة القس ورقة وممارساته الروحية وتحنّثه في حراء.

---

(٣٢) Eusèbe, Histoire Ecclésiastique 3

(٣٣) Hippolyte de Romme, IX, 14 …

(٣٤) J. Daniélou, Théol. du Judéo-christianisme, 68

إن ما ظهر من أبيونية القسّ ورقة في حياته وممارساته الروحية وتعاليمه يدلّ على انتمائه الأكيد إليها. فعدا عن تعاليمه التي نرى لها أثراً واضحاً في القرآن عند كلامنا على ذلك في الفصل الأخير، نتوقّف الآن على ما عرف عنه في تحنّثه في غار حراء مع عبد المطلب وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش وأبي أمية بن المغيرة وغيرهم(٣٥) . والتحنّث هو التحنّف والتبرّر والتعبّد الليالي الطوال وإقامة أعمال البر والاحسان(٣٦) .

وذلك يقوم على الصيام شهراً كاملاً في السنة، وعلى إطعام الجياع والرأفة بالمساكين، وعلى التخلّي عن الناس والانقطاع إلى الله والتفكّر فيه(٣٧) . ويقوم أيضاً على اعتزال عبادة الأوثان، والامتناع عن أكل الذبائح المقرّبة إليهم، وقراءة الكتب المقدسة، والتأمّل في قصصها وأخبارها(٣٨) ، والأخذ بالختان والحج إلى البيت والغسل من الجنابة وتحريم الخمرة وما أهلّ لغير الله(٣٩) .

بهذه الصفات وصف القسّ ورقة ومن ذكرته كتب السير والاخبار مثل أبي بكر الصديق ورباب البراء وأسعد بن كريب الحميري وقس ابن ساعدة الأيادي وأبي قبيس بن صرمة وغيرهم(٤٠) . ولم تكن هذه العبادات بعيدة عن النبي، فهو أيضاً، كالقسّ ورقة، ومعه، تحنّث في غار حراء، ومارس هذه الواجبات، كما ترى فيما بعد.

---

(٣٥) السيرة الحلبية ١ / ٢٦٠.
(٣٦) سيرة ابن هشام ١ / ٢١٨، ٢٢٢.
(٣٧) الأصفهاني في الأغاني ٣ / ١١٣.
(٣٨) طبقات ابن سعد ١ / ٨٥.
(٣٩) لسان العرب ١٠ / ٤٠٢، الكشاف ١ / ١٧٨، ٢٣٦، ٤٠٧، الطبرسي ١ / ٤٦٧، ٣ / ١٠٩، تفسير الرازي ١٣ / ٥٧، ١٤ / ١٠، ١٧ / ١٧١، تفسير الطبري ٣ / ١٠٤ ... تاج العروس ٦ / ٧٧ لفظة « حنف » ، القرطبي ٤ / ١٠٩، القاموس ٣ / ١٣٠، ابن خلدون ٢ / ٧٠٧ ... وغيرهم .
(٤٠) المسعودي في مروج الذهب ١ / ٧٧.

رابعاً ــ علم القَسّ ورَقَة

قيل في القس ورقة إنه « كان نصرانياً قد تتبّع الكتب، وعلم من علم النـــاس » [٤١] . وقيل فيه أيضاً : « إنه استحكم في النصرانية، واتّبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب » [٤٢] . وقيل « كان قد تنصّر واتبع الكتب » [٤٣] ... هذه الأقوال في القــس ورقــة تقطع في علمه وفي تتبّعه المتواصل لدرس الكتاب وفي وعيه هذا العلم. فهو يأخذ من أهــل الكتاب أي من التوراة والإنجيل، ومن علماء النصارى الموصوفين في القرآن بــ« الراسخين في العلم » [٤٤] ، و « بأولي العلم » [٤٥] ، وبــ« الذين جاءهم العلم » [٤٦] ، وبــ« من عنده علم الكتاب » [٤٧] ، وبــ« الذين أوتوا العلم » [٤٨] .

وللعلم في القرآن، كما لأهله، مكان مرموق، كالمكان الذي يحتله عند أهل الغنـــوص والمعرفة في الشيعة « الكسائيّة » من النصارى. هؤلاء تناط بهم معرفة الحق. ولكثــرة مــا يعرفون عن الحق تراهم خاشعين متعبّدين يفيض الدمع من عيونهم : « ترى أعينهم تفــيض من الدمع ممّا عرفوا من الحق » (٥ / ٨٣). ويقوم علمهم على معرفــة الكتــاب بتمامــه وكماله، فهم « الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنــاءهم » [٤٩] . ومــا أصــحاب الأعراف الاّ رجال يعرفون الناس بوجوههم ويدركون عنهم كل خفــي مكنــون : « علــى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم » (٧ / ٤٦).

---

(٤١) سيرة ابن هشام ١ / ١٧٥.
(٤٢) نفس المرجع ١ / ٢٠٥.
(٤٣) نفس المرجع ١ / ١٤٥، السيرة الحلبية ١ / ٢٦٣.
(٤٤) ٤ / ١٦٢، ٣ / ٧.
(٤٥) ٣ / ١٨.
(٤٦) ٣ / ١٩، ١٠ / ٩٣.
(٤٧) ١٣ / ٤٣، ٢٧ / ٤٠.
(٤٨) ٥٨ / ١١، ٤٧ / ١٦، ٣٤ / ٦، ٣٠ / ٥٦، ٢٩ / ٤٩، ٢٨ / ٨٠، ٢٧ / ٤٢، ٢٢ / ٥٤، ١٧ / ١٠٧، ١٦ / ٢٧، ٣ / ١٩ ...
(٤٩) ٢ / ١٤٦، ٦ / ٢٠.

هؤلاء العالمون يرفعهم الله إليه : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (٥٨ / ١١). وهم يفرحون بما لديهم من العلم : « فلمّا جاءتهم رسلهم بالبيّنات فرحوا بما عندهم من العلم » (٤٠ / ٨٣)، لأنهم يرون أن كل ما أنزل من الله حق: « ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق » (٣٤ / ٦). وهم يلبثون في كتاب الله متأملين فيه دون سواه من الكتب : « وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله » (٣٠ / ٥٦)، لأن كتاب الله هو لأصحاب العلم آيات بيّنات : « بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم » (٢٩ / ٤٩).

أصحاب العلم هؤلاء يحق لهم أن يشهدوا، مع الله وملائكته، على صحّة الإسلام وعلى رسالة محمّد: « شهد الله ... والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط... إن الدين عند الله الإسلام » (٣ / ١٨ ــ ١٩). وتكفي شهادتهم : « قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » (١٣ / ٤٣). أهل العلم هم في القرآن النصارى المسلمون قبل المسلمين: « وأوتينا العلم من قبلها وكنّا مسلمين » (٢٧ / ٤٢)، الذين آمنوا بالقرآن قبل سواهم : « الراسخون في العلم يقولون : آمنّا به كلّ من عند ربّنا » (٣ / ٧)، و « الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك » (٤ / ١٦٢).

صفة العلم هذه ليست غريبة عن القسّيسين والرهبان : فخطب القس ابن ساعدة شهيرة في كتب الأدب، وشهرة الراهب بحيرا، الذي تعرّف عليه النبيّ في أسفاره إلى الشام، بعيدة الأثر في نفوس أهل قريش، وقد قيل عنه : « انتهى إليه علم النصرانية » [٥٠] ، والراهب عدّاس النينوى « كان يرقي

---

(٥٠) سيرة ابن هشام ١ / ١٦٥، السيرة الحلبية ١ / ١٣٠.

محمّداً بمـــا يعرفه من الكتب » [٥١] ، وراهب آخر من الشام يدعى عيصا « أتـــاه الله علمـــاً كثيراً » [٥٢] ، وآخر في عكاظ كان على علم في الطب، ذهب إليه محمّد برفقـــة جـــدّه عبـــد المطّلب يطلب منه شفاء عينيه من رمد أصابهما[٥٣] ... وغيرهم.

ولا يستبعد، بل يستغرب حقاً، ألاّ يكون القس ورقة واحـــداً مـــن هـــؤلاء الرهبـــان المتبحرين في العلم، وهو الذي قيل عنه بأنه كان يتتبّع الكتب ويتعلّم من أهل العلم ويأخذ ممن عنده علم الكتب.

في هذا الإطار من العلم والمعرفة يدخل القس ورقة كأحـــد الغنوصـــيين الكســـائيين المتبحرين في الكتب، حتى غدا عالماً بها، عارفاً بقصصها، مفسّراً لها، شارحاً بيّناتها، مبشّراً بتعاليمها، ممارساً فرائضها، قائماً على عبادتها، مفصّلاً أسرارها، لكأنه الخبير الحكيم الـــذي قصده القرآن العربي (١١ / ١) في قوله : « ألر : كتاب أحكمت آياته، ثم فصّلت من لـــدن حكيم خبير » [٥٤] .

---

(٥١) السيرة الحلبية ١ / ٢٦٧، السيرة المكية ١ / ١٨٣.
(٥٢) السيرة الحلبية ١ / ٧٨.
(٥٣) نفس المرجع ١ / ١٣٥.
(٥٤) « ألر » ، و « ألم » وغيرها من الحروف السرّية الواردة في أوائل السور ... يقول فيها المفسّرون : « الله أعلم بمراده » . « ألر » ترد هكذا خمس مرات، و « ألم » ست مرّات. وتبتدئ الآيات بعدها بأمر إلهي في أهميّة الكتاب ووحيه الإلهي مثل : « ألر. تلك آيات الكتاب » ، و « ألر. كتاب أحكمت آياته » ، و « ألم. تنزيل الكتاب » ، « ألم. تنزيل الكتاب » ... وقد تعني ما كان يَرِدُ عادة على لسان الأنبياء : « قال لي الرب » ، وفي الآرامية : « أَمَرْ لِيْ مُرْيُو » : « ܐܡܪ ܠܝ ܡܪܝܐ » ، وذلك للدلالة على مصدر الكتاب الإلهي.

خامساً ــ مَهَمِّة القسّ وَرَقَة

جاء في صحيح البخاري أن القس ورقة « كان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب » (٥٥) وجاء في صحيح مسلم أن القسّ ورقة « كان يكتب الكتاب العربي، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب » (٥٦) . وجاء في أبي الفرح الأصفهاني أن ورقة « كان إمرأً تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب الهبراني، فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب » (٥٧) .

لئن كان الخلاف بين هذه الروايات ظاهراً، فإن بينها، من حيث المعنى والمدلول، وفاقاً. كلها تشير إلى أن القس ورقة كان ينقل الإنجيل من العبرانيّة إلى العربية، وإلى أن الإنجيل الذي كان بحوزته وينكبّ على تعريبه هو الإنجيل المعروف في الكنيسة بـ« الإنجيل بحسب العبرانيين » ، أو بـ« الإنجيل العبراني » ، أو أيضاً بـ« الإنجيل بالعبرانية » ، وتشير أيضاً إلى أن القسّ ورقة كان يعرف، إلى جانب اللغة العربية، اللغة العبرانية التي منها ينقل.

لم يعرف، في كتب السير والتاريخ، عن القسّ ورقة مهمة غير هذه، وهي مهمّة نقل الإنجيل العبراني. لكأنّها مهمته الأساسية التي عرف بها ولم يعرف بغيرها. هذه المهمة، مع تتبعه الكتب، أكسبته صفة العلم، حتى غدا من أهله ومن « الراسخين في العلم » . وقد يكون النقل من لغة إلى لغة من أهمّ المهامّ للذين يوصفون بـ« العلم » . لذلك، لم يعرف في زمن النبي، غير القس ورقة يعمل بالنقل والترجمة، ممّا يدل على تفرّده بهذا العمل الجليل.

---

(٥٥) صحيح البخاري بشرح الكرماني ١ / ٣٨ ـ ٣٩.
(٥٦) صحيح مسلم ١ / ٧٨ ـ ٧٩.
(٥٧) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٣ / ١١٤.

والكتاب الذي كان القسّ يعكف على نقله وتعريبه هو « الإنجيل العبراني » ، المعروف لدى آباء الكنيسة والواسع الانتشار في الأوساط النصرانيّة. فالقديس جيروم وجده في حلب ونقله من الآرامية إلى اللاتينيّة[٥٨]، واستشهد به اغناطيوس الانطاكي في انطاكيا[٥٩]، وقرأه أوريجينوس في الإسكندرية[٦٠] ، ونقله القس ورقة في مكة إلى العربية[٦١] . وممّا يدلّ على أنه هو نفسه كان بين يدي القسّ تلك الصلة القريبة جداً بين تعاليمه وتعاليم القرآن العربي الذي ظهر في فترة زمنية واحدة، كما سترى. أضف إلى ذلك اعتباره إنجيلاً خاصاً بالشيعة الأبيونية التي رأينا انتماء القسّ إليها.

ويبدو أن الإنجيل العبراني هذا كان وحده دون سواه من الأناجيل بين يدي القسّ ورقة، بدليل ذكره دون غيره في كتب السيرة والحديث، وبدليل ذكر القرآن لإنجيل واحد معرّف بالألف واللام، حيث لا ترد فيه صيغة الجمع اطلاقاً، في حين أننا نعلم وجود « أناجيل » متعددة، معروفة منذ الجيل الأوّل للمسيحية، إنْ في رواياتها القانونية الأربع، وإنْ في رواياتها المنحولة. فمنذ أوائل المسيحية كان المسيحيون يعرفون إنجيل متى وإنجيل مرقس وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا؛ ومنذ البدء كان النصارى يعرفون إنجيل بطرس وإنجيل الرسل الاثني عشر وإنجيل النصارى وإنجيل الطفولة وإنجيل العبرانيين وغيرها.

---

(٥٨) St. Jérôme, Comm. sur Isaïe, XI, 2; Comm. sur Ezéchiel, XVIII, 7; Comm. sur Ephésiens, V, 3, 4; Comm. sur Mat. XII, 13; Dialogue contre les Pélagiens, III, 2; De Viris illustribus, II…

(٥٩) Ignace d'Antioche, Smyrnes, III, 2…

(٦٠) Origène, Comm. Sur st. Mat., XV, 14; Comm. Sur s. Jn, II, 12.

(٦١) انظر المراجع في الصفحة ٢٧ السابقة.

فذكر القرآن العربي لإنجيل واحد مفرد، على أنه الإنجيل الوحيد الذي عرفه، يثبت أنه « الإنجيل العبراني » ، خاصّة ونحن نجد فيه وفي القرآن وفاقاً تامّاً في العقيدة والفروض والعبادات وأحوال المعاد الأخير، ممّا سنراه مفصّلاً في الفصل الأخير.

أضف إلى ذلك اعتبار القرآن العربي للإنجيل منزلاً من عند الله على عيسى ابن مريم: « وأنزل التوراة والإنجيل » (٣ / ٣)، و « قفّينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل » (٥٧ / ٢٧). وهو يستشهد ببعض أمثاله في مثل قوله : « ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه ... » (٤٨ / ٢٩)، ويستشهد به على صحّة دعوة النبي « الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل » (٧ / ١٥٧)، ويدعو أهله لأن يحكموا على صدق ما في القرآن: « وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه (أي في القرآن) » (٥ / ٤٧)، ويعتبره أخيراً « هدى ونور » (٥ / ٤٦، ٣ / ٣).

هذه الأدلّة الخطيرة حقاً تجيز لنا القول فعلاً بأن القرآن العربي عرف عن كتب الإنجيل الذي كان القس ورقة بن نوفل ينقله إلى العربيّة، وهو الإنجيل العبراني الذي يأخذ الأبيونيين بتعاليمه وفرائضه، في حين أننا لا ننكر وجود تعاليم نصرانية أخرى كان تتطوف في أجواء القسّ والنبي، ومردّها إلى أناجيل أخرى وكتب نصرانية أخرى وجدت بين شيع نصرانية عرفنا وجودها في مكّة.

سادساً ــ القَسّ وَرَقة رئيس النَصَارى

قيل عن **ورقة بن نوفل** إنه « كان قسّاً. والقسّ رئيس النصــارى » [٦٢] . وعــرّف ورقة عن نفسه أمام محفل من قريش يحضر زواج النبي من خديجة قائلاً : « نحــن ســادة العرب وقادتها » [٦٣] . وعرف أهل مكّة مقام القسّ عندهم فولّوه أمور دينهم وشؤون دنياهم، واسترشدوا بأرائه، كما فعلت خديجة حيث قيل عنها : « إن ذلك من خديجة كان بإرشاد مــن ورقة » [٦٤] .

نفهم من هذه الأقوال أن ورقة كان رئيساً على كنيسة مكّة النصرانية في زمن عبــد المطلب وفي فترة من حياة محمد. وكان له فيها دور روحي وزمني : فعليه تقوم مهمة قيــادة الكنيسة، وتعليم الناس وإرشادهم، وتفسير الكتاب وتأويله؛ وبه تناط خدمة الهيكل، وإليه يرجع في مختلف أمور الدين العقائدية منها والتشريعية. عليه تقوم منهمة تفقيه رعيّته الوحي ومعاني التنزيل، يفصّل لهم آيات الكتاب، وينقل إليهم ما عجم منه، وييسره لهم بلسان عربي مبــين، ويثبّتهم في إيمانهم، ويزكّيهم من خطاياهم، ويهديهم إلى الصراط المستقيم. فهو، بكلمة، أولهم وسيدهم وقائدهم والمسؤول عنهم.

هذه المسؤوليات هي من خصائص كل قس وكل رئيس في كنيسة المســيح. لقــد دار حوله كل « الحمس » من قريش، من عبد المطلب زعيم مكّة، إلى أبي بكر الصديق وعثمان بن الحويرث وزيد بن نفيل وعبيد الله بن جحش وعبد الله بن جدعان وغيرهم ممــن عُــرف عنهم التحنّث والتحنف في غار حراء. ودار حوله النبي محمد طيلة أربع وأربعين سنة مــن حياته.

---

(٦٢) السيرة الحلبية ١ / ٣٦٣.
(٦٣) السيرة المكية ١ / ١٢٣، السيرة الحلبية ١ / ١٥٥.
(٦٤) السيرة الحلبية ١ / ٢٧٥.

كمـــا كان القس ورقة « رئيس النصــــارى » هكذا ســـيكون النبـــي محمّــد « أوّل المسلمين » [٦٥] . وكما قامت مسؤولية النبي على تعليم الناس ما لا يعلمون، يتلو عليهم آيات الكتاب، ويزكّيهم من خطاياهم : « أرسلنا فيكم رسولاً منكم، يتلو علـــيكم آياتنــــا، ويــــزكّيكم، ويعلّمكم الكتاب والحكمة، ويعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون » [٦٦] ، هكذا كانت مسؤولية القسّ في الجماعة النصرانية.

وليس أدلّ على ذلك من كثرة اهتمام القسّ بالنبي نفسه : فهو الذي زوّجه من خديجة، وهو الذي درّبه على التأمل والصلاة في غار حراء، وهو الذي تولّى إعلان نبوّته على العرب كما سترى.

إن هذه المسؤوليّة الهامّة لجديرة بالاهتمام. فهي تظهر لنا الدور الذي لعبه القسّ فـــي جماعة مكة النصرانية، وسلطته في تعريب الإنجيل من العبرانيّة، وفــرض ترجمتـــه علـــى العرب، ومكانته العالية في مكّة وبين زعماء قريش وتجّارها الميسورين، وتولّيه أمر الكعبـــة بيت الله، وملازمته الهيكل والطواف حوله. إنّها كلها مهمّات تناط بالـــ« رئيس » السيّد القائد والكاهن الجليل. وربّما شعر بعض كتبة الصحيح والحديث بهذا الدور الخطير حتى أعلنوا عن أهميّة القسّ في الوحي عندما قالوا : « ولم يَنْشَبْ وَرَقَة أن تُوُفّيَ وفَتَــرَ الـــوحيُ » [٦٧] ، أو عندما امتدحه النبي بعد موته في قوله: « أبصرته في بطنان الجنّة وعليه السندس » أو « إني رأيت له جنّة أو جنّتين » [٦٨] .

---

(٦٥) القرآن ٣٩ / ١٢، ٦ / ١٤ ، ٦ / ١٦٣.
(٦٦) القرآن ٢ / ١٥١، وأيضاً ٢ / ١٢٩، ٢ / ٢٣٩، ٣ / ١٦٤، ٦٢ / ٢.
(٦٧) صحيح البخاري بشرح الكرماني ١ / ٣٨.
(٦٨) السيرة الحلبية ١ / ٢٧٤.

سابعاً ــ مَوتَ القسّ وَرَقَة

المعروف عن موت القس ورقة قليل جداً. فكما نجهل ولادته ومدة حياته كذلك نجهل أسباب وفاته واليوم الذي توفي فيه. إلاّ أنه قيل فيه إنه مات عن عمر يفوق المائة سنة. ولا يستبعد طول عمره طالما أنه كان صديق عبد المطّلب جد النبي ونديمه. وقد قيل عن عبد المطلب إنه مات وله من العمر مائة سنة ونيّف. ويذكر أيضاً أن ورقة توفّي بعدما بدأ محمّد رسالته بثلاث أو أربع سنين، أي عندما كان لمحمد من العمر أربع وأربعون سنة. ويوافق ذلك ما نراه عند ابن الجوزي في كتاب الامتاع « إن ورقة مات السنة الرابعة من المبعث » [٦٩] وفي سيرة ابن اسحق وفي كتاب الخميس ... [٧٠] .

ويرجّح طول حياة القس ما كان عليه في آخر أيّامه من صم وعماء. وهو ما يشير إلى ثقل عبء السنين عليه. وفي الواقع، إذا كان القسّ نديماً لعبد المطّلب يتحنّث وإياه في غار حراء، وكان محمد يومئذ في بيت جده طفلاً يناهز الثماني سنين، ثم توفي القس ولمحمد أربع وأربعون سنة، يكون على هذا المقدار الكبير من السنين.

أمّا أثر موت القسّ على الوحي فظاهر في كلام البخاري. قال : « ولم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي » [٧١] . وهذا يدلّ على ما كان عليه القسّ بالنسبة إلى النبي. لقد كان له العضد الأمين، والمرشد الحكيم، والوسيط الطاهر بينه وبين الله. وهو ما يشير إلى كونه رجلاً صالحاً، له دور فعّال في الدعوة الجديدة التي كان النبي قيّماً عليهما بعد وفاة القس سيد العرب وقائدهم ورئيس دينهم.

---

(٦٩) راجع السيرة الحلبية ١ / ٢٧٤.
(٧٠) نفس المرجع.
(٧١) صحيح البخاري ١ / ٣٨.

ويختلف أهل السير والأخبار في موت القسّ ورقة إن كان على الإسلام أو على النصرانية. ففي رواية عن ابن العباس أنه « مات على نصرانيّته » [٧٢] ، وفي كتاب الامتاع لابن الجوزى إن القس ورقة كان « آخر من مات في الفترة، ودفن بالحجون. فلم يكن مسلماً » [٧٣] . والفترة هي المدّة التي تفصل بين عيسى ومحمّد، حيث لم يكن نبوّة. والحجون هو مدفن الحنفاء من آل قريش، حيث قبر عبد المطلب جدّ النبي ووالديه.

إلاّ إنّ مفهوم أهل السير والأخبار للنصرانيّة، كدين غير دين الإسلام، فيه نظر. ومفهومهم لرسالة القسّ كونها تختلف عن رسالة النبي فيه أيضاً نظر.

وفي كل حال إن ما قاله النبي عن مصير القسّ بعد موته يفوق كل تصوّر. ويتحدّى مفاهيم أهل السير والأخبار للنصرانيّة والإسلام. يقول النبي : « لقد رأيت القس، يعني ورقة، في الجنّة، وعليه ثياب الحرير ». وفي رواية: « أبصرته في بطنان الجنّة، وعليه السندس ». وفي رواية أيضاً : « قد رأيته، فرأيت عليه ثياباً بيضا، وأحسبه، لو كان من أهل النار، لم تكن عليه ثياب بيض » . وفي رواية أخرى : « لا تسبّوا ورقة، فإنّي رأيت له جنّة أو جنّتين، لأنه آمن بي وصدّقني » [٧٤] .

فأقوال النبي هذه عن مصير ورقة، إن لم تؤيّد إسلامه، فإنّها تؤيّد ايمانه وهدايته وبالتالي نجاته، بل نجاته في أعلى درجات الجنّة. والذين أرادوه ميتاً على النصرانيّة يقصدون هلاكه أكثر ممّا يقصدون نجاته، لأنه، في ظنّهم، أدرك الدعوة المحمّدية دون أن يؤمن بها، عرفها ولكنّه لم يعتنقها ...

---

(٧٢) انظر قول ابن العباس في السيرة الحلبية ١ / ٢٧٣.
(٧٣) ابن الجوزي في الامتاع نقلاً عن السيرة الحلبية ١ / ٢٧٣.
(٧٤) ترى هذه الأحاديث للنبي في السيرة الحلبية ١ / ٢٧٤.

خَاتمَة

القليل المعروف عن القس ورقة بن نوفل في كتب السير والأخبار يدل على الكثير من نسبه الشريف ومقامه الجليل ومهمته النشيطة في مكة. وهذا القليل، ما كنا نعتمد عليه، لو لم يؤيد القرآن صحته. بنوع إننا لا نفهم من تعاليم القرآن شيئاً إنْ غابت عنا تعاليم « الإنجيل العبراني » الذي كان القس يعمل على نقله من لغته العبرانية إلى اللغة العربية. كما اننا لا نفهم من قصص الأنبياء الأقدمين، ولا من تعاليم التوراة والإنجيل، الواردة في القرآن، إن لم نردّها إلى أصلها والمصدر الذي عنه أُخذت. وقصّة يحيى بن زكريّا، وبشارة الملاك بمولده، ومولد عيسى، ومعجزاته، وإنجيله، وحوارييه، ورسالته، وكل تعاليمه وأمثاله، وكيفيّة موته... وغيرها، جميعها لا نفهم منها شيئاً إن لم نرجع بها إلى تعاليم القس ورقة وإنجيله العبراني.

ويصعب علينا، في كل حال، أن نفهم استمرارية الوحي على الأنبياء، وأخذ بعضهم عن بعض تعاليمهم وقصصهم وشرائعهم، إنْ لم يكن هناك من يضمن هذه الاستمراريّة وهذه التعاليم، ويكون، وبالتالي، الواسطة بين الوحي السابق والوحي اللاحق، أي بين التوراة والإنجيل من جهة، والقرآن العربي من جهة ثانية.

ولسنا نجد في مكة، في أيام النبي محمد، غير القس ورقة يلازم محمّداً طيلة أربع وأربعين سنة. وقد يكون في مكة والحجاز وبلاد الشام غير القس ورقة يعلّم الناس ويبشّرهم بالإنجيل ويدرّبهم على الشرع النصراني، إلاّ إن شرف القس ورقة ونسبه ومقامه ورئاسته على كنيسة مكة وقرابته من النبي ومن خديجة وتحمّسه في دينه وإيمانه وممارساته الروحيّة، كلّها تثبت لنا العلاقة المتينة بينه وبين النبي.

الفصل الثاني

القسّ والنبيّ في معترك الحياة

أولاً ــ القسّ يزوّج النبيّ

ثانياً ــ القسّ يدرّب النبيّ

ثالثاً ــ القسّ يعلم النبيّ

رابعاً ــ القسّ يعلن النبيّ خليفته

خامساً ــ القسّ النبيّ والنبيّ القسّ

[Blank Page]

أولاً ــ القَسّ يزوّج النبيّ

بعدما دخل محمّد في خدمة خديجة، بالحاج من عمه أبي طالب الــذي قال له يومها: « يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لي، وليس ما يمدنا وما يقوّمنا، ولا تجارة » [١] ، **راح محمّد يعمل في تجارة خديجة بصدق وأمانة، وراحت هي تُدفق عليه الأموال وتعطيه ضــعف مــا تعطي رجلاً من قومه » [٢] . ثم أرسلت إليه ذات يوم خادمتها « نفيســة » تفاوضــه فــي الزواج منها. وروت لنا « نفيسة» قائلةً : « فأرسلتني دسيساً إلى محمد بعد أن رجع فــي غيرها من الشام. فقلت : يا محمد، ما يمنعك أن تتزوّج ؟ فقال : ما بيدي أنْ أتــزوّج بــه. فقلت : فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاية، ألا تجيب ؟ قال : فمن هي ؟ قلت : خديجة. قال : وكيف لي بذلك ؟ قلت : بلى. وأنا أفعــل. فــذهبت فأخبرتهــا. فأرسلت إليه أنْ ائتِ الساعة كذا وكذا » [٣] .**

وعندما بلغت الساعة الحاسمة، أرسلت خديجة إلى أعمامها فحضروا. وأرسل محمد إلى أعمامه فحضروا هم أيضاً. واجتمع الناس. وخطب ولي أمره أبو طالب وقال: «... وابن أخي له في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك» . وخطب القس ورقة ولــي أمــر خديجة وقال : « الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضّلنا على ما عدّدت. فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كلّه. لا ينكر العرب فضلكم. فاشهدوا عليّ يا معشر قريش إنّي قــد زوّجت خديجة بنت خويلد من محمّد بن عبد الله » .

---

(١) طبقات ابن سعد ١ / ١١٩ و١٥٦ و١٦٨، السيرة الحلبية ١ / ١٤٧.
(٢) السيرة المكية ١ / ١١٨، طبقات ابن سعد ١ / ١٢٩، الحلبية ١ / ١٤٧.
(٣) طبقات ابن سعد ١ / ١٣١، السيرة الحلبية ١ / ١٥٢ ـ ١٥٣ ...

وفرح أبو طالب فرحاً شديداً، وقال : « الحمد لله الذي أذهب عنّا الكرب ودفع عنّا الغموم » [٤] . وقال أيضاً عن ابن أخيه : « وهو، والله، بعد هذا (الزواج)، له نبأ عظيم وشأن خطير » [٥] .

****

نتوقّف عند حدث الزواج هذا لنبدي بعض الملاحظات. فهو حدث خطير وهامّ في شأن القسّ والنبي، وفي شأن المخطّط الذي يتنفذ على يد أبي طالب وخديجة. لقد وقع النبي، على ما يبدو، وقعة الهيّة بين يدي أولياء أمره. وتوالت عليه، بعد حدث الزواج، الإعلانات الصريحة عن نبوّته العتيدة ورسالته المقرّرة. ولم تبخل علينا كتب السير والأخبار فيما كان عليه القسّ والعمّ والزوج. لقد كان لكل منهم دوره فيما دبّر الله على أيديهم المباركة.

يلاحظ أولاً مقام القسّ ورقة في مكة وفي آل قريش : فهو سيّد العرب وقائدهم، من قوله : « نحن سادة العرب وقادتها » . وقد اعتبرته كتب السيرة « رئيس النصارى » والمسؤول عنهم. ونستدلّ على ذلك من أولويّته في محفل الزواج ومن تقدّمه على كافّة الحاضرين. والقسّ، على ما نعلم، محظوظ بثقة الناس موفور الاحترام.

يلاحظ ثانياً **إن القسّ لم يكن حاضرا حفلة الزواج ومتقدّماً على الحاضرين وحسب، بل كان محتفلاً بالعقد و « مكلّلاً » . فهو الذي أبرم العهد، وشهد عليه، وأعلن على الحضور ما جرى.** هو المحتفل الأوّل بالعقد، أو قل هو « الكاهن » الذي ربط، باسم الله، ما لا يحلّه انسان، بحسب تعليم إنجيل الابيونيين. كاهن نصراني يبارك الزواج، فعلى أيّ دين يكون الزوجان اذن ؟

يلاحظ ثالثاً صيغة العقد التي قالها القسّ على الزوجين وأمام الحضور. إنها

---

(٤) السيرة الحلبية ١ / ١٥٥، السيرة المكية ١ / ١٢٣.
(٥) سيرة ابن هشام ١ / ١٩٤.

الصيغة المستعملة عادة عند النصارى مع عناصرها الأساسيّة لصحّة الزواج. العنصر الأوّل: وجود القسّ وإشرافه المباشر اللذان اتضحا في صيغة المتكلّم من قول ورقة : « إنّي قد زوّجت » . العنصر الثاني : رضى الزوجين الذي بدأ أكيداً في حديث « نفيسة » مع كلّ من محمّد وخديجة، وفي عرض خديجة نفسها على محمّد قائلة : « يا ابن عمّ. إنّي قد رغبت فيك » ، وفي رضى محمّد الذي « ذكر ذلك لأعمامه » بفرح وسرور[٦] ، وفي خطبة أبي طالب الذي أعلن « رغبة » ابن أخيه. العنصر الثالث : وجود شهود عيان من آل قريش ومن الأقرباء والأنسباء. العنصر الرابع : إعلان القسّ لعقد الزواج إعلاناً صريحاً أمام الحاضرين. والعنصر الأخير : استمراريّة الزواج الذي ربط بين الزوجين حتى موت أحدهما؛ وبالفعل كان ذلك إذ « **كانت خديجة أوّل امرأة تزوّجها رسول الله ولم يتزوّج عليها غيرها حتى ماتت** » [٧] .

يلاحظ رابعاً مقاصد القسّ فيما دبّر على يد خديجة. إنه زواج دبّره القسّ ورغب فيه قبل أن ترغب هي. فهو الذي أعلن قبل سواه هذه الرغبة في قوله : « ورغبتنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم »[٨] بالرغم من رفض والدها الذي تساءل قائلاً: « أنا أزوّج يتيم أبي طالب؟! لا لعمري. فقالت له خديجة : ألا تستحي ؟ تريد أن تسفّه نفسك عند قريش ؟ فلم تزل به حتى رضي » [٩] . وفي رواية « **إن خديجة قالت لمحمّد : اذهب إلى عمّك فقل له تعجّل إلينا بالغداة. فلما جاءها ومعه رسول الله قالت له : يا أبا طالب تدخل على عمّي (ورقة) فكلّمه يزوّجني من ابن أخيك محمد بن عبد الله. فقال أبو طالب : يا خديجة لا تستهزئي! فقالت : هذا صنع الله (؟؟؟) فقام فذهب وجاء مع عشرة من**

---

(٦) سيرة ابن هشام ١ / ١٧٣، السيرة الحلبية ١ / ١٥٣.
(٧) سيرة ابن هشام ١ / ١٧٤.
(٨) طبقات ابن سعد ١ / ١٣٣، سيرة ابن هشام ١ / ١٩٥، الحلبية ١ / ١٥٥.
(٩) طبقات ابن سعد ١ / ١٣١ ـ ١٣٣.

قومه إلى عمّها » [١٠] . ولن ندرك الآن مقصد القسّ في ذلك. لعلّه، وهو الأبيونيّ المذهب يريد الاهتمام باليتيم والفقير محمّد ؟ أو لعلّه، وهو قسّ مكّة يريد خليفة له من بعده ؟ أو يدبّر قائداً وسيّداً على قريش كما كان هو ؟

يلاحظ خامساً دخول أبي طالب هو الآخر في مخطّط القسّ وتدابيره. وهم واضح في قوله : « وهو (محمّد) والله بعد هذا (الزواج) له نبأ عظيم وشأن خطير » . ونحن نسأل : من أين لأبي طالب معرفة المستقبل واستنباط التنبوءات ؟ من أين للعمّ أن يعرف ما سيكون عليه مصير ابن أخيه ؟ ثم إنّ أبا طالب رضي أن يزوّج محمّداً الشاب من أرملة لرجلين قبله، رضي بذلك مسروراً، فأعلن : « الحمد لله الذي اذهب عنّا الكرب ودفع عنّا الغموم » . ونسأل : أكان النبي على عمّه عالة، أم أراد العمّ لابن أخيه قصاصاً، « وهو الذي كان يحبّه حبّاً شديداً لا يحبه ولده، وكان لا ينام الاّ إلى جنبه، وكان يحفظه ويحوطه ويعضده وينصره إلى أن مات » [١١] . كيف رضي له ذلك لولا مخطط القسّ المدبّر الذي يعوّض على محمّد عن الاجحاف العاطفي بقيادة روحية وسيادة زمنيّة على العرب ؟

ويلاحظ أخيراً دخول محمّد نفسه في تدابير القسّ : فتى في الخامسة والعشرين من عمره يتزوّج من امرأة تجاوزت الأربعين، وأرملة لرجلين قبله وأمّ لعدة أولاد[١٢] . هذا الشاب، مهما كان جريئاً، لا يخطر بباله، وهو الخادم، أن يتزوّج من سيّدته التي شفقت به واستخدمته في تجارتها، وقد كان قومها حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك، قد طلبوها وذكروا لها الأموال فلم تقبل. لن يكون لمحمّد ذلك لولا دافع دبّر له المناسب. ومن يكون هذا الدافع غير القسّ ؟ فلولا القسّ لما كان ما كان، ومتى أراد القسّ شيئاً كان.

---

(١٠) السيرة الحلبية ١ / ١٥٤.
(١١) طبقات ابن سعد ١ / ١١٩، ١٢١.
(١٢) السيرة الحلبية ١ / ١٥٦.

ثانياً ـــ القسّ يدرّب النبيّ

بعد أن ارتبط مصير محمّد بمصير خديجة انحلّت من مخطط القسّ عقد كثيرة. لقد وقع النبي في قبضة القسّ وقعة إلهيّة. لقد تمّت الخطوة الأولى بنجاح. وضع القسّ خبرته في خدمة نسيبه وأراه مستقبلاً غنيّاً بالأماني والآمال. ووضعت ثريّة قريش كل مالها في تنفيذ رغبات ابن عمّها. وتعاون الاثنان، بما لهما من خبرة ودهاء وجاه ومال، على اعداد النبي للرسالة المقرّرة. وسار القسّ به على طريق النجاح المكفول. والنجاح المكفول يصار إليه حثيثاً. والرسالة المهمّة تتمّ بالتدريب المتواصل والتهيئة الباطنية. فكان أوّل ما كان وأهمّ ما كان الخلوة. والخلوة في غار حراء حيث اعتكف جدّه وندماء جده و« الحمس » من آل قريش. هناك، **في مدة تزيد على الخمس عشرة سنة، راح القسّ والنبي يختليان ويصلّيان وينقطعان عن الناس ويفكّران بالله، شهراً كاملاً من كل سنة. هناك تدرّب النبي على يد القسّ الخبير بشؤون الله والناس.**

لم تكن الخلوة بعيدة عن طبع محمّد. لقد كان له ذلك منذ صغره، على حدّ شهادة أقرب المقرّبين إليه. وهي إشارة هامّة نحو النجاح. لقد شهدت مرضعته حليمة السعدية وقالت: « لمّا ترعرع كان يخرج إلى الصبيان وهم يلعبون فيتجنّبهم. ولمّا قرب الزمن الذي أراد الله أن يرسله فيه ازداد محبّة في الخلوة. لأن الخلوة يكون بها فراغ القلب والانقطاع عن الخلق. فهي تفرغ القلب عن أشغال الدنيا لدوام ذكر الله. فيصفو وتشرق عليه أنوار المعرفة. فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده. وكان يخلو بغار حراء. فكان يتحنّث فيه، أي يتعبّد فيه الليالي ذوات العدد مع أيّامها » (١٣) . وشهدت عائشة وقالت :

(١٣) السيرة الحلبية ١ / ٢٥٧، ٢٦٠.

« ثم حبّب إليه الخلاء. فكان يخلو بغار حراء، ويتحنّث فيه، وهو التعبّد الليالي أولات العــدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزوّد لذلك. ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى فجئه الحق وهو في غار حراء » [١٤] . وأكّدت خديجة ذلك بقولها : « حبّب الله إليه الخلوة التي بهــا يكــون فراغ القلب والانقطاع عن الخلق » [١٥] .

ولكن، لم يكن محمّد يعرف وحده أهميّة الخلوة إعدادًا للنفس وانقطاعاً إلى الله لو لــم يتعرّف على أناس مارسوها قبله، ولــو لم يتّبع في ذلك سيرة جدّه وندمــاء جدّه أمثال أبــي أميّة بن المغيرة والقسّ ورقة بن نوفل وغيرهما[١٦] . فعن هؤلاء أخذ محمّد الطريقة. وعلــى خطواتهم سار في تهيئة حياته الروحيّة ورسالته العلنية بين الناس. وقد شهدت الســيرة علــى خلوة محمّد ومقوّماتها بقولها : « كان رسول الله يجاور في حراء في كل سنة شهراً. وكــان ذلك ممّا تحنّث به قريش في الجاهليّة » [١٧] ، وبقولها أيضاً : « كان رسول الله يجاور ذلــك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين. فإذا قضى جواره من ذلك الشهر، كان أوّل ما يبدأ به، إذا انصرف من جواره، الكعبة، قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعاً، أو ما شــاء الله من ذلك. ثم يرجع إلى بيته. حتى كان الشهر الــذي أراد الله تعالى فيــه مــــا أراد مــن كرامته » [١٨] .

لا نعرف بالحصر مقوّمات خلوة محمد في غار حراء، ولا كيفيّتها، بحسب ما جــاء على لسان السراج البلقيني في شرح البخاري : « لم يجيء في الأحاديث التي وقفنــا عليهــا كيفية تعبّده » [١٩] . إلاّ إنها قد وصفت بما وصفت به خلوة عبد

---

(١٤) صحيح مسلم ١ / ٧٨ ـ ٧٩، صحيح البخاري ١ / ٣٩، ابن سعد ١ / ١٩٤ ...
(١٥) سيرة ابن هشام ١ / ٢١٦، السيرة الحلبية ١ / ٢٥٨.
(١٦) السيرة الحلبية ١ / ٢٥٩.
(١٧) سيرة ابن هشام ١ / ٢١٨، انظر تفسير الطبري ٢ / ٤٨.
(١٨) نهاية الارب ١٦ / ١٧٠، ابن هشام ١ / ٢١٩، الحلبية ١ / ٢٥٩ ...
(١٩) السيرة الحلبية ١ / ٢٥٩.

المطلب والقس ورقة وغيرهما ممّن قصد حراء للاعتكاف والتعبّد والرياضة الروحيّة. وفـي كتب السيرة وصف لها بما يتّفق والتقاليد النصرانية في ذلك الحين. أهمّها :

١ً ــ **الزهد والانقطاع عن الناس**. يقومان على ترك ما في الدنيا من مباهج وطيبات، واعتبار الدنيا، بحسب تحديد الغزالي فيما بعد، كلا شيء، طمعاً أو رغبة في لقـاء الله بأيـد نظيفة من علائق المادّة. ويقوم الجوار في حراء على التخلّي عن مجادلات النـاس التـي لا منفعة فيها، والابتعاد عن اهتماماتهم الدنيوية، لكي يكون كل شيء لديه مدعاة لطلب الحق من الله وحده. كما يقوم على « افراغ القلب من أشغال الدنيا، ودوام ذكر الله، فيصـفوا وتشـرق عليه أنوار المعرفة »[٢٠] .

٢ً ــ **التحنّث والتحنّف**. يقومان على التفكّر بالله وحده والتعبّد لـه، وإقامـة أعمـال الروح من صلاة وتأمّل وتهجّد وهذيان روحي وقراءة كلمة الله في كتبـه المنزلـة، وسـماع تفسيرها من مرشد خبير يساعده في معراجه الروحي، والاعتكاف علـى شـرحها وتأويلهـا وتفصيلها مع من يمكـنه ذلك. ولـذلك قيل في مواضيع تحنّث محمّد بأنّه « كان يتعبّد قبـل النبـوّة بشرع ابراهيم (؟)، وقيل بشريعة موسى، وقيل بكل ما صحّ أنّه شريعة لمن قبلـه »[٢١] . وهذا هو المعروف لدى النصارى القائمين على أحكام موسى وعيسى، أو أحكام التوراة والإنجيل.

٣ً ــ **الصيام**. قدوة بصوم موسى وايليا على جبل حوريب وصوم عيسى في بريّـة الأردن وصوم الآباء الأوّلين, كان محمّد يقضي شهره في الانقطاع عن الأكل أو فـي أكـل وجبة واحدة في اليوم، وفي الاقتصار بهذه الوجبة على المآكل الخفيفة من الأعشاب والثمـار والألبان وكسر الخبز اليابسة والنباتات التي يلتقطها من الصحراء

---

(٢٠) السيرة الحلبية ١ / ٢٥٩.
(٢١) نفس المرجع ١ / ٢٦٠.

ويأكلها، لا للتنعّم بطعمها بل لسدّ جوعه وحاجته الغذائية الماسّة إليها. وعُرف عن محمّد أنه كان يتزوّد لصيامه الكعك واللبن[٢٢] .

٤ً ــ **أعمال البرّ والاحسان.** لم تخلُ خلوة النبي من عمل الحسنة تجاه من يراه بحاجة إليها. لقد كان « يطعم من جاءه من المساكين » [٢٣] ، حتى أن طيور السماء ووحوش الجبال كانت تتنعّم بشفقته بها وعطفه عليها. هذه الناحية من حياة محمد كانت تستأثر باهتمامه، وهو الذي ذاق مرارة البؤس والحرمان منذ صغره، وهو الذي تعلّم على جدّه وعمّه ونسيبه قسّ مكّة أن يكون شفوقاً بالمساكين عطوفاً على المحتاجين وسخياً في العطاء. ولا يخفى ما في تعاليمه من حثّ على عمل الحسنات والصدقات والاهتمام بالأرامل واليتامى وأبناء السبيل، كما لا يخفى هجومه العنيف على مترفي مكّة وأثريائها و « الملأ الأعلى » من قبيلة قريش، ومنهم بعض أعمامه كأبي لهب « وامرأته حمّالة الحطب » .

٥ً ــ **شهر رمضان.** هو شهر الخلوة والصيام **والصلاة والتعبّد. فيه كان النبي يعتكف في غار حراء، وفيه كان يحظى بنعم الله، وفيه كان يتحنّث ويتفكّر بالله ويتأمّل في كتبه المنزلة. إنه شهر الهدى الذي نزل فيه الوحي تلطّفاً. لقد كان رمضان، قبل التشريع القرآني، شهر صيام نصراني، وقد أشار الكتاب إلى ذلك بقوله : « كتب عليكم الصيام، كما كتب على الذين من قبلكم » (٢ / ١٨٣).**

٦ً ــ **الطواف في البيت. في نهاية شهر الخلوة والصيام** كان ينزل محمّد **من على جبل حراء ويذهب إلى بيت الله** للشكران والاحتفال بالعبد، فيطوف بالكعبة سبع مرّات، ثم يرجع إلى بيته وزوجته مطمئنًا متمًا واجبه المقدس. تقول السيرة النبوية : « وكان إذا قضى جواره من شهره ذلك، كان أوّل ما يبدأ

---

(٢٢) السيرة الحلبية ١ / ٢٥٩.
(٢٣) سيرة ابن هشام عن ابن اسحق ١ / ٢١٩.

به، إذا انصرف قبل أن يدخل بيته، الكعبة، فيطوف بها سبعاً ثم يرجع إلى بيته » [٢٤] ، كما هو حال النصارى، بعد صيامهم الأربعين، يحتفلون **بعيد الشعانين، ويطوفون حول كنائسهم سبع مرّات. كذا في الأصل.**

*****

هذه بعض مقوّمات خلوة النبي في غار حراء. كلّها عادات نصرانيّة، لا يمارسها أيّ إنسان من ذاتِ طبعه، ولا تكون لأجل غايات دنيويّة. كلّها من شرع الله الذي أنزل على موسى وعيسى، أي التي يمارسها اليهود المتنصّرون. ولم يكن بوسع محمّد أن يكتشفها وحده لولا اقتداؤه بمن سبقه في ذلك، ولولا تدرّبه على يد مرشد خبير كالقسّ ورقة بن نوفل أقرب المقرّبين إليه.

لقد كانت ممارسات محمّد الروحيّة صعبة، وأرادها كذلك لوفرة تديّنه. ولشدّتها عليه كانت تحدث له « ارهاصات كان منها جزعاً » ، وتنتابه نوبات عصبيّة شديدة، خشي أن يكون الشيطان مسبّباً لها. ولطالما **كانت بوادره ترتجف، ووجهه يتربّد، ويتصبّب منه العرق في الأيّام الباردة، ويصاب بالإغماء، ويَغطّ كغطيطِ البكر، ويسمع عنده دويٌّ كدَويّ النحل، ويطلب من زوجته أن تلفّه بثياب دافئة ليذهب عنه الروع**[٢٥] . **هذه الحالات النفسيّة الشديدة أَرَتْهُ ما أرته من رؤى وأحلام، ظنّ نفسه فيها جِنّيّاً أو شيطاناً. وكانت خديجة تعالجه وتستشير في أمره ابن عمّها القسّ ورقة**[٢٦] .

---

(٢٤) سيرة ابن هشام ١ / ٢١٩، السيرة الحلبية ١ / ٢٦٠، نهاية الأرب ١٦ / ١٧٢.

(٢٥) انظر في هذا الموضوع، في كيفية الوحي ونزوله على النبي وما كان يحدث له من أهوال : ابن هشام ١ / ٢٢٠، صحيح البخاري ١ / ٢٣، ٣١، صحيح مسلم ١ / ٩٨، طبقات ابن سعد ١ / ١٩٨، السيرة الحلبية ١ / ٢٦٧، المكيّة ١ / ٢٨٢ ... وغيرها من مراجع في السيرة تتفق كلها على ذلك.

(٢٦) ابن هشام ١ / ٢٢٠ ـ ٢٢٣، الحلبية ١ / ٢٦٧، المكية ١ / ١٨٣.

ثالثاً ــ القَسّ يعلّم النبيّ

طيلة أربع وأربعين سنة والنبي يلازم القس ويتدرّب على يده. وهي المرحلة الهامّة من حياة النبي وممارساته الروحيّة وتثقيفه الديني. ولا عجب في أن يقوم التثقيف الديني على قراءة الكتاب الذي كان ورقة ينقله من لغته العبرانيّة إلى العربية، ويحضر محمّد نقله، ويدرسه، ويتأمّل فيه. وكم من إشارة في القرآن العربي تدلّ على هذه المهمّة الجديدة التي اكتسبها النبي وتلقّنها ودرسها بشغف الملهوف إلى كلمة الله. ولكي نتأكّد من ذلك لا بدّ لنا من إبعاد شبهة تمكّنت في عقول المسلمين، وهي أمّيّة محمّد. وتعني، في نظرهم، أن محمّداً كان يجهل القراءة جهلاً تامّاً. وتمسّك المتديّنون بهذه الأمّيّة، قصد الدلالة على حقيقة النبوّة؛ فيما الحقيقة تدلّ على أنّ الله استعمل وسائط طبيعية لإعلان كلمته، واستخدم إنساناً خبيراً علّم محمّداً ما لم يكن يعلم. وما آية « النبي الأمّيّ » الواردة في القرآن إلاّ لتعني شيئاً آخر غير الذي يقصده المذهولون.

لذلك فإنّنا نميّز بين أمرين : بين ما كان يعلمه محمّد، وبين ما كان لا يعلمه وتعلّمه بعد حين. أمّا العلم الذي كان يعلمه فهو علم القراءة والكتابة الذي اكتسبه في صغره؛ وعلى ذلك أدلّة. وأمّا العلم الذي كان يجهله ثم تعلّمه فهو علم الكتاب المنزل، أي علم الإلهيات والروحانيات والتشريع، وهو العلم الذي اكتسبه محمّد من « لدن خبير حكيم » (١١ / ١)، وممّن « عنده علم الكتاب »، و « من الراسخين في العلم » . ونسمّي العلم الذي يعلمه « العلم الطبيعيّ » , والعلم الذي اكتسبه فيما بعد « العلم الإلهي » . وكل العلمين مكتسب.

أولاً ــ العلم الطبيعي

كان محمد تعلّمه منذ صباه، وهو في حماية جدّه وكفالة عمّه. وقد أراد المتديّنون إنكاره عليه، قصد الدلالة على تدخّل الله المباشر في النبوّة، وقصد إظهار جدّة القرآن والإسلام، واعتبار كل شيء فيه من لدن الله. وعلى هذا العلم أدلّة :

١ً ــ **إن « الأمّيّ بحسب القرآن هو من ليس له كتاب منزل. فاليهود، أبناء اسحق بن ابراهيم، هم « كتابيّون »، في حين أن العرب، أبناء اسمعيل بن ابراهيم، هم « أمّيّون ». ودلّ القرآن على هذا التمييز دلالةً واضحةً وصريحةً : فهو يدعو الكتابيين والأميين إلى اتّباع الإسلام : « قل للذين أُوتوا الكتاب والأمّيّين أأسلمتم ؟ »** (٣ / ٢٠)، وهو يشير إلى تمنّي الأميّين معرفة الكتاب : « ومنهم أمّيون لا يعلمون الكتاب الاّ أمانيّ » (٢ / ٧٨). ويفتخر بأن بعثه الله رسولاً من غير الكتابيين فيقول : « هو الذي بعث في الأمّيين رسولاً منهم » (٦٢ / ٧). وقد عرف أهل الكتاب بأن التمييز بينهم وبين الأميين شيء محتوم، فـ« قالوا : ليس علينا في الأمّيّين سبيل » (٣ / ٧٥) ... بهذا المعنى القرآني الصحيح يجب أن نفهم قول الكتاب عن أمّيّة محمّد في الآيتين التاليتين : « الذين يتّبعون الرسول النبي الأمي » (٧ / ١٥٧) و « آمنوا بالله ورسوله النبي الأمّيّ الذي يؤمن بالله » (٧ / ١٥٨). **فالأمّيون إذن هم العرب أبناء اسمعيل، والكتابيون هم اليهود أبناء اسحق. وبالتالي إن اميّة محمّد لا تعني جهلة القراءة والكتابة بقدر ما تعني انتماءه للعرب الأميين أبناء اسمعيل الذين ليس لهم من الله كتاب منزل.**

٢ً ــ والدليل الثاني من دعوة جبريل للنبي في السورة الأولى من تاريخ نزول القرآن. فيها يدعو الملاك محمّداً قائلاً : « اقرأ باسم ربّك الذي خلق. خلق

الإنسان من علق. اقرأ وربّك الأكرم الذي علّم بالقلم. علّم الإنسان ما لم يعلمْ (٩٦ / ١ ــ ٥). وأجمعت كتب « تفسير القرآن » ، وكتب « أسباب النزول » ، وكتب السيرة النبوية والأخبار والأحاديث والصحيح والباحثون المسلمون والمستشرقون على أن هذه السورة هي الأولى في تاريخ الوحي. واتّفق الجميع على أن جبريل جاء محمّداً يحمل إليه كتاباً ويدفعه إليه ليقرأه ... فلولا معرفة محمّد بالقراءة ولولا صحة تاريخها، وصحّة ما جاء فيها، لما اتّفق الجميع على سرد الوقيعة. ولئن كان الله « يمكر » بالناس، وهو « خير الماكرين » [٢٧] ، أفيمكر أيضاً بنبيّه، ويكلّفه شيئاً لا يستطيعه !!!

٣ً ــ إن العلم الطبيعي الذي تعلّمه محمّد، لا بدّ أنه تعلّمه وهو في بيت عمّه أبي طالب وتحت حمايته. لقد قيل عن أبي طالب في حبّه لابن أخيه : لقد « اختصه بفضل واحترام وتقدير. وظلّ فوق أربعين سنة يعزّ جانبه ويبسط عليه حمايته » [٢٨] . « كان يحبّه حبّاً شديداً لا يحبّه لأحد من ولده. وكان لا ينام الاّ إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه. وصبّ به أبو طالب صبابةً لم يصبّ مثلها بشيء قط، وكان يخصّه بأحسن الطعام » [٢٩] . و « **كان أبو طالب يحفظه ويحوطه ويعضده وينصره إلى أن مات** » [٣٠] **... هذه العناية الجليلة اقتضت من أبي طالب اهتماماً بالغاً بشؤون ابن أخيه اليتيم الذي حظي في بيته ما حظي به ابن عمّه عليّ صاحب البلاغة المأثورة ومنتهج نهجها في « نهج البلاغة » . ولا يعقل أن يمنع أبو طالب عن ابن أخيه ما تمتّع به ابنه وتنعّم وأبدع في مجالاته.** ولئن فرّق المتديّنون بين ربيبي أبي طالب فلغاية في النفس لا مبرّر لها سوى إظهار حقيقة النبوّة في كل شيء. فأبو طالب لم يكفل محمّداً ليوفّر له حاجاته المادية وحسب، بل وفّر أيضاً وقبل

---

(٢٧) القرآن ٣ / ٥٤، ١٤ / ٤٦ ...
(٢٨) محمد الغزالي في فقه السيرة ٦٧.
(٢٩) ابن سعد ١ / ١١٩، الحلبية ١٢٥.
(٣٠) ابن سعد ١ / ١٢١.

كل شيء ما وفّره لابنه من علم وتربية وأخلاق ...

٤ ــ مهما تعدّدت تأويلات لفظة « قرأ » الواردة في أمكنة عديدة من القرآن، فإن المقصود منها القراءة الكتابية، أي قراءة الكتاب. والآيات التي تدلّ على معرفة محمّد بالقراءة كثيرة. نذكر منها : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان » (١٦ / ٩٨)، و « إذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً » (١٧ / ٤٥)، و « قرآناً فرّقناه لتقرأه على الناس على مكث » (١٧ / ١٠٦)، « اقرا كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » (١٧ / ١٤) ... هذه الآيات وغيرها تفيدنا إن محمّداً كان يعرف القراءة ويجيدها، وكان يقرأ الكتاب الذي بين يديه، فكانت قراءته له « قرآناً » .

ثانياً ــ العلم الإلهي

أمّا العلم الذي كان محمّد يجهله فهو الذي تكفّل القسّ بإعطائه لتلميذه الروحي، هو علم الكتاب المنزل الذي كان القس ينقله في حضور محمّد طيلة أربع وأربعين سنة. هذا العلم « درسه » النبي على القس وفي الإنجيل العبراني. و « لفظة درس في القرآن مقصورة على دراسة الكتب المقدّسة » [٣١] . بهذا الدرس تحدّى محمّد وتابعوه المجرمين الذين لا يستطيعون لا الحكم ولا الخيار لأن ليس لهم كتاب منزل. قال : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم كيف تحكمون ؟ أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ إن لكم فيه لما تخيّرون » (٦٧ / ٣٥ ــ ٣٨). ولئن اتّهم الدارسون في الكتاب محمّداً بأنّه لا يأتيهم شيئاً جديداً، فانّ تهمتهم تردّ عليهم، لأنه يعمل على تصريف الآيات وتبيينها وتيسيرها فقط : « وكذلك نصرّف الآيات.

(٣١) Le Coran, trad. par D. Masson, Sor. VI, 105; P. 831

وليقولوا درست ولنبيّنه لقوم يعلمون » (٦ / ١٠٥). وكان محمّد أحسن من درس وتعلّم من العرب الكتاب الذي بعثه الله إليه : « وإذ تتلى عليهم آياتنا بيّنات، قالوا ... إن هذا الاّ سحر مبين. وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير » (٣٤ / ٤٤). والذين درسوا في الكتاب الذي درس فيه محمّد عليهم ميثاق ألاّ يقولوا إلاّ الحق : « ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلاّ الحق ودرسوا فيه! » (٧ / ١٦٩). لذلك عليهم أن يعلنوا ما درسوا كما هو يعلن، وهم يعلمون ما يعلنه خير علم. وهو ينصحهم بأن يعملوا بما يعلّمون ويعلنون : « كونوا ربّانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » (٣ / ٧٩) كالفريسيّين الذين اتّهمهم المسيح بأنّهم « يقولون ما لا يعملون » [٣٢] . فعلم محمّد للكتاب ودرس ما فيه وقراءة أخباره، وتفصيل آياته وتبيينها، كلها كانت له زاداً ليحاجج الناس الذين يجادلون « في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » (٣١ / ٢٠، ٢٢ / ٨).

*****

النتيجة من كل هذه الأدلّة تحسم بمعرفة محمّد للقراءة والعلم الطبيعي، وقد حصّلهما منذ صباه، بطريقة الدرس والاكتساب، لا بالحدس والإلهام الربّاني. ومعرفة محمّد بهذا العلم لا تقلّل من دوره الرسولي، لأن الله، إذا ما اختار إنساناً ما لرسالة ما، وفّر له المعطيات البشرية المناسبة لأداء هذه الرسالة. وما إشارة القرآن إلى تعلّم محمّد « علم ما لا يعلم » سوى علم ما لا يعلم من الكتاب المنزل. وهذا العلم هو أيضاً لم يكن حدساً وإلهاماً بقدر ما كان تعلّماً واكتساباً من « الذين يقرأون الكتاب من قبل » (١٠ / ٩٤). وما ردّ محمّد

(٣٢) إنجيل القديس متى ٢٣ / ٣.

التهمة عنه إلاّ دليل آخر على ما تعلّمه من أهل الكتاب: « ولقد نعلم إنّما يعلّمه بشر » (١٦ / ١٠٣)، فردّ بقوله : « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي : وهذا لسان عربي مبين » (١٦ / ١٠٣). وقد اعترف بذلك عندما قال بأنه لا يعلم الغيب ولا عنده خزائن علم الله : « قلْ لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب » (٦ / ٥٠، ٧ / ١٨٨).

ويشهد على علم محمّد بالكتاب جملة شهود : الله، والملائكة، وأهل الكتاب. وردّد القرآن العربي هذه الشهادات فيه : « قلْ كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » (١٣ / ٤٣)، « شهد الله والملائكة ... وأولو العلم » (٣ / ١٨)، « شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله » (أي على مثل القرآن) (٤٦ / ١٠)، « يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون! » (٣ / ٧٠)، « إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيّون الذين أسلموا للذين هادوا والربّانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » (٥ / ٤٤) ...

ويوم يرتاب محمّد من علمه ومن وحي الله فما عليه إلاّ أن يسأل أهل الكتاب ويستشيرهم : « إن كنت في شكّ ممّا أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك. لقد جاءك الحقّ من ربّك » (١٠ / ٩٤). **وعندما يشكّ أتباعه من صحّة علمه ووحيه ينصحهم بأن يذهبوا إلى أهل الكتاب ويسألوهم : « اسألوا أهل الذكر إنْ كنتم لا تعلمون »** (١٦ / ٤٣، ٢١ / ٧). وما القرآن أخيراً إلاّ تبيان لما أنزل من قبل : « وأنزلنا اليك الذكر لتبيّن للناس ما نزّل إليهم » (١٦ / ٤٤).

ومن جملة من « عنده علم الكتاب » ، وشهد شهادة حقّ في القرآن ونبيّه هو القس ورقة بن نوفل، أقرب المقرّبين إليه وإلى زوجته. وقد شهدت عائشة بدور ورقة في قولها: « ولم ينشب ورقة أنْ توفّي وفتر الوحي » .

رابعاً ــ القسّ يعلن النبيّ خليفته

لم يُخْفِ القسّ مقاصدَه فيما دَبّر لمحمّد منذ أن تعرّف عليه. ولم يُخْفِ كتّابُ السيرة مقاصدَ القس هذه. لقد أدركوها، وعرفوا ما أدركوا، وحاولوا تجنّب خطره. وما تجنّبوه كان اثباتاً خطيراً لما نبحث عنه. لقد حاولوا إثبات نبوّة محمّد، فيما هم في الحقيقة يثبتون نبوّة القسّ. حاولوا إرجاع كل شيء إلى الله، وهم في الواقع يثقون بقدرة القسّ ثقة عمياء. بحثوا في علاقة محمّد بالله، فإذا هم يعلّقون محمّداً بالقسّ ... وأنت تدرك ذلك عندما تسمع الإعلان تلو الإعلان، يطلقه القسّ على محمّد ونبوّته العتيدة. وعندما تسمع تنبؤات القس على مستقبل محمّد تظنّ أنّ كتبة السيرة يطلقون ذلك للدلالة على قدرة القسّ ودوره الخطير، فيما هم يظنّون التدليل على نبوّة محمّد.

ولا غرابة في الأمر، فإن كل شيء قد أعدّ إلى الآن على أحسن حال، والقسّ قدير على كل شيء في كل حال. وللناس ثقة بقدرة القسّ، أيّ قسّ، ممّا يثبت كل مخطط يرسمه، وينفّذ كل قصد يعزم على تحقيقه. وقد تيسّر له ذلك بسهولة، لاعتبارات عديدة : منها مقامه الوجيه وشرفه الوسيم بين الناس، فهو من « سادة العرب وقادتها » ؛ ومنها رئاسته على جماعة مكة، فهو « رئيس النصارى » ؛ ومنها علمه الواسع بالكتب والأمور الإلهية، فهو « يتتبّع الكتب من أهلها » ؛ ومنها انقياد الناس له ولأمثاله من القسّيسين والرهبان، فهم « لا يستكبرون » (٥ / ٨٢)، واتّخذهم الناس « أرباباً من دون الله » (٩ / ٣١)؛ ومنها أخيراً سعي أصحاب الحاجة إليهم وطلب نصائحهم، والالتجاء إلى صوامعهم، والتماس الشفاء من أيديهم، واستطاعتهم في اكتشاف الغيب واستطلاع الأسرار الخفيّة ... واستغلّ القسّ ورقة اعتبارات الناس هذه، وراح يدبّر له خليفة يخلفه في مهمّته، فكان

محمّد بن عبد الله خير من دبّر. وأشرك في تدبيره هذا أقرب المقرّبين إليه وإلى النبي. فكـــان ما أراد. ومتى أراد القس شيئاً كان، والقس قدير على أي شيء كان.

أمّا الذين تعاونوا مع القسّ وسمعوا نداءه وذهلوا بتدابيره فأهمّهم وأوّلهم خديجة زوج النبي، وأبو طالب عمّه وكفيله، وأبو بكر الصديق صديقه الحميم، ووالد خديجة بعد رضـــاه، وأخوها عمرو، وغيرهم كثير. كلّهم انصاعوا لتدابير الله على يد قسّه ووكيلـــه فـــي مكّـــة، واتّخذوا فيما دبّر. وبارك الراهب بحيرا والراهب عدّاس النينـــوى وســـلمان الفارســـي هـــذا التدبير[٣٣] . وساعدوا القسّ فيما أراد، فتوالت التنبؤات عن مستقبل محمّد من كل جانب، على ألسنة السحرة والكهان، والإنس والجنّ، والشجر والحجر، والحيوانات على أنواعها، والملوك والأحبار، والملائكة والبشر ... ولم تبخل كتب السيرة والأخبار عـــن ذكـــر الكثيـــر منهـــا. والبعض ممّا ذكر ينبئ عن الكثير ممّا حدث. وما كنّا ندري شيئاً ممّا حدث لولا القسّ يفسّر لنا ما حدث. واستمرّت الإعلانات تتوالى طيلة خمس عشرة سنة. وأهمّها أتى في ست مراحـــل هامّة من حياة النبي ورسالته :

الإعلان الأول : قبل الزواج :

قبل أن تتمّ مراسيم الزواج بين محمّد وخديجة، وفيما كان محمّد يتاجر لها في بلاد الشام، رجع « مُيْسَرَة » غلامُها الأمين يخبرها بما رأى وبما سمع مـــن مـــذهلات جـــرت لمحمّد[٣٤] . ولمّا انتهى من حديثه، قامت خديجة للحال، وأتت مسرعة تخبر ابن عمّها ورقة ما سمعته من غلامها عن محمّد. وللوقت وقف القسّ باطمئنان العارف بمشيئة الله يقول : « لئن كان هذا حقاً، يا خديجة، فإن محمّداً

(٣٣) السيرة المكية ١ / ١٨٣، السيرة الحلبية ١ / ٣٦٧.
(٣٤) ابن هشام ١ / ١٧٥، الكامل في التاريخ ٢ / ٣٩، الحلبية ١ / ١٤٧ ـ ١٥٢.

لنبيّ هذه الأمّة. وقد عرفت (؟) إنه كائن لهذه الأمّة نبي منتظر هذا زمانه » [٣٥] .

لا بدّ لنا أن نسأل، لا عن حقيقة نبوّة محمّد، بل عن حقيقة نبوّة ورقة : من أين لورقة هذا ؟ كيف عرف مشيئة الله ؟ أكان القسّيسون في ذلك الزمان يدركون الغيب ومستقبلات الناس ولم يعد لهم اليوم ذلك ؟! أم أنّهم يمكرون كما الله « خير الماكرين » [٣٦] ؟ من أين لكتبة السيرة أن يعرفوا تدابير القسّ وتنبؤاته لو لم يكن لهم علم بأن الله يعلن عن أنبيائه بواسطة إنسان خبير بمقاصده الإلهيّة ؟ وفي كل حال، لقد عرفت خديجة أن تستسلم لتدابير ابن عمّها فيما أراد، وهي التي كانت تسترشد بآرائه، على حدّ قول صاحب السيرة : « كان ذلك لخديجة بإرشاد من ورقة » [٣٧] .

الإعلان الثاني : في بدء الوحي :

لمّا كان محمّد في غار حراء يتحنّث ويصوم ويصلّي ويتفكّر بالله، وقد بلغ الأربعين، أتاه جبريل آخر الشهر يعلن له : « أبشر يا محمد، أنا جبريل وأنت رسول الله لهذه الأمّة » . ودفع إليه كتاباً يقرأه. فاعترى محمّداً ذهولٌ. ثم انصرف عنه الملاك. ورجع المرتاض قافلاً إلى بيته يحدّث زوجته بما سمع ورأى وللحال أعلنت خديجة، هي الأخرى العارفة بمشيئة الله: « أبشر يا ابن عمّي واثبت. فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمّة » . ثم قامت وجمعت عليها ثيابها وانطلقت إلى ورقة تخبره ما حدث لزوجها. وقبل أن تستكمل حديثها أعلن ورقة مطمئناً وقال : « قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده، لئن كنتِ

---

(٣٥) سيرة ابن هشام ١ / ١٧٥ ـ ١٧٧، السيرة الحلبية ١ / ١٥١.
(٣٦) القرآن ٣ / ٥٤، ٢٧ / ٥٠، ١٤ / ٤٦، ٨ / ٣٠، ١٠ / ٢١.
(٣٧) السيرة الحلبية ١ / ٢٧٥.

صدقتني يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى. وإنه لنبي هــذه الأمّــة. فقولي له فليثبت » [٣٨] .

لقد تكاثرت الشهادات على نبوّة محمّد، من الأرض ومن السماء : من جبريل ومــن خديجة ومن القسّ ورقة. وفي مضمونها ومقصودها واحدة. الكل يفسّر الرؤيا تفسيراً واحــداً. والكل ينصح صاحبها بالثبات والاستمرار فيما هو عليه. والكل يعلن نبوّته العتيدة في الأمــة العربيّة البكر. فهو على خط موسى وعيسى، سيأتي بناموس للأميّين، كما أتى موسى وعيسى بناموس للكتابيين. ولن يكون بين ما سيكون للعرب وبين ما هو لبني إسرائيل فرق. الناموس هو أيّاه. وليس لمحمّد الاّ أن يعلنه ويكون له رسولاً وبشيراً ومبلّغاً. ولكن، لا بدّ لنا أن نسأل، لا عن نبوّة محمّد، بل عن نبوّة خديجة، التي أعانت لزوجها نبوّته، والتي عرفت مشــيئة الله، وفسّرت الرؤيا كعليمة بأسرار الغيب. فمن أين لها ذلك ؟ أمن الله أم من ابن عمّها ؟ الله أعلم.

الإعلان الثالث : في بدء الرسالة :

لمّا نزل محمّد من على جبل الخلوة والصلاة، في نهاية شهر رمضان، أتــى الكعبــة ليطوف بها سبع مرّات، قبل أن يرجع إلى بيته وزوجته، بحسب عادته كل مرّة. وفيمــا هــو يطوف كان القسّ يطوف أيضاً. وبادره القسّ بالسؤال : « يا ابن أخي، أخبرني بمــا رأيــت وسمعت. فأخبره رسول الله » . فأعلن القس، باطمئنان العارف بمشيئة الله، وقال : « والذي نفسي بيده، إنّك لنبي هذه الأمّة. ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جــاء موســى. ولتكذبنّــه ولتؤذينّه ولتخرجنّه ولتقاتلنّه ولئن أنا أدركتُ ذلك اليوم لأنصرنَّ الله نصراً يعلمه » . ثم أدنى رأسَه منه وقبّل يافوخه . ثم انصرف محمّد إلى منزله مطمئنّاً » [٣٩] .

(٣٨) ابن هشام ١ / ٢٢١، الحلبية ١ / ٢٦٢، ابن سعد ١ / ١١٥.

هذا هو الاطمئنان المطلوب، الذي حصل عليه محمّد، والذي كان يتمنّاه من ورقة. وهذا هو الاطمئنان الذي يطلب من القسّ توفيره لرعيته. وهذا هو النصر الذي حاز عليه القسّ في تدبير خليفة له على جماعة مكّة. والمطلوب الآن من محمّد، لا أنْ « يثبت » وحسب، بل أن يكون « مطمئناً » أيضاً. ومتى بلغت الطمأنينة قلب محمّد، استطاع القسّ أن يعلن : « لأنصرنّ الله نصراً يعلمه » . واستحقّ الشاب الوديع قبلةً من القس على رأسه. بهذه الطمأنينة التي حاز عليها محمّد، بشّر في رسالته العتيدة عندما قال : « بذكر الله تطمئنّ القلوب » (١٣ / ٢٨)، « وما جعله الله الاّ بشرى لكم ولتطمئنّ قلوبكم به » (٣ / ١٢٦، ٨ / ١٠)، و « قال : أولم تؤمن ؟ قال : بلى. ولكن ليطمئنّ قلبي » (٢ / ٢٦٠). وبهذه السكينة الباطنية أيّد الله محمّداً وجماعته : « فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود » (٩ / ٤٠، ٤٨ / ٤)، و « أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » (٤٨ / ٢٦ و١٨، ٩ / ٢٦). وهكذا انتصر القسّ نصراً من عند الله بنصر تلميذه: « وينصرك الله نصراً عزيزاً » (٨ / ٣) ...

الاعلان الرابع : عند نزول الوحي :

بعد هذا النصر انطلق محمّد برفقة أبي بكر إلى القسّ ورقة طالباً منه تفسير ما يعرض له من نوبات واغماءات وأرهاصات. فهو لا يدري من أين هي، وممّن هي، وما معانيها. وأخبره مسترشداً : « إذا خلوتُ وحدي سمعتُ نداءً خلفي : يا محمّد، يا محمّد. فأَنطلقُ هارباً إلى الأرض » . وراح القسّ يرشده وينصحه ويهدّئ من روعه ويطمئن نفسه في قوله : « لا تفعل إذا أتاك. فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتني » [٤٠] .

ورجع النبي قافلاً إلى بيته، ورجعت عليه الرؤى، واضطربت نفسه، وكثرت

(٣٩) ابن هشام ١ / ٢٢٢، تفسير الطبري ٢ / ٤٩، الحلبية ١ / ٢٦٣.
(٤٠) السيرة الحلبية ١ / ٢٦٣.

الاغماءات، وتعدّدت النوبات العصبيّة. ثم يعود إلى مرشد، يسأله عن سبب اضطراباته هذه : أهي « أضغاث أحلام » [٤١] يأتي بها الشيطان ؟ أم هي « جِنَّة » [٤٢] في العقل يسبّبه عفريت من الجنّ ؟ أم هي « سحرُ » [٤٣] ساحر يسحره ؟ أم إلهامات شعرية لـ« شاعر » ملهم[٤٤] ؟ أم « كهانةُ » [٤٥] كاهن يبتغي معرفة خزائنَ الله وعلمَ الغيب ؟ أم أخيراً هي إلهامات ربّانيّة ورؤى إلهيّة ووحي منزل كان تجيئه كما كان تجيء أنبياءَ الله في العهد القديم ؟

لم تتوانَ خديجة عن البحث والاستشارات لتهدّئ روع زوجها. فقد كان تذهب به إلى القسّ ورقة تارة، وإلى عدّاس النينوى طوراً. وأتت يوماً هذا الأخير تخبره عمّا يجري لبعلها، فقال لها ذات مرّة : « يا خديجة، إن الشيطان ربّما عرض للعبد فأراه أموراً. فخذي كتابي هذا وانطلقي به إلى صاحبك. فإن كان مجنوناً، فإنه سيذهب عنه، وإن كان من الله فلن يضـرّه. فانطلقت بالكتاب معها » ، ورجعت إلى زوجها[٤٦] .

وممّا يذكر أن مثل هذه الحالات من الإغماء كان يعتريه قبل الوحي والبعثة، وكان يرقى من العين كل مرّة. وروى لنا ابن اسحق عن شيوخه هذا الحديث بقوله : « إنه (أي محمّد) كان يُرقى من العين، وهو بمكة، قبل أن ينزل عليه القرآن. فلما نزل عليه القرآن أصابه نحو ما كان يصيبه قبل ذلك » [٤٧] . وكانت خديجة تقول له باستمرار : « أوجّه إليك من يرقيك ؟ » ويضيف ابن اسحق : « لم أقف على من كان يرقيه ولا على ما كان يرقى به » [٤٨] . ومحمّد نفسه كان يتخوّف من

---

(٤١) القرآن ٢١ / ٥، ١٢ / ٤٤.
(٤٢) ٧ / ١٨٤، ٢٣ / ٢٥، ٣٤ / ٨، ٣٧ / ١٥١.
(٤٣) ٦ / ٧، ١٠ / ٧٦، ١١ / ٧، ٢٧ / ١٣.
(٤٤) ٣٦ / ٦٩، ٢١ / ٥، ٢٧ / ٣٧، ٥٢ / ٣٠.
(٤٥) ٥٢ / ٢٩، ٦٩ / ٤٢، ٦ / ٥٠، ٧ / ١٨٨.
(٤٦) السيرة الحلبية ١ / ٢٦٧، المكية ١ / ١٨٣.

حـــالاته هذه، وكان يردّد مراراً : « لقد خشيتُ على نفسي » [٤٩] ، و « أخشـــى أن أكـــون كاهناً » [٥٠] ، و « أخشى أن يكون فيّ جُنن » [٥١] ، و « أخشى أن يكون بي لِمّة » [٥٢] ... ومع هذا، لا نزال نحن نؤمن بتلك الطمأنينة التي أيّد بها القسّ محمّداً، راجين أن نكونَ عليها في مطلق الأحوال.

الإعلان الخامس : بعد بدء الرسالة :

ثبت النبي على نصيحة القسّ واطمأنّ. وراح يباشر مهمّته الرسوليّة وينذر وابتدأ يعلن للناس بعض ما نُزّل عليه من سور القرآن بلسان عربي مبين. ولكنّه لم يتمكّن من حمل عبء الرسالة الملقاة على عاتقه، فراح يضطرب من جديد. ففيما هو مرّة يقرأ وينذر ويتوعّد، أخذت بوادره ترتجف، ووجهه يتربّد، وتنتابه الخشية. فرجع إلى بيته مذعوراً ودخل علـــى خديجـــة يقول لها : « زمّلوني زمّلوني » [٥٣] ، أي لفّوني بالثياب الدافئة. فسارعت خديجة وزمّلتـــه حتى ذهب عنه الروع. فزال عنه الكرب وارتاحت أعصابه : وطلبت منه أن يخبرها خبر ما جرى. فأخبرها. وقالت له للحال قول العارف بالأمور ومجريات الأحداث : « كـــلا. أبشـــر. فوالله، لا يخزيك الله أبداً. إنّك لتصل الرحم، وتُصدق الحديث، وتحمل الكلّ لغيرك، وتُكســـب المعدوم، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحقّ ... » [٥٤] .

---

(٤٧) السيرة الحلبية ١ / ٢٧٥ ـ ٢٧٦.
(٤٨) نفس المرجع ١ / ٢٧٦.
(٤٩) نفس المرجع ١ / ٢٧٦.
(٥٠) صحيح البخاري ١ / ١٨، صحيح مسلم ١ / ٩٧.
(٥١) طبقات ابن سعد ١ / ١٩٥، الحلبية ١ / ٢٥٨.
(٥٢) السيرة الحلبية ١ / ١٣٦.
(٥٣) ابن سعد ١ / ١٩٥، الطبري ٢ / ٤٨. انظر في القرآن سورتي « المزمّل » و « المدثّر ».
(٥٤) صحيح مسلم ١ / ٩٧ ـ ٩٨، السيرة الحلبية ١ / ٢٦٧.

وأرادت خديجة أن تتثبّت ممّا تقول وأن تؤكّد لزوجها حجّتها. فانطلقت به كالمعتاد إلى ابن عمّها ورقة تقول له : « أي عمّ، اسمع من ابن أخيك » . واستوضح ورقة محمّداً : « يا ابن أخي، ماذا ترى ؟ » . فأخبره خبر ما رأى. فأسكن القس روعه مجدّداً، وراح يردّد عليه قوله كالمعتاد : « هذا الناموس الذي أُنزل على موسى » . ويضيف هذه المرّة : يا ليتني فيها جَذِعا وأكون في زمن الدعوة » . ثم التفت ورقة إلى خديجة يقول: « نعم. لم يأتِ رجلٌ بما جئتِ. ألا عوديّ » [٥٥] . وعادت خديجة ماسكةً بيدِ زوجها والطمأنينة في نفسيهما. وأبلغنا القسّ عن تمنّياته بعدما تحقّق اليسير منها.

الإعلان السادس : عند بدء الجهاد :

عن عليّ بن أبي طالب قال : « **لمّا سمع محمّد النداء : « قل أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمّداً رسول الله » . قال محمّد : « لبّيك » . ثم قال : قل الحمد لله ربّ العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين. لما سمع محمّد ذلك اضطرب وقام وأتى القسُّ وذكر له ما سمع. فقال ورقة : « أَبشرْ ثم أَبشرْ. فإني أشهد أنّك الذي بشّر بك ابن مريم. فإنك على مثل ناموس موسى. وإنك نبي مرسل. وإنّك ستُؤمر بالجهاد بعد يومك. ولئن أدركني ذلك لأجاهدنّ معك »** [٥٦].

يبدو أَنَّ هذا الإعلان أطلقه القس بعدما أُمِر محمّد بالجهاد، أي بعد مضي زمن غير يسير على بدء الرسالة، قد يتراوح بين السنتين والثلاث سنين، عندما أصبح القسّ عاجزاً ضريراً أصمّ. وفي هذا الإعلان اطمئنان آخر لمحمّد بأنّه لن يكون وحده في جهاده ضد المنافقين من قريش. فالقس إلى جانبه، رغم كبر

---

(٥٥) السيرة الحلبية ١ / ٢٦٣، ٢٦٧.
(٥٦) نفس المرجع ١ / ٢٦٩.

سنّه، يرشده، ويعضده، وينصحه بألاّ يستعجل الأمور؛ لأنّ المهمّ في سبيل الحصول على النجاح الصبر وعدم العجلة، وهي نصيحة ثمينة ذكّره بها القرآن فيما بعد : « اصبر كما صبر أولو العزم من الرسل. ولا تستعجل » (٤٦ / ٣٥). وعلى محمّد أن ينتصح، وألاّ يترك الرسالة الملقاة على عاتقه، مهما ضاق بها صدره : « لعلّك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك! » (١١ / ١٢). فإن الله لن يترك نبيّه بغير عضد ولن ينساه أو يودّعه: « ما ودّعك ربّك وما قلى » (٩٣ / ٣). وعلى محمّد أيضاً ألاّ ينسى ما يقرأ عليه من الكتاب : « سنقرئك فلا تنسى » (٨٧ / ٦).

*****

وهكذا صار وما كان صار ما صار لولا رحمة الله التي دبّرت كل شيء على أحسن حال. ولئن صحّ ما جاء في الأخبار أم لم يصحّ فان روايات السيرة النبويّة وتسلسل الأحداث، وشهادة القرآن لها، والوساطة الطبيعية التي يستخْدمها الله لإعلان كلمته وتبليغها. يؤكّد لنا وقوع محمّد وقعة إلهيّة في مخطط القس ورقة وتدابيره بتنفيذ من خديجة سيدة نساء قريش التي وفّرت له « المال والجاه والشرف والجمال والكفاية والحنان » .

لقد دبّر القسّ كل شيء ونفّذت خديجة كل شيء على أكمل وجه. فهي التي كانت تسعى بين القسّ والنبي. تسمع النبي وتشجّعه. وتذهب إلى القسّ وتسترشده. ويكفي أن يقال عنها « إن ذلك من خديجة كان بإرشاد من ورقة » [٥٧] .

---

(٥٧) السيرة الحلبية ١ / ٢٧٥.

ورقة وخديجة وأبو طالب لعبوا في حياة محمّد ورسالته دوراً كبيراً لا ريب فيه. وبموتهم فقد محمّد العضد والسند والمرشد والمنعة والحنان :

بموت القسّ ورقة « فتر الوحي » [٥٨] .

وبموت خديجة « تتابعت على رسول الله المصائب، إذ كانت له وزير صدق على الإسلام، يشكو إليها » [٥٩] . هي التي « آمنت به، وصدّقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، وكانت أوّل من آمن بالله وبرسوله، وصدّق بما جاء منه. فخفّف الله بذلك عن نبيّه، لا يسمع شيئاً ممّا يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلاّ فرّج الله عنه بها إذا رجع إليها. تثبّته وتخفّف عليه وتصدّقه وتهوّن عليه أمر الناس » [٦٠] .

وبموت أبي طالب « نالت قريش من رسول الله من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب ... إذ كان أبو طالب لابن أخيه عضداً وحرزاً في أمره ومنعة ونصراً على قومه » [٦١] .

القسّ دبّر. والزوجة نفّذت. والعمّ عضد. والنبي استسلم لإرادة الله. على هؤلاء قامت الدعوة الجديدة. فكان لها النجاح. وهذا أيضاً كان من الله. ويعود إلى الله. والحقيقة تقال إن الله، إذا ما أراد اختيار أنبيائه، يهيّئ لهم الظروف المناسبة ليكفل لهم النجاح في مهمّاتهم الصعبة.

---

(٥٨) صحيح البخاري بشرح الكرماني ١ / ٣٨.
(٥٩) سيرة ابن هشام ٢ / ٤٥.
(٦٠) نفس المرجع ١ / ٢٢٤.
(٦١) نفس المرجع ٢ / ٤٥ ـ ٤٦.

خامساً ــ القسّ النبي والنبيّ القس

نسأل : ماذا كان في نيّة القسّ أن يعلن ؟ نبوّة محمّد أم قسوسيّته ؟ لقد استترت نيّة القسّ على كتبة السيرة. ولا يعود استتارها إلى سوء نيّة عندهم بقدر ما يعود إلى نقل ما وصل إليهم منحولاً بعد حوالي مائة وخمسين عاماً من بدء الرسالة وتوسّعها في معظم البلاد الآسيوية والإفريقيّة. لقد بلغهم بعض ما قام به القسّ من دور في نبوّة محمّد، ولكنّهم لم يحقّقوا فيما بلغهم، ولم يدركوا بالتالي نيّته، ولم يعرفوا كيف تعلن النبوّة ولا كيف تنتقل القسوسيّة في النصرانيّة من سلف إلى خلف، ولم يعلموا أن النبوّة لا تحتاج إلى من يدافع عنها ويقضي بصحّتها ... ولو علموا كل ذلك لما اضطرّوا إلى إثبات نبوّة محمّد بألف ألف دليل، والدفاع عنها بألف ألف حجّة. ولخوفهم من ألاّ يكون محمّد نبيّاً أرجعوا الأدلّة عليه إلى زمن آدم، وقرأوا اسمه في السماء تحت سدرة المنتهى، وسمعوا الأحبار والرهبان والكهنة والسحرة والجنّ والشياطين والحيوانات والأصنام والأشجار والحجارة ... تعلن نبوّته، ورأوا اسمه في التوراة والإنجيل، واسترقّوا أخباره عند ملوك العجم والعرب ... كل هذا كان لأجل الدفاع عن نبوّة محمّد. وهل يحتاج نبي الله إلى من يبرّر له نبوّته ويدافع عنها ؟

ومن جهة ثانية، من أين للقسّ ورقة أن يعلن محمّداً نبيّاً، فيشرك معه خديجة وأبا طالب وأبا بكر وعليّ ؟ هل القسّ هو الذي أطلق على محمّد اسم نبي ؟ أم تبدّلت الأسماء فيما بعد، وتحرّفت المعاني، وتغيّرت النوايا، واستبدّت الأحداث السياسيّة بالأمور الدينيّة ؟ لئن صحّ إعلان القسّ لنبوّة محمّد يكون القسّ مخبولاً حقاً، ويكون النبي، فيما صدّق من القسّ، صاحبَ جِنّةٍ وغرور. وحده الله يختار أنبياءه، ووحده النبي يعرّف على نبوّته، وتعاليمُه تعلن عنها،

وأعماله تدعم تعاليمه. وما من نبيّ في التاريخ احتاج إلى الدفاع عن نبوّته كما هو الأمر مع محمّد. والحقيقة إن القرآن المكّي لا يسمّي محمّداً نبيّاً، بل « بشيراً » و « نذيراً » و « مبلّغا رسالة ربّه » . وهو ما يؤكّد لنا أنه لا القسّ ولا النبيّ استمتعا بالنبوّة، بحسب مفهومها في العهد القديم. فماذا يكون الأمر إذن ؟

في ظنّي **أن نيّة القس كانت غير ذلك، ووعي محمّد كان هو الآخر، في بدء أمره، غير ادّعاء النبوّة. والذي بدّل المقاصد والنوايا هو « مصحف عثمان » وكتبة السيرة. وكان قصد القسّ أن يعلن محمّداً خليفته على جماعة مكّة النصرانيّة. وأدلّتنا على ذلك من سيرة القسّ والنبي بتمامها وكمالها. فالقسّ اختار محمّداً وتبنّاه، ثم زوّجه من خديجة، على الطريقة النصرانيّة، ودرّبه على الصوم والصلاة في غار حراء، وعلّمه التوراة والإنجيل، وناموس موسى وعيسى، ونقل له الإنجيل العبراني بلسان عربيّ مبين.** وقد وعى محمّد اختياره هذا، وعرف مهمّته، فراح ينذر الناس ويبشّرهم، ويثقّفهم، ويعلّمهم ما لا يعلمون من الكتاب، ويبيّن لهم الصراط المستقيم، ويهديهم إلى « الدين القيّم » ، ويعظ فيهم عن أحوال الحساب والعقاب والجنّة والنار والقيامة، ويحرّضهم على فعل الحسنات والصدقات، ويقرأ عليهم ما تيسّر من قصص الكتاب وأخبار الأنبياء. لقد كان يعلم أنّ مهمّته تقوم على أن يذكّر الناس بتعاليم التوراة والإنجيل : « ذكّر. إنّما أنت مذكّر » ، وكتابه هو « ذكر، وذكرى، وتذكرة » ، و « تفصيل » و « تصديق » للكتاب العبراني الذي كان بين يدي القسّ ويحضر محمّد تعريبَه طيلة أربع وأربعين سنة.

لقد أراد القسّ أنْ يكون محمّد خليفة له على نصارى مكّة، يكمّل عمله الروحي بين العرب، ويحافظ على استمرارية النصرانية في الحجاز، ويعمل على جمع شمل النصارى من بني إسرائيل، ويوحّد شِيَعَهم وأحزابَهم، ويوحّد كتبَهم وعقيدتهم ... فكان له ذلك بما أوتي من تجرّد وذكاء وجرأة واقدام. وساعده

على اتمام مهمّته امرأته خديجة بما كان لها من شرف وجاه ومال، وأعانه أبو طالب عمّه الوفي، ولبّى الدعوة « الحُمس » من قريش، وجاهد معــه فقــراء مكّــة و « أذلّتهــا » ، واستضافه النجاشي ملك الحبشة بعدما قاومه « الملأ الأعلى » و « أعزّة مكّة » ... حتــى أصبح محمّد، بعد وفاة القس « رئيس النصارى » المُوَحَّدِين، وأوّل المؤمنين، أي زعيمهم الروحي الأوّل، والمسؤول عنهم، وقد قال « أُمِرتُ أَنْ أكونَ أوّلَ المسلمين » (٣٩ / ١٢).

بعد وفاة القسّ ورقة، انتقلت الزعامة الروحيّة اذن إلى محمّد، وأصبح محمّد « أوّل المسلمين » . وبوفاة القس خشي محمّد أن يتركه الله وينساه، إذْ « فتر الوحي » مدة مــن الزمن تتراوح بين السنتين والثلاث سنين, وعاوده بعد ذلك مع كثير من التغيير في المواقف والتبديل في التعليم والتشريع، بما يناسب شخصيّة محمّد واستقلاليته عــن معلّمــه، وبمــا يوافق الظروف وأحوال البيئة والمجتمع العربي. وأعلن القرآن عن عودة الوحي هذه بقوله: « ما ودّعك ربّك وما قلى » (٩٣ / ٣).

وما يؤكّد لنا خلافة محمّد للقسّ هو أن الإسلام، في بدء أمره، وكما كان في أيام القسّ وتحت تأثيره، لم يكن ديناً جديداً، ولم تكن دعوة محمّد دعوة إلى دين جديد؛ بل كانت تعــاليم من التوراة والإنجيل، وتعاليم أبيونيّة في الحسنات والصدقات، وتبشير بالجنّة والنار والقيامة، ووعيد بالعقاب، وتذكير بأحوال الساعة الأخيرة. ولم يكن في نيّة محمّد أن ينزّل وحيــاً مــن السماء، أو أن يدّعي معرفة خزائن الله وعلم الغيب، بقدر ما كان يقصــد إعــلان كلمــة الله الأعجمية بلسان عربي مبين، مفصّلة وميسّرة للفظ والذكر. فالوحي المحمّدي اذن هو وحــي لاحق لوحي سابق، وكتابه العربي هو تصديق لما بين يديه من التوراة والإنجيل، ودعوته هي دعوة كانت « قبله » مع أهل الكتاب، **وإلهه هو إله بني إسرائيل.** قال : « لا إلــه إلاّ الــذي آمنت به بنو اسرائيل » (١٠ / ٩٠).

هذا هو قصد القسّ ومنطق الأحداث. وتلك هي مقاصد أهل السير. فلا نغفل عن الحقيقة ولو تنكّر لها المنكرون وتجاهل المتديّنون وقائع التاريخ. جلّ ما في الأمر أن القسّ له خليفة على كنيسة مكّة النصرانيّة، فكان محمّد بن عبد الله يتيم قريش قسّاً على كنيسة مكة. ومع هذا، يريد مؤرّخو حياة محمّد، إلى اليوم، أن يكون الأمر غير ذلك، ضنّاً بالنبوّة والدين الجديد، فأغفلوا وجود القسّ، وأنكروا لقاءاته المتعدّدة مع محمّد، وتجاهلوا إعلاناته. فالشيخ صبحي الصالح أراد ألاّ يكون بين القسّ والنبي الاّ لقاء واحد، يقول : « فما عسى أن يكون النبي تعلّم في هذين اللقائين (لقاء مع الراهب بحيرا وآخر مع القس ورقة) من علوم الغيب والتاريخ ؟ » [٦٢] . وعندما يستشهد الشيخ بحديث البخاري يأخذ ما يناسبه ويتجنّب ما يزعجه، فينقل : « ولم يلبث ورقة أن توفّي » ، ويترك « وفتَرَ الوحي » [٦٣] ويستنتج : إن محمّداً تعرّف على ورقة في آخر أيّام حياته، ورآه عجوزاً ضريراً، لا تصلح همّته لأي شيء. وكذلك هو الأمر مع محمّد حسين هيكل في موسوعته « حياة محمّد » ، فهو يتجاهل أمر القسّ ودوره، ولم يذكر من اللقاءات أو الإعلانات سوى اثنين وبطريق العرض[٦٤] ... لماذا هذا التنكّر ؟ إنْ كان جهلاً فهو طعنة في واقع التاريخ، وإنْ كان تجاهلاً فهو طعنة في صميم الحقيقة.

بقي أن نسأل عن قصّة الراهب بحيرا : لماذا يجهد مؤرّخو حياة النبي في التركيز على الراهب بحيرا، حتى تحوّلت أنظار الناس إليه على حساب القسّ ؟ الناس، اليوم، يلهجون باسم الراهب بحيرا، ولا يعرفون عن القس ورقة شيئاً

(٦٢) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، بيروت، صفحة ٤٥.
(٦٣) نفس المرجع.
(٦٤) محمد حسين هيكل، حياة محمّد، القاهرة، صفحة ١٣٥ ـ ١٣٧.

يذكر. فما سبب ذلك ؟ وما القصد منه ؟ إن في الأمر تضليلاً وتمويهاً للواقع : فالراهب بحيرا، على مكانته العظمى في النصرانية، وعلى كونه « انتهى إليه علم النصرانية في ذلك الزمان » ، وعلى مرور تجّار قريش بصومعته في بصرى، لم يكن له ذلك الأثر الفعّال؛ لأنّ رحلات محمّد إليه لم تكن كافية للدلالة على تثقيفه على يده. ومهما يكن من أمر، فإن اللقاءات المحدودة التي حصلت بين محمّد وبحيرا لا تعطي النتائج التي نستطلعها في تعاليم القرآن، ولا تستحق أن يعيرها الناس أهميّة بالغة ويتوقّفوا عندها. هذا يمكن نقضه بسهولة. وبالفعل توقّف مؤرّخو حياة النبي على دور الراهب فتوقّفوا في نقضه ورفضه، كما توقّفوا في التركيز على الراهب على حساب القسّ. وتركيزهم على الراهب وتحويل أنظار الناس إليه وردّهم على ما استنبطوا من أضاليل حوله أعطى أهميّة لبحيرا دون ورقة. وبهذا فُقِدَ أَثَرُ الاثنين معاً. وانخدع الناس فيما بين الراهب والقسّ. ولسهولة رفضِ أثرِ الراهبِ ظنّ الناس أن أَثَرَ القسِ هو أيضاً يُرفض بالسهولةِ نفسها. وكان قصدُنا كشفَ هذا الضلال المكنون. عسانا وصلنا إلى المراد.

الفصل الثالث

إنجيل القسّ ورقة وقرآنه

أولاً ــ إنجيل القسّ ورقة

ثانياً ــ القرآن العربيّ

ثالثاً ــ استمراريّة الوحي والتّنزيل

رابعاً ــ محمّد يعلّم ما تعلّم

أولاً ــ إنجيل القسّ ورقة

نذكّر بمهمّة القس ورقة التي عُرف بها ولم يعرف بغيرها، وهي، كما جاء على لسان المحدّثين وفي صحيح مسلم[١] وصحيح البخاري[٢] وأغاني أبي الفرج الأصفهاني[٣] ، إن القسّ ورقة كان ينقل الإنجيل بالعبرانية إلى العربيّة.

وما هو الإنجيل بالعبرانيّة ؟ ما هي تعاليمه ؟ هل وجد فعلاً في التاريخ ؟ من يحدّثنا عنه غير القس ورقة ؟ الجواب على هذه الأسئلة عند آباء الكنيسة ومؤرّخيها. فهم خير شاهد على تراث الكنيسة وكتبها المقدسة. وبالفعل، نرى عندهم الكثير من الإشارات على ما يسمّى في تاريخ الكنيسة بـ « الإنجيل بحسب العبرانيين » . وعلينا أن نستعرضها، ونقابل بين إنجيل ورقة وبين تعاليمها، وإذا صحّت المقابلة نكون اكتشفنا قصّة « اللوح المحفوظ » الذي نزل القرآن منه ...

ينقل أوسابيوس عن هِجِسيب، وهو من أوائل القرن الثاني، « إنه كان ينقل أشياء من الإنجيل بحسب العبرانيين، الإنجيل الآرامي الذي هو بالحرف العبراني » [٤] . ويشهد أوسابيوس نفسه على « **أن الإنجيل بحسب العبرانيين هو الأصحّ في نظر العبرانيين الذين آمنوا بالمسيح** » [٥] . ويقول عن الابيونيين إنهم « **كانوا يستخدمون فقط الإنجيل المسمّى بحسب العبرانيين، وقلّما يكترثون بغيره » . ويقول عن عقيدتهم : « إنهم كانوا يحفظون السبت وسائر العادات اليهودية ويغارون على إقامة أحكام التوراة، ويعتبرون أن الخلاص يقوم لا على**

---

(١) صحيح مسلم ١ / ٧٨ ـ ٧٩.
(٢) صحيح البخاري ١ / ٣٨ ـ ٣٩.
(٣) الأغاني الأصفهاني ١ / ١١٤.
(٤) Eusèbe, Histoire Ecclésiastique, IV, 22
(٥) Eusèbe, Histoire Ecclésiastique, IV, 25

الإيمان بالمسيح وحده، بل على إقامة شريعة موسى أيضاً »[٦]. ويقول في مكان آخر: « إن المسيح ذكر الشقاق الذي ستتعرّض له النفوس في العائلات، كما نجده في الإنجيل بحسب العبرانيين » [٧] .

أمّا أوريجينوس (+ ٢٥٢) فيذكر هذا الإنجيل في جملة كتب. يقول : « من يقبل الإنجيل بحسب العبرانيين يجد فيه هذه الآية : « إن أمّي الروح القدس خطفني بشعرة من رأسي وأصعدني جبل ثبور العظيم » [٨] . ويقول أيضاً : « إن الشاب الغني، بحسب الإنجيل العبراني، حكّ رأسه، ولم يرضَ بعرض المسيح له. وقال له يسوع : كيف تقول إنّني أتممت الناموس والأنبياء، وأنت ترى أخوتك أبناء إبراهيم يموتون جوعاً وتخنقهم المذلّة، وبيتك مملوء خيرات!؟ » [٩] .

وقرأ أكليمنضوس الاسكندري (+ ٢١٦) في هذا الإنجيل قولاً منسوباً إلى المسيح فقال : « كما هو مكتوب في الإنجيل بحسب العبرانيين : من يعجب يملك ومن يملك يستريح »[١٠].

أمّا أبيفان (+ ٤٠٣) فيستفيض في الكلام على الأبيونيين وإنجيلهم العبراني. يقول عن الأبيونيين : « إنهم يأخذون بإنجيل متى، ويعتمدون عليه وحده دون سواه، ويسمّونه الإنجيل بحسب العبرانيين. وإنجيل متى هذا، الذي بحوزتهم، ليس كاملاً، بل هو محرّف وناقص » [١١] . وكلام أبيفان هذا ترديد لكلام القديس ايريناوس أسقف ليون (+ ٢٠٨) الذي يقول : « إن الأبيونيين يستخدمون الإنجيل بحسب متى وحده، ولكنّهم لا يعتقدون الاعتقاد الصحيح في الرب » [١٢] .

---

(٦) Eusèbe, H. E., III, 24

(٧) Eusèbe, Théophanie, IV, 12…..

(٨) Origène, Commentaire sur saint Matthieu, XV, 14.

(٩) Origène, Commentaire sur saint Jean, II, 12..

(١٠) Clément d'Alexandrie, Stromates, II, 9. 45…..

(١١) Epiphane, Panarion, XXX, 3…..

(١٢) Saint Irénée, Contre les Hérésies I, 26, 12..

ويذكر القديس جيروم (+ ٤٢٠) هذا الإنجيل في جملة كتب في تفسيره لأشعيا[١٣] ، وتفسيره لحزقيال[١٤] ، وتفسيره لأفسس[١٥] ، وتفسيره لمتى[١٦] ، وفي حواره مع البلاجيين حيث يقول : « في الإنجيل بحسب العبرانيين الذي يستخدمه النصارى أيضاً، والموضوع في الآرامية ... وهو قريب المشابهة بإنجيل متى، محفوظ في مكتبة قيصريّة » [١٧] ، وفي كتابه مشاهير الرجال يقول : « إن الإنجيل المسمّى بحسب العبرانيين، الذي نقلته حديثاً إلى اليونانية واللاتينيّة، والذي استخدمه أوريجينوس، يقول : إن يعقوب حَلَفَ بألاّ يأكلَ خبزاً منذ الساعة التي شرب فيها كأس الرب إلى الوقت الذي رآه يقوم من بين الأموات. وقال له الرب : « خذ المائدة والخبز » ، وأضاف : « كُلّ خبزَكَ، لأن ابن الإنسان قام بين الأموات » [١٨] .

وغير هذه الشهادات كثير نجدها في مقالة الأب «لاغرانج» في «المجلّة الكتابيّة»[١٩]، وهو يحقّق في أصل « الإنجيل بحسب العبرانيين » ، وفي تعاليمه وصحة نسبته إلى الأبيونيين. والجدير بالذكر انه لم يبقَ لنا من نصوص هذا الإنجيل إلا الشيء القليل، في بعض كتابات الآباء والمؤرّخين.

ويبدو أن هذا الإنجيل كان واسع الانتشار، بحسب شهادات الآباء الذين نقلنا عنهم. لقد كان بين يدي اغناطيوس الانطاكي في انطاكية، وأوريجين واكليمنضوس الاسكندري في الاسكندرية، وجيروم في حلب، وايريناوس في آسيا.

---

(١٣) Saint Jérôme, Commentaire sur Isaïe, XI, 2.........

(١٤) Saint Jérôme, Commentaire sur Ezéchias, XVIII, 7

(١٥) Saint Jérôme, Commentaire sur Ephésiens, V, 3, 4

(١٦) Saint Jérôme, Commentaire sur Matthieu, XII, 13

(١٧) Saint Jérôme, Dialogue contre les Pélagiens, 3.

(١٨) Saint Jérôme, De Viris illustribus, II, ……..…....…

(١٩) M-J LAGRANGE, L'Evangile selon les Hébreux, Revue Biblique, 2 (1922), P. 161-181; 3 (1923), P. 322-349. Voir SDB. Apocryphes, 470-475…

وفي مكّة أيضاً. ويبدو أيضاً أنه تُرجم إلى لغات متعددة : وُضع في الأصل باللغة الآرامية، ثم نُقل إلى اليونانيّة، ثم إلى اللاتينيّة، وربّما إلى العربيّة. وجال في عصور متتالية، منذ أوائل القرن الثاني حتى أواخر القرن الخامس، وربّما إلى يومنا هذا في ترجمته العربية. وكثر الكلام عليه عند معظم آباء الكنيسة. واعتمد عليه الأبيونيون، فتارة ما كان يسمّى بـ« إنجيل النصارى » ، وطوراً بـ« إنجيل الأبيونيين » ، وأخرى بـ« إنجيل الرسل الاثني عشر » . وفي جميع الأحوال **إنه « تحريف » واضح لإنجيل متى الآرامي، أصل كل الأناجيل بعده.**

ومن الجائز القول بأن وجود الأبيونيين في مكّة والحجاز يفرض حتماً وجود « الإنجيل بحسب العبرانيين » . وما يشير إلى ذلك اعتماد القرآن على تعاليمه فيما يخصّ المسيح وأمّه والروح القدس والحسنات والصدقات وأحوال المعاد الأخير ... فهي نفسها في القرآن كما في الإنجيل. **ويوجز جواد علي عقيدة الأبيونيين بقوله عنهم : « يعتقدون بوجود الله الواحد، خالق الكون. وينكرون رأي بولس الرسول في المسيح. ويحافظون على حرمة يوم السبت وحرمة يوم الرب ... ويعتقد أكثرهم أن المسيح بشر مثلنا، امتاز على غيره بالنبوّة، وبأنه رسول الله ... وهو نبي كبقيّة من سبقه من الأنبياء المرسلين ... وبعضهم أنكر الصلب المعروف، وذهب إلى أنّ من صُلب كان غير المسيح، وقد شبّه على من صلبه، فظنّ أنه المسيح حقاً. ورجعوا إلى إنجيل متى بالعبرانيّة ... »** [٢٠] .

أمّا النقل الذي كان معتمداً في ذلك الحين، والذي كان يقوم به القسّ ورقة في تعريبه للإنجيل فلا يعني نقلاً حرفياً ودقيقاً كما هو اليوم؛ بل كان في الحقيقة، كما يقول القرآن « تفصيلاً » و « تيسيراً » و « تذكيراً » ... وهذه الطريقة

---

(٢٠) الدكتور جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦ ص ٦٣٥.

كانت متبّعة في القديم وفي الأوساط النصرانيّة والكتب المقدّسة نفسها. وللــدلالة على ذلك « يكفي أن نقابل بين متى ٤ / ١٥ وأشعيا ٨ / ٢٣ ــ ٩ / ١، ومتــى ١٢ / ١٧ وأشــعيا ٤٢ / ١ ــ ٤ » [٢١] **. وهذه الطريقة في النقل هي « أقرب ما تكون إلى التفسير اللاهوتي والدفاع عن الدين منها إلى النقل بالمعنى الصحيح »** [٢٢] . إنّها بلا ريــب، طريقــة النقلــة الأقدمين كما هي طريقة القسّ ورقة في نقله الإنجيل بحسب العبرانيين إلى العربيّة.

بقي علينا أن نعرف شيئاً عن الترجمة العربية نفسها. لكنّ هذا منوط حقاً برحمة مــن التاريخ. ولولا نستحق هذه الرحمة لاكتشف المنقّبون في آثار مكّة وتحت رمالها الظالمة تلك الترجمة الثمينة. إلاّ أن الظلم أودى بالترجمة وبصاحبها إلى الأبد. وبقي عندنا الحسرة علــى كليهما إلى الأبد. ومع هذا يفيدنا النظر فيما تبقّى من أيّام القسّ من أثر. وقد يكــون القــرآن العربي هو هذا الأثر. فلننظر فيه مجدّين، واضعين نصب أعيننا ما تبقّى من نصوص الإنجيل العبراني وما وصل إلينا من عقيدة الأبيونيين.

---

(٢١) J. DANIELU, Théol. du Judéo- Christianisme, p. 103. Voir TOB., note r sur Mt. 4, 15; et note r sur Mt. 12, 17.

(٢٢) Kilpatrick, The Origin of the Gospel according to Matthew, Oxford, 1946, P. 56.

ثانياً ــ القرآن العربيّ

لم يكن محمّد يدري ما الكتاب وما الإيمان لولا وجود من يهديه إليهما ليكــون علــى الطريق القويم: « **ما كنت تَدري ما الكتاب ولا الإيمان ... وانّك لَتُهْدَى إلى صراطٍ مستقيم** » (٤٢ / ٥١). ولم يكن يعرف ما في الكتاب من عِلم لولا وجود معلّم يعلّمه ما لم يكن يعلم : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم » (٤ / ١١٣). ويوم يشكّ محمّد ممّا يعلم، ما عليه الاّ أن يسأل من عنده علم الكتاب: «**فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك**» (١٠ / ٩٤). **وعليه، فإن حقيقة كتاب محمّد تأتي من حقيقة نسبته إلى كتاب سابق، وإن علم محمّد هو علم لكتاب سابق. وقد يكون قرآن محمّد قراءة لهذا الكتاب السابق. فلننظــر في القرآن العربي نفسه، فشهادته خير شهادة.**

١ً ــ القراءة العربية للكتاب العبراني :

القرآن لغة يعني قراءة. وهو مصدر آرامي للفعل الثلاثي المعتلّ الأخير : « قــرُو، نِقْرِى، قِرْيُونُو » . ويعني « قراءة » أو « تلاوة » نصّ مكتوب. وقد ورد معرّفــاً بــالألف واللام ثماني وخمسين مرّة، وفي صيغة النــكرة اثنتي عشرة مرّة. والجدير بالــذكر أن صفة « عربي » تتبع صيغة النكرة، وهي ضروريّة للدلالة على أن القرآن، في ترجمته العربيــة، هو منزل أيضاً، كما في أصله، « أأعجمي وعربي! قلْ هو للذين آمنوا هدىً وشفاء » (٤١ / ٤٤).

إلاَّ أنه وُضع بلسان عربي ليعقله العرب : « وأنزلناه قرآناً عربياً لعلّكــم تعقلــون » (١٢ / ٢)، « وإنّا جعلناه قرآناً عربياً لعلّكم تعقلون. وإنه في أمّ الكتاب

لدينا » (٤٣ / ٣ ــ ٤)، وليتبيّنوا تفاصيله: « كتابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرآنًا عَربيّاً لِقومٍ يعلمون » (٤١ / ٣)، ويتعرّفوا على أخباره وقصصه : « نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن » (١٢ / ٣)، ويهتدوا به من كل عوج وضلال : « وقرآناً عربياً غير ذي عوجٍ لعلّهم يتّقون » (٣٩ / ٢٨).

أُعطي في اللغة العربية ليتمكّن محمّد من قراءته وحدَه دون الاتكال على سواه: « اقرأْ كتابَك. كفى بنفسك اليومَ حَسيباً » (١٧ / ١٤)، وليتمكّن أيضاً من أن يبشّر به مكّةَ وسائر القِرى وينذرَها ويبلّغها رسالةَ ربّه : « أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أمَّ القرى وَمَنْ حَولها » (٤٢ / ٧). ولو حصل العرب عليه بلغته الأعجميّة لما أدركوا تفاصيله وأخباره، ولكانوا تمنّوا نقله إلى لغتهم : « ولو جعلناه قرآناً أعجميّاً لقالوا : لولا فُصِّلَتْ آياتُه! » (٤١ / ٤٤)؛ وبالعكس أيضاً : لو حصل عليه الأعجميّون بلغة عربيّة لما آمنوا به : « ولو نزّلناه على بعض الأعجميين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين » (٢٦ / ١٩٩).

نستنتج : **إن القرآن العربي هو قراءة عربيّة للكتاب الأعجمي، نُقلت أخباره وفُصِّلتْ بلسانٍ عربيٍ مبين ليدركها العرب ويؤمنوا بها.**

٢ ــ القراءة المفصّلة للكتاب الأعجمي :

التفصيل، بحسب مفهوم القرآن، يعني أمرين : أوّلهما يعني « تعريباً » ونقلاً من لغة إلى لغة، ليدرك السامعون مضمونَه ويعملوا بموجبه. وقد تمنّى المكّيون أن يُعَرَّبَ لهم الكتاب، فلبّى محمّد (؟) أمنيّتهم بحسب قوله : « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً (كما هو عليه الكتاب العبراني) لقالوا : لولا فُصِّلتْ آياته » (٤١ / ٤٤)، وأكّد لهم أن الكتاب الأعجمي نُقِلَ إلى العربية بواسطة خبير حكيم

نقل آيات الكتاب الأعجمي إلى لغة عربيّة بيّنة : « كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً » (٤١ / ٣)، « كتاب أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكم خَبير » (١١ / ١).

والأمر الثاني يعني تفريقَ آيات الكتاب، وتبويبَها، وجعلَها فصــلاً فصــلاً، وســورةً سورةً، واعطاءها للناس بحسب مقتضى الأحداث والمناسـبات، ولأجـل حفظهـا بسـهولة، وتذكّرها بيسر وسرعة. وقد ردّد محمّد (؟) قصده هذا مراراً، وقال : « وكذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون » [٢٣] ، « وهو الذي أنزل إليكم الكتــاب مفصّــلاً » (٦ / ١١٤)، و « لقــد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم » (٧ / ٥٢)، و « قد فصّلنا الآيات لقوم يــذكرون » (٦ / ١٢٦)، و « كل شيء فصّلنــاه تفصيلاً » (١٧ / ١٢). وهــذا **يعني أن الكتــاب العربي « تصرّف » بآيات الكتاب العبراني تيسيراً للذكر** : « ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليــذكروا » (١٧ / ٤١)، « ولقد صرّفناه بينهم ليذكروا » (٢٥ / ٥٠)، « ولقد صرّفنا للناس في هــذا القرآن من كل مثل » (١٧ / ٨٩)، « وأنزلناه قرآناً عربياً وصرّفنا فيه » (٢٠ / ١١٣)[٢٤].

نستنتج : إن القرآن العربي هو « تفصيل الكتاب (العبراني) لا ريب فيه » (١٠ / ٣٧).

٣ ـــ القراءة المصدِّقة للكتاب العبراني :

لئن « تصرّف » القرآن العربي بتفصيل آيات الكتاب الأعجمــي بحســب مقتضــى الظروف والأحوال : « انظر كيف نصرّف الآيات » (٦ / ٤٦)، فانّه يبقــى « مصــدِّقاً » للكتاب الأصل. ولئن غيّر « التفصيلُ » فيه بعضَ الشيء فإن تعليمَه يبقى أيضاً « مصدِّقاً » لتعليم الكتاب الأصل. وقد ردّد محمّد هاجسَه هذا مراراً، ليبرهن

(٢٣) انظر القرآن في ٧ / ٣٢، ٩ / ١١، ٣٠ / ٢٨، ١٠ / ٥ وغيرها ...
(٢٤) انظر أيضاً : ١٨ / ٤٥، ٤٦ / ٢٧، ٦ / ٤٦، ٦ / ٦٥، ٦ / ١٠٥ ...

للناس صدق ما ينقل إليهم من « الكتاب الذي بين يديه » ، وليشهد لهم أن كتابه العربي إنما هو بالفعل « تصديق » للكتاب العبراني، وهو « الحق مصدّقاً لما بين يديه » (٣ / ٣). فلنسمع :

« هذا كتاب مصدِّق لساناً عربيّاً » (٤٦ / ١٢)، « **هذا كتاب أنزلناه، مبارك ومصدِّق الذي بين يديه** » (٦ / ٩٢)، « نزّل عليك الكتاب بالحق مصدِّقاً لما بين يديه » (٣ / ٣)، « **إنه نزّله على قلبك بإذن الله مصدِّقاً لما بين يديه** » (٢ / ٩٧)، « الذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدِّقاً لما بين يديه » (٣٥ / ٣١)، و « مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ » (٣ / ٥٠، ٥ / ٤٦)، « **إنّي رسول الله إليكم مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ** » (٤٦ / ٣٠). والسامعون يعرفون ذلك تمام المعرفة، خاصّة الكتابيّون منهم : « لمّا جاءهم كتاب من عند الله مصدِّقٌ لما معهم » (٢ / ٨٩)، « **يا أيّها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدِّقاً لما معكم** » (٤ / ٤٧)، « يكفرون بما وراءه وهو الحق مصدِّقًا لِمَا مَعَهُم » (٢ / ٩١).

نستنتج : **إن التوراة والإنجيل أو بعضاً منها كان بين يدي محمّد (؟)، يفصّلها بالحق، ويتصرّف بالحق، ويتصرّف بها لتيسير الذكر، وينقلها بالصدق. ولم يكن كتاب محمّد هذا العربي « حديثا يُفْتَرى، وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذي بَيْنَ يَدَيْه** » (١٢ / ١١١).

٤ ـ القراءة الميسّرة للكتاب العبراني :

من مميّزات القراءة العربية للكتاب العبراني إنها « ميسّرة » ، أي إنها تُدْرَكُ بسهولة، وتُفهم بسهولة, وتُحفظ بسهولة. وهي ميسّرة لمحمّد ولجماعته معاً. يسّرها اللهُ له ليقوم برسالته على أكمل وجه، ويسّرها للناس بلسان عربي مبين ليفهموا تعاليمه ويتذكّروها ويحفظوها ويرتّلوها. وهذا قصد محمّد (؟) وقد أعلنه

مراراً. فلنسمع :

« وقد يسّرنا القرآن للذكر. فهل من مذكّر » [٢٥] ، «ويسّرناه بلسانك لعلّهم يتذكّرون» (٤٤ / ٥٨)، و « يسّرناه بلسانك لتبشّر به المتّقين (من العرب) وتنذر به قوماً » (١٩ / ٩٧)؛ وعلى المتّقين أن يقرأوا ما تيسّر لهم من الآيات، فدعاهم بقوله : « فاقرأوا ما تيسّر من القرآن » (٧٣ / ٢٠). **وقد يساعد الترتيل على تيسير القرآن فيكون أسهلَ حِفظاً وأقربَ منالاً وأيسرَ تذكّراً، فطلب الله من نبيّه أن يقوم بالترتيل: « رتّل القرآن ترتيلاً »** [٢٦]، وطلب إليه أيضاً أن يقوم بتلاوة الآيات ليتيسّر للناس حفظها : « واتل ما أوحي إليك من كتاب ربّك » [٢٧] . **ويعرف الذين عندهم الكتاب الأصل، إذا ما تلي عليهم القرآن، أنه من عند الله فيخرّون ساجدين : « والذين أُوْتُوا العِلمَ من قَبْلِهِ إذ يُتلى عليهم يَخرّون للأذقانِ سُجَّدَاً »** (١٧ / ١٠٧).

إنَّ فضل القراءة العربية على الكتاب الأعجمي إنها أصبحتْ ميسَّرَةً بلسان عربي مبين، يفهمها العرب ويحفظونها بسهولة. ولا غرابة في الأمر، فالله لا يرسل رسولاً إلاّ بلسانِ قومه ليتبيّنَ لهم الحقّ واضحًا : « وما أرسلنا من رسول الاّ بلسان قومه ليبيّن لهم » (١٤ / ٤). ولا مبرّر للناس ألاّ يفهموا. ولو بقي الكتاب أعجمياً عليهم لَرُفِعَتْ عَنهم وعَن صاحِبه كلُّ كِلْفَةٍ : « لسانُ الذي يُلحدون إليه أعجمي. وهذا لسان عربي مبين » (١٦ / ١٠٣).

نستنتج : إن محمّداً (؟) رغب في أن يكونَ للعرب كتابٌ بلسانهم ليتبيّنوا تعاليمه، ويؤمنوا بآياته، وبذلك زالت الحجّة عنهم عندما تيسّر لهم كل شيء بلغتهم.

(٢٥) القرآن ٥٤ / ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠.
(٢٦) القرآن ٧٣ / ٤، ٢٥ / ٣٢.
(٢٧) القرآن ٢٧ / ١٨، ٢٩ / ٤٥.

٥ ــ القرآن العربي « تذكرة » للكتاب العبراني :

التذكرة، بحسب مفهوم القرآن تعني أمرين : الأوّل يعني خُلاَصَــةَ أخبــار الأنبيــاء السابقين وقصصهم وتعاليمهم وأمثالهم؛ والثاني يعني تَذْكِيرًا لِما ورد في التــوراة والإنجيــل. بالنسبة إلى المعنى الأوّل نقول : لم يكن همّ محمّد (؟) أن ينقل إلى المتّقين من العرب الــذين استجابوا دعوته كلّ أسفار العهدين القديم والجديد، بل بعضاً منها، ما يناسب حالَهم وعقيــدتهم ومقدرتَهم. وأكّد ذلك بقوله المتكرّر : « كلاّ إنّه تذكرة » (٧٤ / ٥٤) و « كلا إنها تذكرة » (٨٠ / ١١)، و « إنّه لتذكرة للمتّقين » (٦٩ / ٤٨) ... أمّا الذين أوتوا العلم والراسخون فيه فليسوا بحاجة إلى « تذكرة » لأنهم يعرفون كلّ الكتاب بآياتــه المُحْكَمَــاتِ كمــا بآياتــه المُتَشَابِهَات[٢٨] ؛ في حين أنه « تذكرة » كافية للعرب ليحصلوا على الخــلاص : « إن هــذه تذكرة. فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلاً » (٧٣ / ١٩). **ولبساطته وسهولة تعاليمه وقَصَصِهِ حَفَظَهُ النبيُّ دون تعبٍ وعناء : « وما أنزلنا عليك القرآن لِتَشْقَى. إلاّ تذكرةً لِمَنْ يَخْشَــى »** (٢٠ / ٢ ــ ٣).

ينتج عن هذا المعنى أن القرآن العربي هو ملّخص سهل أو خلاصة كافية للتــذكير بالتوراة والإنجيل. وقد أعطيت هذه الخلاصة للعرب دون سواهم مــن أهــل العلــم، قَصْــدَ التخفيفِ عليهم : « وذلك تخفيفٌ من ربكم ورحمة » (٢ / ١٧٨). والمقصود هــو هــذا التخفيف : « يريد الله أن يخفّف عنكم » (٤ / ٢٨)، « الآنَ خفّف الله عنكم وَعَلِمَ أَنَّ فيكم ضعفاً » (٨ / ٦٦)، لأنّ العلم الكثير لمن لا يتمكّن منه يؤدّي إلى القنوط : « وما أُوتيــتم من العلم الاّ قليلاً » (١٧ / ٨٥). ومن أعرض عن هذه التذكرة لا يكونُ بغير لوم : « فما لهم عن التذكرة مُعْرِضين ؟ » (٧٤ / ٤٩).

---

(٢٨) انظر القرآن ٣ / ٧.

أمّا بالنسبة إلى المعنى الثاني فان دور محمّد (؟) يقوم علـــى أن يـــذكّر بأنبيـــاء الله وتعاليمهم : « ذكّر. إنّما أنت مذكّر » (٨٨ / ٢١). وراح محمّد (؟) يذكّر : « واذكر فـــي الكتاب ابراهيم » (١٩ / ٤١)، و « اذكر في الكتاب موسى » (١٩ / ٥١)، « واذكر في الكتاب اسمعيل » (١٩ / ٥٤)، « واذكر في الكتاب إدريـــس » (١٩ / ٥٦)، و « اذكـــر عبدنا أيّوب » (٣٨ / ٤١)، و « اذكر اسمعيل واليشع وذا الكفل وكل من الأحبار » (٣٨ / ٤٨)، « واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب » (٣٨ / ٤٥)، « واذكر أخا عاد » (٤٦ / ٢١)، « واذكر في الكتاب مريم » (١٩ / ١٦) ... اذكر ... لعلّ الذكرى تنفع : « ذكّـــر. فإنَّ الذكرى تنفع المؤمنين » (٥١ / ٥٥). **وغلب على القرآن العربي اسم: « الذكر الحكيم » (٣ / ٥٨)**[٢٩] **. وطالما كان يوجّه محمّد (؟) لومه إلـــى الـــذين لا يتـــذكرون؛ فيعـــاتبهم باستمرار : « أفلا تتذكّرون ؟ »** [٣٠] .

الأمران يعنيان أن القرآن العربي هو ذكر لكتاب سابق يعتمد محمّد عليه في كل حين. كلاهما يعني أنّ مضمون الكتاب العربي هو مضمون كتاب سابق استوحى منـــه. والكتـــاب السابق، على ما رأيناه في كتب السيرة، وعلى ما سيتّضح أمره، هو ذاك الذي كان بين يـــدي القسّ ورقة يعمل على نقله وتفصيله، والذي كان محمّد يحضر نقله طيلة أربع وأربعين سنة.

*****

الحقيقة تقضي بأن نقول : إن محمّداً لم يكن يعرف أيّة لغة أجنبيّة. وأظنّ المـــذهولين يقبلون ذلك دون صعوبة، لأنّهم يذهبون إلى أبعد من ذلك، أي إلى جهل محمّد بالقراءة نفسها. فإذا كان محمّد يجهل ذلك، فليس هو إذن الذي « فصّل » الكتاب العبراني، وليس هو الـــذي « بيّن » آياته، وليس هو الذي « يسّره »

---

(٢٩) وردت لفظة « ذكر » بمعنى القرآن وللدلالة عليه أكثر من ٦٠ مرّة.
(٣٠) ١٠ / ٣، ١١ / ٢٤ ... وغيرها العديد.

بلسان عربي مبين. جلّ ما كان لمحمّد أن يصنعه هو أن يكون للكتاب بشيراً ونذيراً ومبلّغاً : « وما أرسلناك الاّ بشيراً ونذيراً » [٣١] . وتردّد هــذا القول « إنا أرســلناك بــالحق بشــيراً ونذيراً » [٣٢]. **وعرف محمّد مهمّته هذه خير معرفة : « إِنْ أَنَا الاَّ نَذِيْرٌ وَبَشِيْرٌ » (٧ / ٨٨).**

فما ينسب إلى محمّد إذن هو بالحقيقة إلى القسّ ورقة الذي « فصّل » آيات الكتاب، و « يسّرها » بلسان عربي، ولخّص مضمون الكتاب والحكمــة لتســتطيع جماعــة مكّــة النصرانيّة العربية أن تكون على مستوى اليهود ـــ المتنصرين. وفضل القسّ العظــيم أنــه عرف اختيار محمّداً كتلميذ بارع الذكاء، ونجح.

أين هو هذا الكتــاب السابق الذي اعتمد عليه القسّ والنبي ؟ وما هــو ؟ ومــا هــي تعاليمه ؟ أهو التوراة والإنجيل معاً ؟ وأيّة توراة ؟ وأي إنجيل ؟ ونحن نعلم أنّ هنــاك كتبــاً كثيرة في التوراة وحول التوراة، منها ما هو رسمي ومنها ما هو منحول. ونعلــم أيضــاً أن نسخاً كثيرة من الإنجيل وعن الإنجيل، منها ما هو رسمي ومنها ما هــو منحــول ... إلاّ أنّ القرآن العربي يذكر « الإنجيل » كأنّه واحد لا غير، يذكره معرّفاً بالألف واللاّم اثنتي عشرة مرّة[٣٣] ، وأنّ كتب السيرة تذكره أيضاً بين يدي القسّ ورقة، وتذكره منسوباً إلى العبرانيين.

ولكنّنا نجد في القرآن العربي ما لا نجده في الإنجيل العبرانــي! فمــا الحجّــة إذن ؟ **الحقيقة إنّنا نخطأ في الحكم إنْ قلنا إنَّ قسّ مكة كان يعتمد على الإنجيل العبراني وحســب، دون التوراة وسائر الأناجيل والتعاليم النصرانيّة اللاهوتيّة المقتبسة من التقليــد الشــفهي والتراث الكنسي العام.** الواقع أن القرآن جمع معلومات متعدّدة ومن مصادر كثيرة. ولا بدّ أن نصبر إلى أن تتجلي الحقيقة كاملة.

---

(٣١) القرآن ٢٥ / ٥٦، ٣٤ / ٢٨، ١٧ / ١٠٥ ...
(٣٢) القرآن ٢ / ١١٩، ٣٣ / ٤٥، ٣٥ / ٢٤، ٤٨ / ٨.
(٣٣) ٣ / ٣ و ٤٨ و٦٥، ٥ / ٤٦ و٤٧ و٦٦ و٦٨ و١١٠، ٧ / ١٥٧، ٩ / ١١١، ٤٨ / ٢٩، ٥٧ / ٢٧.

ثالثاً ــ استمراريّة الوحي والتنزيل

ليس في مسيرة الله عبر التاريخ انقطاع. كما الأحداثُ تتعاقب، يستمرّ الله في ملاحقتها أو يكونُ تخلّى عن الخلق. فِعْلُ الخلقِ يستمرُ، وكذلك العنايةُ به. لكنّ الإنسان يطمع في المزيد من النعمة فيطلب من الله الخلاص. فكما الخلقُ فعلُ دائم، الخلاصُ أيضاً فِعْلٌ دائــم. وكلمــةُ الخلاصِ مرهونةٌ باللهِ مباشرةً ككلمةِ « كُنْ » الخَالِقة. **في الخلق لم يكلّفِ اللهُ بديلاً عنه، وفي الخلاص أيضاً. هو الذي خَلَقَ، وهو الذي يخلّص.** والخلقُ يستمرٌّ بموجبِ نِظامٍ بالغٍ في الدّقةِ، هكذا الخلاصُ يكونُ بموجبِ استمراريّةٍ في كلمة الله الموحاة إلى جميع الأنبياء. فالله هو هو، وكلمته هي نفسُها، ووحيُه هو ذاتُه، وخلاصُه للعالم كما خلقُه ايّاه، لا تبديلَ فيه. وبالتــالي، لا بدّ أن يكونَ الوحيُ اللاحقُ استمرارًا للوحيِ السابق، والأنبياءُ اللاحقون يكمّلون رسالةَ الأنبياءِ السابقين, والكتبُ في العهد الجديد تعتمدُ على الكتبِ في العهد القديم. غير ذلك يحلّنا من كــل ارتباط بالله. وقد عبّر القرآن العربي عن هذا خير تعبير :

١ً ــ وحدة الوحي :

لقد كان محمّد (؟) يعي استمرارية الوحي وعياً كاملاً. فهو لم يأتِ بوحي جديد مــن شيء. لقد كان الوحي عليه هو ذاته الوحي على الأنبياء السابقين : « إنّا أوحينا إليــك كمــا أوحينا إلى نوح والنبيّين من بعده. وأوحينا إلى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والأسباط » (٤ / ١٦٣). **ووحي الله على محمّد كوحيه على مَن سَبَقَهُ سَواء بِسَواء : « كذلك يُــوحِي إليكَ وإلى الذين من قبلِكَ اللهُ العزيزُ**

الحكيم » (٤٢ / ٣)، وأيضاً : « لقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك » (٣٩ / ٦٥).

ولكن، **إذا كان الوحي على محمّد كالوحي على النبييّن السابقين، فإن الوحيَ المحمّدي تابعٌ لا محالة إلى الوحي السابق، كما أن كتاب محمّد هو من كتاب سابق كان « من قبل »** ، **وقل من « اللوح المحفوظ »** (٨٥ / ٢٢) و « الكتاب المكنون » (٥٦ / ٧٧). وقد عبَّر القرآن العربي عن مصدر الوحي فيه بصراحة ووضوح، فقال بأن الله أَوحَى إلى محمّد مِنَ الكتاب السابق ومن الحكمة، وردّد قائلاً : « ذلك ممّا أوحى إليكَ ربّك مِنَ الحكمة » (١٧ / ٣٩)، و « **أوحينا إليك مِنَ الكتاب الذي هو الحق مصدِّقا لما بين يديه** » (٣٥ / ٣١)، « واتل ما أُوحي إليك مِنَ الكتابِ » (٢٩ / ٤٥، ١٨ / ٢٧)، « ذلك مِنْ أنباء الغيب نوحيه إليك » (٣ / ٤٤، ١٢ / ١٠٢)، و « تلك مِنْ أنباء الغيب نوحيها إليك » (١١ / ٤٩)، وغيرها.

ينتج من ذلك إنّ **وحي محمّد هو « مِنْ » وحي سابق، و « مِنْ » كتاب كان قبله، و« مِنْ » أنباء سالفة اعتمد عليها. فمحمد، من جهة، لا يعلم الغيب : « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب »** (٦ / ٥٠، ١١ / ٣١) **« ولا يعلم ... الغيب الا الله » (٢٧ / ٦٥)؛ ومن جهة ثانية، يوحي إليه الله « مِنَ » الغيب. وهذا التناقض الظاهر هو دليل على أن الغيب السابق هو المصدر الثابت لغيب محمّد.**

٢ ــ وحدة التنزيل :

والتنزيل القرآني هو أيضاً من تنزيل سابق، أو هو « تبيان » لما أنزل من قبل. وكان همّ محمّد أن يُظهرَ للناسِ كلَ ما أُنزِلَ على الأنبياء الأقدمين. فهو يأخذ منهم، ويعتمد عليهم، وينقل عنهم، ويستوحي أخبارهم وقَصصهم وأمثَالَهم،

وذلك ليبيّن للعرب كل شيء : « نزّلنا عليك الكتاب تَبْيَانًا لكل شيء » (١٦ / ٨٩)، « أنزلنا إليك الذكر لِتُبَيِّنَ للناس ما نُزّل إليهم » (١٦ / ٤٤)، « يريد الله لِيُبَيِّنَ لكم ويهـدِيكم سـنن الذين قبلَكم » (٤ / ٢٦)، « وإذ أخذ الله ميثاقَ الذين أوتُوا الكتابَ لتُبَيِّنَـهُ للنـاسِ » (٣ / ١٨٧) ... فالقرآن العربي إذن يُبَيِّنُ في صفحاته كلَ ما في آياتِ الكتاب السابق، وهو تنزيل منه مباشر ... ويستشهد بأهله، ويعتبر النصارى على علمٍ بما فيه : « **والذين آتيناهم الكتاب يَعْلَمُون أنّه مُنَزَّلٌ من ربّك بالحق** » (٦ / ١١٤)، « ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربّكَ هو الحق » (٣٤ / ٦). والجميع، كتابيّينَ كانوا أم أمّيّينَ، يؤمنون بالكتاب السـابق وبالقرآن العربي معاً. ومن لا يؤمن بذلك فهو ليس من أتباع النبي : « **والراسخون في العلم منهم (النصارى) والمؤمنون (من العرب) يؤمنون بما أنزل إليك (القرآن) وما أنزل من قبلك (التوراة والإنجيل)** » (٤ / ١٦٢). والمسلمون حقًا هم القائلون : « آمنا بـالله ومـا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنَ قَبْلُ » (٥ / ٥٩)، « والمؤمنون يؤمنون بما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنـزِلَ مِنْ قَبْلِكَ » (٤ / ٢١٢، ٦٠ ، ٢ / ٤).

ينتج من ذلك أن تنزيل القرآن العربي هو من تنزيل سابق. والذين يقـرأون التنزيـلَ السابق يَشْهَدُونَ على صحّةِ التنزيلِ العربي : « **إِنْ كُنْتَ فِيْ شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِيْنَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ** » (١٠ / ٩٤).

٣ ـــ وحدة الكتاب :

وما يؤكّد استمراريّةَ الوحي والتنزيل دعوةُ محمّد جماعتَه للأخذِ بـ« الكِتَابِ كلِّـهِ » (٣ / ١١٩)، أي، بحسب تفسير الجلالين بـ« الكتب كلِّها » ، وبحسب تفسير القـرآن نفسـه بـ« الكتاب الذي نَزَّلَهُ على رسوله، والكِتابِ الذي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ » (٤ / ١٣٦). وليس على النصارى الذين من أصلٍ يهودي أن يَحْزَنوا بما أُنزل إلى

محمّد : « الذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أُنْزِلَ إليك » (١٣/ ٣٦)، كما ليس على العرب الأمّيين أن يحتجّوا على الرسول بأنه أعطاهم كتابًا بغير لغتهم، حتى قال لهم محــذِّرًا : (**لا) تقولوا : انّما أُنْزِلَ الكتابُ على طائفتين من قبلنا. وإن كنّا عن دراســتهم لغــافلين** » (٦ / ١٥٥) أي غافلين عن قراءته « لعدم معرفتنا لها إذ ليست بلغتنا » (الجلالين).

لقد وعى محمّد مهمّته هذه إذ لم يترك من الكتاب السابق شيئا إلاّ أخذ به : « ما فرّطنا في الكتاب شيء » (٦ / ٣٨)، وعرف أن الإيمان والخــلاص منوطــان بإقامــة التــوراة والإنجيل والقرآن : « **لستم على شيء حتى تُقِيْمُوا التوراةَ والإنجيل ومَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم** » (٥ / ٦٨).

٤ ـــ وحدة الشريعة :

وما يدلّ على استمراريّة الوحي والتنزيل استمراريّةُ الشريعةِ وَوَحْدتُها، من نوح إلى ابراهيم وموسى وعيسى مروراً بجميع الأنبياء والأسباط حتى محمّد. هذه الشريعة لم تتبدّل : « لن تجدَ لسنّةِ اللهِ تبديلاً » (٣٥ / ٤٣)[٣٤] ، وهي نفسها التي أتى بها نوح : « نشرّع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً » (٤٢ / ١٣)، وجاء بها الرسل والأنبياء : « ســنّة مــن قــد أرسلنا قبلك من رسلنا » (١٧ / ٧٧). ولم يكن دور محمّد الاّ أن يبيّن لأتباعه سنن الأولين ويهديهم إليها : « **يريد الله ليبيّن لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم** » (٤ / ٢٥) ...

بيد أنّ فرقاً بين سنّة محمّد وسنّة من سبقه. يقوم هذا الفرق على « خفّة » الشــريعة المحمّدية. وقد أرادها الله كذلك لــ« ضعف » الإنسان ووهنه. قال : « الآن

(٣٤) القرآن انظر أيضاً : ٦ / ٣٤، ١١٥، ٤٨ / ٢٣، ١٨ / ٢٧، ١٠ / ٦٤ ...

خفّف الله عنكم، وعلم أن فيكم ضعفاً » (٨ / ٦٦)، و « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (٢ / ١٨٥)، و « يريد الله أن يخفّف عنكم وخُلق الإنسان ضعيفاً » (٤ / ٢٨). وحجّة ذلك **إنّ محمّداً هو رسول لأمّة معيّنة، لها ظروفها الخاصّة : « لقد بعثنا في كل أمّة رسولاً »** (١٦ / ٣٦) و « **لكل أمّة رسول** » (١٠ / ٤٧)، **ورسول العرب يجب ألاّ يكون كرسول اليهود، ولا يسنّ شريعة كشريعة اليهود؛ لأنّ الله يجعل لكل أمّة رسالة خاصة بها « والله أعلم حيث يجعل رسالته »** (٦ / ١٢٤).

٥ ـ وحدة المؤمنين :

التنزيل العربي والتنزيل العبراني متلازمان : العربي يفسّر العبراني ويعتمد عليه، والعبراني أصل العربي وشاهد عليه. من يؤمن بواحد منهما دون الآخر لا يكون على الصراط المستقيم. على بني إسرائيل أن يؤمنوا بالتنزيل العربي لأنّه « تذكرة » للتنزيل العبراني، وعلى المتّقين من العرب أن يؤمنوا بالتنزيل العبراني لأنّه أصل العربي ومصداق عليه.

فهو يقول للمتّقين من العرب : « **قولوا آمنّا بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب** » (٢ / ١٣٦، ٣ / ٨٤)، « **وقولوا : آمنّا بالذي أنزل إلينا، وأنزل إليكم. وإلهنا وإلهكم واحد** » (٢٩ / ٤٦). ويقول أيضاً عن بني إسرائيل: « ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربّك هو الحقّ » (٣٤ / ٦)، و « الذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربّك بالحق » (٦ / ١١٤)، و « إذ سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ممّا عرفوا من الحق » (٥ / ٨٣). ويقول للجميع: « يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليكم من ربّكم » (٥ / ٦٨). ويحدّد إيمان الجميع بالتسليم بالتنزيل كله : « **الراسخون في العلم منهم (النصارى) والمؤمنون (العرب)**

يؤمنون بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك » (٤ / ١٦٢، ٥ / ٥٩).

كلا التنزيل العبراني والعربي إذن ضروري. على العرب وعلى بني إسرائيل أن يأخذوا بالتوراة والإنجيل والقرآن سواء بسواء. بهذا يكون الجميع مسلمين لله ومؤمنين به حقّاً. ومن يأخذ بالتوراة وحدها دون سواها فهو من اليهود « الظالمين » [٣٥] ، ومن يأخذ بالإنجيل وحده دون سواه فهو من المسيحيين المغالين في دينهم[٣٦] ، ومن يأخذ بالقرآن العربي وحده دون سواه فهو من مسلمي « مصحف عثمان » ، وليس من أتباع محمّد، لأنّ أتباع محمّد يخضعون لأمره النافذ : « **آمِنُوا باللّهِ وَرَسُوْلَهُ وَالكِتَابَ الّذِي نُزِّل عَلَى رَسُوْلِهِ، وَالْكِتَابَ الَّذي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ** » [٣٧] . أمّا من يأخذ بالكل معاً فهو من المسلمين الطيّبين الذين يعلنون قائلين : « آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ » (٥ / ٥٩)، والذين يعرفون حقاً أن « لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيْلَ » (١٠ / ٩٠).

*****

ينتج من ذلك كله : إن وحي الله على أنبيائه هو هو، وإن تنزيل القرآن العربي هو نفسه تنزيل الكتاب العبراني، وإن التنزيل اللاحق هو من تنزيل سابق، وإن كل ما له صلة بخلاص الإنسان مستمرّ هو إيّاه منذ البدء حتى النهاية. أمّا السؤال فهو : كيف تعرّف محمّد على التنزيل السابق ؟ أهو الله الذي تدخّل مباشرة بالنبي محمّد وعلّمه ما لم يكن يعلم ؟ أم هو ملاك من

---

(٣٥) انظر القرآن حيث أكثر من ٩٠ مرّة ينعت اليهود بالظلم لإنكارهم المسيح.
(٣٦) انظر أيضاً ٤ / ١٧١، ٥ / ٧٧، حيث المسيحيون يغالون في تأليه عيسى.
(٣٧) القرآن ٤ / ١٣٦ ...

الله وافى محمّداً ولقّنه ما لم يكن بوسعه اكتشافه وحده ؟ أم هو أخيراً أَمْرٌ حَدَثَ له كما يَحدثُ للملهمينَ مِنَ العَالَم ؟

واحد من اثنين : إمّا أن يكونَ محمّد اكتشف التنزيل السابق بذاته وتعلّمه بلغته الأصلية العبرانية ونقله أو أخذ منه ما يناسب أحوال مدعوّويه، وإمّا أن يكون تلقّن التنزيل السابق على يد « خبير حكيم علّمه ما لم يكن يعلم » ! ولا يمكننا افتراض شيء آخر : فلا الله يتدخّل بأمور الناس متخطّياً كل معطيات الإنسان فيعلّمه بعد جهل، ويظهر عليه متجلّيًا مراراً ومراراً، ولا الملاك جبرائيل تَتَفَتَّحُ له أبوابُ السماء ليزور صديقَه على الأرض طيلة ستّين سنة ونيّف. وما أدراك إن شكّ معظمُ الناس بوجود جنس ملائكي! وأيضاً لا يمكننا افتراض الأمر الأوّل، لأنه لم يُعرَفْ عن محمّد أنه كان يعرفُ العبرانيةَ أو الآراميةَ لينقل عنها قصص الأنبياء وأمثال الإنجيل، أو أنه باستطاعته أن يتلقّن التنزيل السابق بدون معلّم أو كتاب أو هداية ... في حين أن الذي يؤكّد لنا الأمر الثاني أن محمّداً كان يعتمد باستمرار على « من عنده علم الكتاب » يسألهم، ويستشهد بهم، وتكفيه شهادتهم : « **قلْ كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب** » (١٣ / ٤٣).

بقي إذن أن يكون محمّد تعلّم ما لم يكن يعلم من « خبير حكيم » . ولسنا نجد في كتب السيرة والأخبار والتواريخ غير القس ورقة بن نوفل. وقد يكون غير القسّ ورقة، ولكنّ عوامل كثيرة توجّهنا إلى القسّ ورقة : صلة القربى بينهما، وبين القسّ وخديجة، ودور القس في زواج النبي، وتدريبه له على العبادة والتحنّث في غار حراء، وملازمته إيّاه نيّفاً وأربع وأربعين سنة، وإعلاناته المتوالية والمتتالية فيما سيكون عليه، وعلمه الواسع للكتاب، ومقامه في مكة وبين العرب ... كلّها توجّهنا إلى القسّ. فهو الشخصية النصرانية البارزة في حياة محمّد. وكان **القرآن العربي إنجيل القسّ بالعربيّة.** وبقي على محمّد أن يعلِّم بدوره ما تعلّم، ويبلِّغَ ما تَبلّغ، بعدما استكمل استيعابَ ما في الكتاب من تعاليم وعقائد وتشريعات ...

رابعاً ــ محمّد يعلّم ما تعلّم

بعدما تعلّم محمّد ما لم يكن يعلم راح يعلّم بدوره ما تعلّم. وتعليم المتّقين من العــرب كان من مهمّاته الرئيسيّة في حياته الرسوليّة، تماماً كما كانت من مهمّات النبيــيّن الســابقين، وكمــا هو حال عيسى الــذي أعلن لبني إسرائيل : « يا بني إسرائيل أني رسول الله إليكم » (٦١ / ٦)، وقد دعي في الإنجيل باسم « المعلّم » [٣٨] ، وكان « يعلّم في مجــامع اليهــود ويعلن بشارة الملكوت » [٣٩] ، وأرسل تلاميذه، فيما بعد، ليكونوا « معلّمــيّ الأمــم » [٤٠] . وكما ناشد بولس الرسول تلميذَه تيموتاوس بقوله : « أناشدك أنْ أعلنْ كلامَ الله، وأَلحَّ فيهِ بِوقتِهِ وبغير وقته، وبّخْ وانذرْ وعِظْ بصبرٍ جميلٍ ورَغْبَةٍ في التَّعْلِيْمِ » [٤١] ، وكما قام القسّ ورقــة بمهمّته التعليمية هذه خير قيام ... **والتعليم في نظر رسل المسيح وصيّة منه، أعلنها بطرس في عظته في بيت كرنيليوس قال : « قد أوصانا الربّ أن نعلّم الشعب »** [٤٢] .

على مثال المسيح ورسله راح محمّد يعظ ويبشّر ويعلّم وينذر ويبلّغ، ككل قــسّ فــي بيعة الله. وقد عبَّر الرسول بولس عن مهمّة القسيسين هذه بقوله : « **كيف يدعونه ولم يؤمنوا به ؟ وكيف يؤمنون به ولم يسمعوا به ؟ وكيف يسمعون به بلا مبشّر ؟ وكيف يبشِّرون إنْ لم يُرْسَلَوا ؟** » . وخَلُصَ إلى القول : « بأن الإيمانَ مِنَ البِشارةِ » [٤٣] . فلا بدّ إذن أن يكون الرسولُ بشيرًا ونذيرًا يفقّهُ الناسَ ويردّهم إلى الصراط المستقيم.

---

(٣٨) إنجيل متى ٢٣ / ٨، ٢٦ / ١٨ ...
(٣٩) نفس المرجع ٤ / ٢٣، أعمال ١٣ / ١.
(٤٠) متى ٢٨ / ١٩.
(٤١) ٢ تيموتاوس ٤ / ٢.
(٤٢) أعمال الرسل ١٠ / ٤٢.
(٤٣) روما ١٠ / ١٢ ـ ١٥ و١٧.

ومحمّد، خليفة القسّ ورقة على كنيسة مكّة، أُرْسِلَ لدعوةِ الناسِ إلى الإيمانِ؛ ولـــيس إيمان بدونِ سَماع، وليس سَماع بدون مبشِّرٍ، وليس مبشّرَ بدون أن يكون قد أُرْسِلَ. لهذا أُرْسِلَ محمّد إلى العرب، هو منهم، لكي يعلّمهم كلام الله، ويبيّن لهم الآيات، ويزكّيهم من خطايـــاهم، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، بعدما كانوا في ضلال، لاهتمامهم البالغ في جمـــع الأمـــوال وكثرة الأولاد. لقد راح محمّد يعلّمهم ما لا يعلمون، يعلّمهم الكتاب والحكمة, ويتلـــو علـــيهم الآيات ليكونوا مؤمنين، لأن الإيمان انّما يكون بالسماع. قال :

« لقد مَنَّ الله على المؤمنين (من العرب) إذ بَعَثَ فيهم رسولاً مـــن أنفســـهم، يتلـــو عليهم آياتِه، ويزكّيهم، ويعلّمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين » (٣ / ١٦٤). وردّد هذا القول مرارا[٤٤] .

وقال أيضاً : « أرسلنا فيكم رسولاً منكم، يتلو عليكم آياتنا، ويزكّيكم، ويعلّمكم الكتاب والحكمة، ويعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون » (٢ / ١٥١). وردّد القول[٤٥] .

لقد وعى محمّد دوره التعليمي هذا، وعرف أنه أُرسل إلى العرب رســـولاً، وبشـــيراً، ونذيراً، ومبلّغاً رسالات ربّه. قـــال: « إن أنا الاّ نذير وبشير » (٧ / ١٨٨)، وقـــال أيضاً: « إنّني لكم منه نذير وبشير » (١١ / ٢). ويعلّم محمّد حق العلم أن الله أرسله لأجل هـــذه المهمّة : « إنّا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً » [٤٦]، و « ما أرسلناك الاّ مبشّراً ونذيراً » [٤٧]، و « يا أيها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً » (٣٣ / ٤٥) « ... وليس على الناس أن يعجبوا ويتساءلوا عن مهمّة صاحبهم : « أوعجبتم إنْ جاءكم ذكر من ربّكم علـــى رجـــل منكم لينذركم ؟ » (٧ / ٦٣ و٦٩)، أو

(٤٤) انظر أيضاً ٦٢ / ٢ و٢ / ١٢٩.
(٤٥) انظر أيضاً ٢ / ٢٣٩.
(٤٦) ٢ / ١١٩، ٣٥ / ٢٤.
(٤٧) ٢٥ / ٥٦، ٤٨ / ٨.

أيضاً : « أكان للنـــاس عجباً أن أوحيــنا إلى رجل منهم أن أنـــذر النـــاس »؟ (١٠ / ٢)، و « عجبوا أن جاءهم نذير منهم » (٣٨ / ٤).

ووعى محمّد أيضاً أن كتابه هو الآخر كان بلاغاً من الله لينذر به النـــاس ويبشّـــرهم ويهديهم إلى الحق : « أوحيّ إليّ هذا القرآن لأنذركم بـــه » (٦ / ١٩)، و « هـــذا كتـــاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه، ولتنذر أمّ القرى ومَن حولها » (٦ / ٩٢)، و « كذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أمّ القرى ومَن حولها » (٤٢ / ٧)، وهو « كتاب أنزل إليـــك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به » (٧ / ٢)، و « هذا كتاب مصدق لســـاناً عربيـــاً لينذر الذين ظلموا » (٤٦ / ١٢)، و « هذا بلاغ للناس ولينذروا به » (١٤ / ٥٧). لقـــد أصبح القرآن « تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (١٦ / ٨٩).

وإن لم يصدّق المتّقون والمؤمنون ما جاء به محمّد، فما عليهم الاّ أن يطلبوا شـــهادة من عنده علم الكتاب ويسألوهم عن العلم الذي أتاهم به صاحبهم، ليكونوا على بيّنة من الأمر. وقد قال لهم مراراً : « **اسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** » (١٦ / ٤٣، ٢١ / ٧). بهذه الوسيلة يتأكّدون ممّا جاءهم : « **ستعلمون من أصحاب الصراط السويّ ومَن اهتدى** » (٢٠ / ١٣٥) أنَّ القرآن هو من عند الله، بل « كل من عند ربّنا » (٣ / ٧). وشهد محمّـــد علـــى صدق ما جاء به وما علّم : « جاء بالصدق » (٣٩ / ٣٣)، « أبلّغكم رسالات ربّي وأنا لكم ناصح أمين » (٧ / ٦٨). ولطالما صلّى محمّد إلى الله ليكون صادقاً أميناً : « ربّي ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق » (١٧ / ٨٠)، و « اجعل لـــي لســـان صـــدق فـــي الآخرين » (٢٦ / ٨٤). واشتهر محمّد في مكّة بأمانته حتى كان « يسمّى بالأمين » .

أمّا موضوع تعليم محمّد فكل ما نجده في القرآن العربي بعد النظر في ما زيد عليـــه في « مصحف عثمان » . وسنتوقّف في الفصل الأخير على أهمّها.

خَاتمةٌ

كما كان من الصعب علينا ألاّ نجد وراء النبي من كان يعلّمه، فهو من الصعب أيضاً ألاّ نجد وراء القرآن العربي كتاباً آخر يعتمد عليه. فكما كان قسّ مكة وراء النبي يهمس في أذنه وحي الله من وراء الستار، هكذا كان وراء قرآن محمّد كتاب سابق يجود عليه بآياته وتعاليمه وأمثاله، وقصصه ...

ولكن، إذا كانت الهداية إلى القس ورقة سهلة المنال ولا تثير مشاكل، فإنّ الخلود إلى إنجيل العبرانيين وحده كمصدر وحيد لعلوم القرآن لن يمرّ بدون مشاكل، لأنّ القرآن نفسه، كما وصل إلينا، يثير عندنا المشاكل ... ولا أحد يستطيع التقدّم خطوة إنْ لم ينكشف له القرآن الأصل كما بَلَغَ إلى محمّد ...

غير أنّنا **إذا اعتمدنا على أبحاث المستشرقين، على الأستاذ « نولدكه » ، مثلاً، في ترتيبه للسور القرآنية، بحسب تاريخها في النزول، ينكشف لدينا شيء هامّ جداً، وهو : إن تعاليم القرآن المكّي هي نفسها تعاليم إنجيل قسّ مكّة العبراني، هي « تفصيل » لها وتعريب. وسنتأكّد من ذلك بعد حين ...**

والحقيقة تقال : إنّنا، بعد اهتدائنا هذا، نستطيع أن نعتبر « القرآن العربي » كما في أصله المكّي، « إنجيل العرب » ، كما هو « إنجيل العبرانيين » الذي بحوزة ورقة للنصارى الأبيونيين. فكما كانت « كل أمّة تُدعى إلى كتابها » (٤٥ / ٢٨)، وكل « قرية لها كتاب » (١٥ / ٤)، أصبح للعرب أيضاً « كتاب » ...

وكما كان **إنجيل متى الآرامي والتقليد الرسولي أصلاً لكل الأناجيل فيما بعد، وعنهما أخذت الأناجيل الرسمية الأربعة، والأناجيل المنحولة العديدة... هكذا يكون « إنجيل العرب » واحداً منها ينضمّ إليها ...**

الفصل الرابع

النصرانيّة والإسلام دين على دين

أولاً ـــ النّصرانيّة في بيت محمّد

ثانياً ـــ الإسلام قبل الإسلام

ثالثاً ـــ النّصرانيّة والحنيفية والإسلام

رابعاً ـــ « الدّين القيّم »

أولاً ــ النّصرانيّة في بيت محمّد

لم تبقَ النصرانية وقفاً على الرهبان السائحين المبشّرين بها في مكّة والحجاز دون سواهم؛ بل قوم كثير من قريش اعتنقها، على حدّ شهادة اليعقوبي في تاريخه؛ وغزت الكعبة نفسَها، كما يشهد الأزرقي في « آثار مكّة؛ وقام عليها قسّ يدير شؤونها؛ وكتابٌ منزّل تعتمد عليه، وهو « الإنجيل بحسب العبرانيين » ... وتشهد كتب الأخبار على وجود نصراني عام طغى على بيت محمّد؛ فلم يكن جَدُّهُ ووالدهُ وأعمامه وأقرباؤه ومعارفه بعيدين عن النصرانيّة وعن تعاليمها. كما لم يكن الرهبان « السائحون »، و« القسيسون العابدون »، والحنفاء « المتحنّثون » بدون أثر أو فاعليّة على النبيّ وتعاليمه.

١ ــ نصرانيّة عبد المطّلب :

لقد عُدّ عبد المطّلب بين الذين رفضوا عبادة الأصنام في الجاهليّة، كأبي بكر الصدّيق، وزيد بن عمرو بن نفيل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحُوَيرِث، وَوَرَقة بن نوفل، ورباب البراء، وأسعد بن كريب الحميري، وقس بن ساعدة الأيادي، وأبي قبيس بن صرمة » [١] ، وغيرهم. هؤلاء جميعهم ذكرتهم كتب السيرة، دالّة على هدايتهم وإيمانهم وتوحيدهم.

وقيل عن عبد المطلب « إنّه كان على ملّة ابراهيم، أي لم يعبد الأصنام » [٢] . ودين إبراهيم هو « الدين الحنيف » القائل بالتوحيد والقائم على

(١) ابن الجوزي في كتاب الامتاع، انظر السيرة الحلبية ١ / ٣٦.
(٢) السيرة الحلبية ١ / ٤٨، السيرة المكية ١ / ٣٧.

رفض الشرك والموصوف في القرآن بـ« دين القيّمة » و « الدين القيّم » [٣] . « وقد جاءت أدلّة كثيرة تشهد بأنّ عبد المطلب كان على الحنيفيّة والتوحيد » [٤] . وعبدة الأصنام، طبعاً، لم يكونوا على ذلك. وعبد المطلب لم يعبد الأصنام إذن.

وليس أدلّ على ذلك من استخلاص العبر من سيرته وأوصافه وتعاليمه ووصاياه لبنيه: لقد كان عبد المطلب « من حلماء قريش وحكمائها، وكان مُجابٍ الدعوة، محرِّمًا الخمرَ على نفسه، وهو أوّل من تحنّث بحراء. كان إذا دخل شهر رمضان صعد وأطعم المساكين، وكان صعوده للتخلّي عن الناس. يتفكّر في جلال الله وعظمته. وكان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رؤوس الجبال ولذلك كان يقال له : مطعم الطير. ويقال له : الفيّاض » [٥] .

ورواية أخرى تقول : « **من مناقب عبد المطلب، وفيها ما يدلّ على توحيده، منها أمره لبنيه بمكارم الأخلاق، وتحنّثه في غار حراء، وإطعامه المساكين، حتى كان يرفع للطير والوحوش في رؤوس الجبال من مائدته، وقطعه يد السارق، ووفاؤه بالنذر، وتحريمه الخمر على نفسه، ومنعه الزنا، ونكاح المحارم، وقتل المؤودة، وأن لا يطوف البيت عريانٌ**. ومن ذلك قوله : « والله إنّ وراء هذا الدار داراً يجزَى فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته » [٦] .

هذه المناقب والصفات تشير، بدون شكّ، إلى هداية عبد المطلب. فرفضه للأصنام، وإيمانه بالتوحيد، وتحنّثه، وسخاؤه على المساكين، وتحريمه الخمرة، وعقيدته بالقيامة والحساب ... لا تشير إلى وثنيته وعبادته الأصنام؛ بل إلى هدايته إمّا إلى اليهوديّة وإمّا إلى النصرانيّة، الدينَين المعروفَين في مكّة والحجاز آنذاك.

---

(٣) القرآن ٩ / ٣٦، ١٢ / ٤٠، ٣٠ / ٣٠ و٤٣، ٩٨ / ٥.
(٤) السيرة المكّية ١ / ٧٢.
(٥) السيرة الحلبية ١ / ٤، السيرة المكية ١ / ٢٢ ـ ٢٣.
(٦) السيرة الحلبية ١ / ٤، السيرة المكية ١ / ٧٣.

إلاّ إن تشديد كتب السير والأخبار على اهتمامه بالمساكين وإطعامه لوحوش الجبال وطيور الصحراء يُصَوِّبُنَا نحو الشيعة « الأَبْيُونيَّةِ » من النصرانيّة، التي عرفنا عنها، كما رأينا، الشفقة بالمساكين واطعام الجائعين ...

وما يؤكّد لنا انتسابه إلى الشيعة الأبيونيّة منادمته الأحبار والرهبان على السواء. وكثيراً ما تذكر الكتب رحلاته إليهم واجتماعه بهم والتحدّث معهم. يقول السيوطي مثلاً: « وبينا عبد المطلب يوماً في الحجر، وعنده أسقف يحادثه ... » [٧] ؛ ويحدّثنا العباس قائلاً : « قال عبد المطلب: قدمنا اليمن في رحلة الشتاء فنزلنا على حبر من اليهود يقرأ الزبور »[٨]؛ ويذكر ابن الجوزى « أن محمّداً في سنة سبع من مولده أصابه رمد شديد فأخذه جدّه ناحية عكاظ إلى راهب يعالج الأعين » [٩] ؛ وفي السيرة الحلبية « إن عبد المطلب خرج من بيته حتى أتى عيصا ــ وهو راهب من أهل الشام ــ وقد أتاه الله علماً كثيراً، وكان يلزم صومعته » [١٠]... وغير ذلك من أخبار **ممّا يشير إلى الجوّ الذي كان يحيط بعبد المطّلب وإلى ارتياحه فيه، وبالتالي إلى معارفه النصرانيّة، أو إلى تنصّره ...**

٢ ــ هداية والديه ؟

لم يُعرف عن والدي محمّد شيء يُذكر. ولم يكن لهما أيّ دور فعّال في حياته وتنشئته. لقد توفّاهما الله وابنهما طفل صغير. لم يتركا له سوى خمس نوق، ومربّية اسمها « بركة » الحبشيّة، وكنيتها « أمّ أيمن » ، نصرانية الدين، تدبّرت أمر الطفل ودرّبته على الحياة والهداية. كان النبي يحبّها ويجلّها كثيراً.

---

(٧) السيرة المكيّة ١ / ٧٣، السيرة الحلبية ١ / ١٢٢.
(٨) السيرة الحلبية ١ / ٤٨.
(٩) نفس المرجع ١ / ١٢٥.
(١٠) نفس المرجع ١ / ٧٧.

وعُرف عنه قوله لها : « أنت أمّي بعد أمّي » [(١١)] ، وقوله عنها : « من ســرّه أن يتــزوّج امرأة من أهل الجنّة فليتزوّج أمّ أيمن » [(١٢)] .

بالإضافة إلى ذلك، ترجّح المصادر الإسلامية نفسها أن والدي محمّد كانا على الهداية والصراط المستقيم. فقال الفخر الرازي وأثبت : « إنهما كانا على الحنيفيّة دين إبراهيم عليــه السلام، كما كان زيد بن عمرو بن نفيل وأضرابه » . وأكّد، بالاستناد إلى قوله تعالى : « إنّما المشركون رجسْ » ، بأنه يجب « أنْ لا يكون أحد من أجداده مشركاً » [(١٣)] . وقد ارتضــى كلامه هذا أئمّةٌ محقِّقون أمثال العلامة السنوسي والمحقّق التلمساني محشي الشفاء، فقالا : « لم يتقدّم لوالديه شرك. وكانا مسلمَين، لأنه عليه الصلاة والسلام انتقل من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة، ولا يكون ذلك إلاّ مع الإيمان بالله تعالى ... وما نقله المؤرّخون قلّةُ حيــاءٍ وأدب. وهذا لازم في جميع الآباء » [(١٤)] . وقد أيّد الجلال السيوطي كلام الفخر الرازي بأدلّة كثيرة وألّف في ذلك رسائل[(١٥)] .

وشهد محمّد، فيما بعد، على إيمان أجداده ووالديه، فقال : « لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات » ؛ واستدلّ منه بعض أهل السير على « أنّ آباء النبي كانوا مؤمنين، أي متمسّكين بشرائع أنبيــائهم. وليس فيهم كافــر، لأن الكفــر لا يوصــف بأنّــه طاهر »[(١٦)].

ينتج من هــذه الأقوال عن « حنيفيّة » والــدي محمّد، واتّباعهما « دين ابراهيم » ، و « طهرهما » ، وأنهما كانا « مسلمين » قبل الإسلام، وتركهما لــه مربّيتــة « حبشــيّة » نصرانيّة ... إنّهما كانا على الهداية والإيمان، أو قل على النصرانيّة ...

---

(١١) السيرة الحلبية ١ / ١١٧.
(١٢) نفس المرجع ١ / ٥٧.
(١٣) تفسير الفخر الرازي للقرآن.
(١٤) نقلا عن السيرة الحلبية ١ / ٥٨.
(١٥) السيرة المكية ١ / ٧٠ ـ ٧٢.
(١٦) السيرة الحلبية ١ / ٤٨.

٣ً ــ أبو طالب « على ملّة أبيه » :

توفي عبد المطلب ولمحمّد ثماني سنين، فكفله أبو طالب عمّه وأكمل تربيته ودرّجه على تقاليد العيلة الهاشميّة وتراثها الديني. فـ« نهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه، وضمّه إلى ولده، وقدّمه عليهم، واختصّه بفضل واحترام. وظلّ فوق أربعين سنة يعزّ جانبه، ويبسط عليه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله » [١٧] .

وما عُرف من أبي طالب في سطور الكتب فالكثير من مناقبه ومآثره، وهي أقرب ما تكون إلى الهداية والإيمان. عرف عنه، كما عرف عن أبيه، اهتمامه البالغ بالفقراء والمساكين وإقراء الضيوف وإطعام الطعام، وهو الفقير كثير العيال قليل المال. وقد تدلّ وصيته الأخيرة لبنيه على مدى اهتمامه و « أبيونيّته » حيث قال، وهو على فراش الموت : « أجيبوا الداعي، واعطوا السائل، فإن فيهما شرف الحياة والممات » [١٨] . وربّما تعرّف الناس عليه من خلال صفته هذه، « فأخبرنا خالد بن خداش قال: توجّه إلى الشام فنزل منزله فأتاه فيه راهب فقال: إن فيكم رجلاً صالحاً. فقال : إن فينا من يُقري الضيف ويفكّ الأسير ويفعل المعروف »[١٩].

وتذكر كتب الأخبار أن آخر كلمة تفوّه بها أبو طالب وهو يحتضر قوله : « أنا على ملّة عبد المطلب. ثم مات » [٢٠] . ويشير بعضها الآخر إلى أنه كان « كأبيه عبد المطلب » [٢١] ، أي كان على هدايته ورفضه الأصنام وتعبده واهتمامه بالفقراء والتحنّث والصيام طوال شهر رمضان[٢٢] ، يعني أنه كان على الحنيفيّة والتوحيد دين ابراهيم وسائر « الحُمس » من قريش.

---

(١٧) محمّد الغزالي في فقه السيرة ٦٧.
(١٨) السيرة المكية ١ / ٩١.
(١٩) طبقات ابن سعد ١ / ١٢٠.
(٢٠) طبقات ابن سعد ١ / ١٢٢.
(٢١) الحلبية ١ / ١٢٥، المكية ٩١.
(٢٢) نفس المرجع ...

الاّ أنّ بعض الأخبار تريد أن يبقى أبو طالب خارجاً عن الهداية والإيمان، وذلك قصد الوقوف بوجه مقدّسي عليّ وشيعته. فأبقته على جاهليّته وضلاله. وهذا موقف يتعمّده أهل السنّة بحق الشيعة أتباع عليّ بن أبي طالب، فمنعوا، بالتالي، أن يكون أبو طالب « على ملّة أبيه » . أمّا الشيعة فتُمِيتُ أبا طالب بعد هدايته وإسلامه، وترفض أن يكون مشركاً قبل إسلامه، أو أن يكون متعبّداً للأصنام ...

٤ ـ المناخ النصراني العام :

أمّا المناخ الديني العام الذي عاش فيه محمّد فلم يكن مناخاً مشركاً أو منكراً لله ، كما يحلو للبعض تصوّره. فمكة، رغم ما يتصوّره كتبة السير والأخبار، لم تكن مشركة، أو متعبّدة للأصنام، أو جاهلة لله، أو منكرة للوحدانية. فالشرك، الذي يحاربه القرآن العربي، ليس هو شركاً بالمعنى الحقيقي، أي إشراك غير الله مع الله في الألوهيّة؛ بل هو شرك تعبّد، أي إشراك غير الله مع الله في العبادة والشفاعة والطقوس، أكان هذا الغير ملاكاً[٢٣] ، أو جنّاً[٢٤] ، أو صنماً[٢٥] ، أو نبيّاً[٢٦] ، أو قوّة من قوى الطبيعة كالشمس والقمر والشجر والحجر[٢٧] ... **إن العرب في مكّة لم يعبدوا أحداً ممّن هو دون الله إلاّ توسّلاً، وللتقرّب به إلى الله الواحد:** « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » (٣٩ / ٣). ولم يأخذ القرآن على سكان مكّة جهلَهم بالله، بل أخذ عليهم تفكيرَهم المادّي به، وتصويرَهم له بالصور والأصنام. وهو يقرّ بإيمانهم وبمعرفتهم له وهم به مشركون.

---

(٢٣) القرآن ٣٧ / ١٤٩ ـ ١٥٥، ١٦ / ٥٧، ٣ / ٨٠، ١٦ / ٥٧ وغيرها.
(٢٤) القرآن ٦ / ١٠٠، ٣٤ / ٤١.
(٢٥) القرآن ١٠ / ١٨، ٧ / ١٩٧ ـ ١٩٨، ٤٣ / ٦١، ٥٣ / ١٩ وغيرها.
(٢٦) القرآن ٣ / ٨٠.
(٢٧) القرآن ٢٧ / ٢٢، ٤١ / ٣٧.

« وما يؤمن أكثرهم بالله الاّ وهم مشركون » (١٢ / ١٠٦).

ويعترف محمّد بإيمان المكّيين بالله الواحد، الخالق، المدبّر، والمحيي، وربّ السماء والأرض. يقول: « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض لَيَقُولَنْ : الله » (٢٩ / ٦١)[٢٨]، و « لئن سألتهم من سخّر الشمس والقمر لَيَقُولَنْ : الله » (٢٩ / ٦١)، و « لئن سألتهم من نزّل من السماء ماءً فأحيا به الأرضَ بعد موتها ليقولن : الله » (٢٩ / ٦٣)، وإذا سألهم محمّد : من يدبّر الكون، ومن يحيي الأرض، ومن بيده كل شيء، ومن يفعل الخير والشر ؟ سيقولون الله. « قلْ من ربّ السماوات السبع ورب العرش العظيم سيقولون : الله » (٢٣ / ٨٥)، « قل من بيده ملكوت كل شيء، سيقولون: الله » (٢٣ / ٨٨)، « قل من يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحي، ومن يدبّر الأمر، فسيقولون: الله » (١٠ / ٣١). و« إذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا، والله أمرنا بها » (٧ / ٢٨).

فلا الشرك إذن، ولا جهل الله، ولا إنكار وجوده، ولا الوثنية بمعناها الحقيقي، كان موجوداً في مكّة. ولئن طاب لكتّاب السير والأخبار إثبات ذلك، فهو من قبيل إظهار النور على الظلمة، وإظهار العلم بعد جهل. فمكة لم تكن مشركة، ولا وثنية، ولا جاهلة بالله، وبالتالي لم تكن في « عصر الجاهلية » . **مكّة كانت مؤمنة بالله، الواحد، الخالق؛ ولكن كانت تتقرّب إليه بواسطة الصور، وبشفاعة الملائكة والقديسين، وبالرموز والتماثيل والصور، وقل بواسطة الأَيْقونَاتِ. وبيئة محمّد الخاصة، لم تكن على غير ما كانت عليه مكّة، أي على غير الإيمان والهدى. وربّما منادمة محمّد للرهبان ومعارفه بهم والتجاؤه إليهم في ملمّاته وصعوباته وأمراضه خير شاهد لمعرفة محمّد بالنصرانيّة، أو لتنصّره أيضاً، كما عرفنا ...** وإجلال القرآن العربي لهم برهان على محبّة محمّد وتقديرِه أيضاً.

(٢٨) انظر القرآن في ٣٩ / ٣٨، ٣١ / ٢٥، ٤٣ / ٩.

ثانياً ــ الإسلام قبل الإسلام

« إن الدين عند الله الإسلام » (٣ / ١٩)، و « مَنْ يَبتغِ غيرَ الإسلام ديناً فلن يُقبَلَ منه » (٣ / ٨٥)، و « من يُرِدِ الله أن يَهدِيَه يشرحُ صدرَه للإسلام » (٦ / ١٢٥)، و « هو على نورٍ من ربّه » (٣٩ / ٢٢). الإسلام هو الدين التام والكامل الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين : « وأتممت عليكم نعمتي وضيت لكم الإسلام ديناً » (٥ / ٣). وهو نعمة من الله يُشكر عليها : « لا تَمنّوا عليّ اسلامكم، بل الله يَمَنّ عليكم » (٤٩ / ١٧). فالإسلام إذن هو دين الله، ولا دين سواه يقبل عنده. هو الدين الذي بشّر به محمّد بين العرب.

إلاّ إنّ سؤالاً بالغ الأهميّة يحتّم علينا طرحه بجدّية، وهو : هل الإسلام دين جديد نشأ مع محمّد وكان أوّل من دعا إليه ؟ أم إنّه كان موجوداً قبل محمّد ؟ وبتعبير آخر : هل من خلاف بين تعاليم النصرانيّة التي عاش محمّد في ظلّها وبرعاية قسّ مكّة وبين تعاليم الإسلام في القرآن العربي ؟ هل الإسلام العربي وُجِدَ مِن لا شيء ؟ أم إنه صيغة عربية للنصرانية ؟ القرآن وحدَه يملكُ الجواب، وعلى القرآن معتمدنا، وسوى القرآن مشكوك فيه.

١ً ــ القرآن يشهد على أن الإسلام الحقيقي كان قبل الإسلام العربي، وأن المسلمين العرب كانوا مسلمين قبل محمّد والقرآن : « **وإذ يُتْلَى (القرآن) عليهم قالوا : آمنّا به. إنّه الحقّ من ربّنا. إنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِيْنَ** » (٢٨ / ٥٣). وإنهم كانوا يحملون اسْمَهمْ قَبلَ القرآنِ وفِيهِ : « هو (الله) سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِيْنَ مِنْ قَبْلُ وفي هَذَا (القرآن) » (٢٢ / ٧٨). وإنّهم كانوا على علم ومعرفة بالله الحقيقي وبالدين القويم قبل العلم الذي جاء به القرآن العربي:

« وأوتينا العلم من قبلها وكنّا مسلمين » (٢٧ / ٤٢). وهو فخر للمسلمين العرب أن يقول واحدهم إنّه ينتمي إلى جماعة المسلمين السابقين : « ومن أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنّني من المسلمين » (٤١ / ٣٣)، أو يتّجه الله نحو أتباع محمّد وسامعي بشارته ويقول لهم : « رضيت لكم الإسلام ديناً » (٦ / ١٢٥).

لقد حلا لمحمّد أن يردّ الإسلام إلى إبراهيم الخليل ويربطه بإيمانه الحنيف، لكأنّ الإسلام دين سابق على اليهوديّة والنصرانية معاً؛ في حين أنّنا رأينا تعاليم القرآن العربي تذكّر بتعاليم التوراة والإنجيل وتفصّلها وتأخذ عنها قصص أنبيائها وأخبارهم ... إلاّ إن ارتباط الإسلام بإبراهيم، في نظر محمّد، لم يكن سوى تَخَطٍّ للخلافات العقائدية التي وقعت بين شيع بني إسرائيل وأحزابهم المتعددة التي فرّقت بين الرسل وبين الناس، والتي أغرقت القبائل المكيّة في بحر من الصراعات. من أجل ذلك، طاب لمحمّد أن يثبت ديناً هو أسبق في الزمان من تلك الخلافات الدينيّة الطاحنة، فالحق الإسلام بابراهيم، وجعل إبراهيم مسلماً : « ما كان إبراهيم يهودياً ــ ولا نصرانياً ــ ولكن كان حنيفاً مسلماً » (٣ / ٦٧).

بهذه الطريقة الطريفة ردّ محمّد الإسلام إلى العقيدة الأساسية في كل دين، تسبق كل خلاف وكل تفرقة، وتَحُول دون أي صراع بين الشيع والأحزاب، ألا وهي الإيمان بإله واحد، والقول بالوحدانية المطلقة، والتركيز عليها، والأخذ بها دون سواها. عليها بُني الإسلام، ولم يُبْنَ على غيرها. ولا خطيئة في الإسلام إلاَّ انكارُها، وكل ذنبٍ يُغفَر ما عداها : « إن الله لا يَغفِر أنْ يُشْرَكَ به. ويَغفر ما دون ذلك » (٤ / ٤٨ و١١٦). لهذا، لم يَنِ القرآن من التكرار المُمِلّ : « لا إلهَ إلاّ الله » و « لا إله إلاّ هو » و « ما من إله إلاّ إله واحد » و « ما لكم من إله غيره » ...

بهذا تخطّى محمّد كل الخلافات التي قامت في النصرانية حول المسيح، وفي الثالوث، فامتنع عن البحث في بنوّة المسيح لله، وعن الخوض في سرّ موته، وصلبه، وقيامته، وسرّى الفداء والخلاص ... لئلا يقف ذلك حائلاً دون التوحيد المطلق الذي يتفق على الإقرار جميعُ الملل والنحل، ولئلا يعود الناس إلى التفرقة والصراعات التي كانوا عليها بسبب موقفهم من المسيح ...

٢ً ــ والدليل الثاني على أسبقية الإسلام على الإسلام يأتي من النبي نفسه، الذي أعلن انضمامه إليه، وقد قالها بصراحة ووضوح : « **وَأَنَا مِنَ المُسْلِمِيْنَ** » (١٠ / ٩٠)، و « **إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ** » (٤٦ / ١٥)، في الوقت الذي لم يكن بعد مسلمون من العرب. وهو « أَمْرٌ إلهي أو مِمّنْ هو دون الله، أَنْ يلتحقَ محمّد بالمسلمين وينضمَّ إليهم : « **أُمِرْتُ أَنْ أَكُوْنَ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ** » (٢٧ / ٩١)، و « أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِربِّ الْعَالَمِيْنَ » (٤٠ / ٦٦). ثم اشتدّ الأمر على محمّد فدعا الله، أو من هو دون الله، إلى أن يكون رأسَ المسلمين وإمامهم والمسؤولَ عنهم وسيّدَهم وقائدَهم ووليَّ أمرهم، أو بكلمة « أَوَّلَهم » ، فقال عن نفسه: « أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّل المُسْلِمِيْنَ » (٣٩ / ١٢)، و « **إنّي أُمِرْتَ أَنْ أَكونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ** » (٦ / ١٤)، وأيضاً : « أُمِرْتُ وَأَنا أَوَّلَ الْمُسْلِمِيْنَ » (٦ / ١٦٣).

هذه الأوّليّة ليست، على ما يبدو، أوّليّة زمنية، بقدر هي أولويّة في المقام والمسؤوليّة. ويستبعد جداً أن تكون أوّليّة زمنية بعدما أثبت القرآن نفسه أسبقيّة الإسلام على محمّد وعلى المسلمين العرب، وردّه إلى زمن إبراهيم.

لهذا، ليس للمسلمين اليوم حجّةٌ في أن يضيفوا على الإسلام الحقيقي زمناً سابقاً على الزمن الذي هم عليه مطمئنّون. وليس لهم أن يدّعوا الإسلام كأنّه أعطي لهم دون سواهم. وليس لهم أخيراً أن يكونوا على غير ما كان عليه محمّد.

هذا الإسلام السابق على الإسلام العربي، أيّ دين هو : كل ما نحن في البحث عنه يؤلّف الجواب. ومختصر الجواب : إن الإسلام لا يختلف عن النصرانية بشيء، بل هو النصرانيّة عينها : يعتقد معتقدها، ويُقيم كتبَها، ويدعو دعوتَها، ويتّبع أصولَها، ويؤمن إيمانَها، ويرفع شعارَها، ويسير بموجب شريعتها. واختصار ذلك : « لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل » (١٠ / ٩٠).

والأجدر القول : **إن النصرانيّة والإسلام دين واحد باختلاف الاسم. أو قلْ : إنَّ الإسْلاَمَ هُوَ الاسْمُ الْعَرَبِيَّ لِلنَّصْرَانِيَّةِ. وهذا هو المعنى الحقيقي لدين ابراهيم الحنيف الذي يقوم أولاً وآخراً على رفض الشرك وعلى القول بوحدانيّة الله المطلقة.**

ثالثاً ــ النّصرانيّة والحنيفيّة والإسلام

ما يثبت لنـــا أسبقيّة الإسلام على الإسلام العربي أخذ محمّد بدين إبــراهيم المســمّى بــ« الحنيفيّة ». والنصرانيّة هي الحنيفيّة. والحنيفيّة صفة للنصرانية. وفي القرآن اثنتا عشرة آية يذكر فيها اسم « حنيف » و « حنفاء » . منها ما هو مكّي ومنها ما هو مدني، منها مـــا جاء مع ذكر ابراهيم وملّته ومنها ما جاء في وصف الدين الذي يدعو إليه محمّد، منها ما جاء مطلقاً على كل دين أو مذهب يدعو إلى التوحيد ويرفض الشرك والأصنام ومنهـــا مـــا جـــاء وصفاً للدين القيّم والصراط القويم. إلاّ أن جميعها يحمل معنى التوحيد[٢٩].

نستنتج من هذه الآيات ما يلي :

١ً ــ **إن الدين الحنيف ليس ديناً مستقلاً موجوداً في أيّام محمّد، كمـــا هـــو الـــدين اليهودي والنصراني والمجوسي والصابئة، بل الحنيف هو صفة لدين،** أو صفة لدين ابراهيم. وكل الآيات تحمل لفظة « حنيفاً » كنعت لا اسم.

٢ً ــ **إن الحنيف هو صفة لإبراهيم وملّته وأتباعه الذين لم يشـــركوا بـــالله أحـــداً، والـــذين لم يظهروا بعد أيّ خلاف فيمـــا بينهم،** بل هم على « دين القيّمة » (٩٨ / ٥) أو « الدين القيّم » [٣٠] ، أي هم على التوحيد المطلق لله.

٣ً ــ **إن الحنيف هو صفة لمن ترك الشرك وعبادة الأصنام، وابتعد عن الخلافـــات القائمة في كل دين وفي كل مذهب، واجتنب الرجس وعبادة الأوثان، وامتنع عن قول الزور والبهتان (٢٢ / ٣٠ ــ ٣١).**

---

(٢٩) ٢ / ١٣٥، ٣ / ٦٧ و٩٥، ٤ / ١٢٥، ٦ / ٧٩ و١٦١، ١٠ / ١٠٥، ١٦ / ١٢٠ و١٢٣، ٣٠ / ٣٠، ٢٢ / ٣١، ٩٨ / ٥.

٤ً ــ إن الحنيف هو صفة لمن عبد الله بإخلاص، وأقام الصلاة، وأتى الزكاة (٩٨ / ٢٥)، وأسلم وجهه لله، وعمل الإحسان (٤ / ١٢٥)، واتّخذ الله واحداً لا شريك معه.

٥ً ــ إن الحنيف هو صفة لمن فُطر على الصدق والأمانة، إنه « فطرة الله التي فطر الناس عليها » (٣٠ / ٣٠)، لا يبدّل بها. إنه إيمان بسيط، لا غش فيه ولا مواربة، بل إخلاص وإسلام وطاعة وخضوع (٤ / ١٢٥).

٦ً ــ إن الحنفاء هم الذين اتّبعوا ملّة ابراهيم[٣١] ، وأُمِرَ محمّد أن يكون مثلهم وبينهم[٣٢] ، وقد هداه الله إلى ذلك هدياً صادقاً[٣٣] .

٧ً ــ إن الحنيفيّة هي صفة لملّة ابراهيم كما هي لملّة محمّد : « ملّة أبيكم ابراهيم هو سمّاكم مسلمين من قبل وفي هذا (القرآن) » (٢٢ / ٧٧). وكما أن ابراهيم كان أوّل الحنفاء، هكذا هو محمّد أول المسلمين، بل إن إبراهيم كمحمّد « كان حنيفاً مسلماً » (٣ / ٦٧).

هذا ما في القرآن عن الحنيفيّة. أمّا في كتب السير والأخبار فيدلّ على أنّ **الحنفاء هم جماعة من العرب لم يعبدوا الأصنام، ولم يشركوا بالله، بل سفّهوا عبادة الأصنام والقائلين بها، وكانوا على دين إبراهيم قبل أن يقع خلاف فيما بينهم**[٣٤] .

---

(٣٠) ٩ / ٣٦، ١٢ / ٤٠، ٣٠ / ٣٠ و٤٣.
(٣١) ٤ / ١٢٥، ٣ / ٩٥.
(٣٢) ١٦ / ١٢٣، ٣ / ٦٨.
(٣٣) ٣ / ٩٥، ٦ / ١٦١.
(٣٤) انظر تاريخ الطبري ١ / ٤٠٤، روح المعاني ١ / ٣٥٢، بلوغ الأرب ٢ / ١٩٦، لسان العرب ٩ / ٥٦، ١٠ / ٤٠٢، مجمع البيان للطبرسي ١ / ١٦٧ و٢١٥، الجامع للقرطبي ٣ / ١٢٨، ١٠ / ١٩٨، البيضاوي ١ / ١٥٩، الكامل ١ / ٢٤٤.

وذكرت كتب الحديث انتماء محمّد إلى الدين الحنيف، وإلى اعتباره إيّاه ديناً سمحاً، بخلاف ما هي عليه اليهودية « الظالمة » . من أحاديثه المسنودة : « بعثت بالحنيفيّة السمحة السهلة » [٣٥] ، و « أحب الأديان إلى الله تعالى الحنيفية السمحة » [٣٦] ، ولم أبعث باليهوديّة ــ ولا بالنصرانيّة ــ ولكني بعثت بالحنيفية السمحة » [٣٧] .

يلاحظ إضافة كلمة « نصرانيّة » في الحديث الأخير، بينما هي لا ترد في الحديثين السابقين، ممّا يظنّ زيادتها. ويثبت ذلك اعتبار محمّد والمسلمين التسامح في النصرانيّة من أهمّ صفاتها. وقد يكون هذا الحديث مضافاً فيما بعد في عهد الفتوحات الإسلاميّة عندما أصبح للمسلمين من النصارى عامّة موقف مُعَادٍ. فإذا كانت الحنيفية توصف بالتسامح والنصرانيّة أيضاً، فهذا يدلّ على اعتبارهما ديناً واحد بالنسبة إلى محمّد.

وتضيف كتب الأخبار في صفات الحنفاء بقولها إن الحنيف هو من اختتن وحجّ البيت[٣٨] ، واستقام على ملّة ابراهيم واتّبعه عليها[٣٩] ، واعتزل الأصنام واغتسل من الجنابة[٤٠] ، وامتنع عن أكل ذبائح الأوثان وكل ما أهلّ إلى غير الله وحرّم الخمر[٤١] . قال الطبري : « وكان الناس من مضر يحجون البيت في الجاهلية يُسمون حنفاء » [٤٢] .

---

(٣٥) لسان العرب ٩ / ٥١.
(٣٦) مجمع البيان للطبرسي ١ / ٥١٥، الاصابة ١ / ٥١ رقم ١١٤.
(٣٧) مسند ابن حنبل ٤ / ١١٦، ٦ / ٣٣.
(٣٨) اللسان ١٠ / ٤٠٢، الكشاف للزمخشري ١ / ١٧٨، ٢٣٦، ٤٠٧، مجمع البيان ١ / ٤٦٧، ٣ / ١٠٩، تفسير الرازي ١٣ / ٥٧، ١٤ / ١٠، ١٧ / ٢٧١.
(٣٩) تفسير الطبري ٣ / ١٠٥، ٣٠٦، ٥ / ٢٩٧، الجامع للقرطبي ٢ / ١٢٨.
(٤٠) تاج العروس ٦ / ٧٧ في لفظة « حنف » ، القاموس ٣ / ١٣٠، اللسان ٩ / ٥٦.
(٤١) القرطبي ٤ / ١٠٩، ابن خلدون ٢ / ١ / ٧٠٧، تفسير الرازي ٨ / ١٥٠.
(٤٢) تفسير الطبري على سورة البقرة ٢ / ١٣٥.

وممّا يثبت وحدة الحنيفيّة والنصرانيّة خلط أهل الأخبار فيما بين الحنفاء والرهبان النصارى، فأدخلوا في الحنيفية قسّ بن ساعدة والقس ورقة وعثمان بن الحويرث الملقّب بالبطريق إذ لم يكن له عقب. وقد نصّوا نصّاً صريحاً على أنّ هؤلاء كانوا من العرب المتنصرين كما هم من الحنفاء. وفي حديث النبي عن قسّ ابن ساعدة يقول : « هذا رجل من أياد تحنّف في الجاهلية » (٤٤) ، وفي مروج الذهب للمسعودي ذكر لحنظلة بن صفوان وخالد بن سنان العبسي ورئاب الشفي وأسعد أبي كرب الحميري وقس بن ساعدة وأميّة بن أبي الصلت الثقفي وورقة بن نوفل وعداس وأبي قبيس وصرمة أبي أنس الأنصاري وأبي عامر الأوسي وعبد الله بن جحش وبحيرا الراهب ... على أنهم من الحنفاء كما من النصرانية(٤٥).

*****

ينتج من هذا **أن الحنيفيّة لفظة سمحة تطلق على النصرانية كما على الإسلام، وتعني النصرانية كما تعني الإسلام**، وتوصف بها النصرانية كما يوصف بها الإسلام سواء بسواء. **فإبراهيم كان « حنيفاً مسلماً » ، و « من أسلم لله كان حنيفاً » (٤ / ١٢٥) ومن هداه الله إلى الصراط المستقيم جعله حنيفاً (٦ / ١٦١) ومن أقام الصلاة وأتى الزكاة كان حنيفاً (٩٨ / ٢٥)... فالحنيف إذن هو المسلم كما هو النصراني. والنصرانية والحنيفية والإسلام ثلاثة أسماء لمسمّى واحد.**

---

(٤٤) طبقات ابن سعد ١ / ٢، ٥٥.
(٤٥) المسعودي، مروج الذهب ١ / ٧٨ وما بعدها.

رابعاً ــ « الدين القيّم »

باعتمادنا على القرآن وكتب السير والأخبار يمكننا استجلاء مواقف محمّد من أهل الكتاب، أي من اليهود والمسيحيين والنصارى. وإذا ما استقصينا كلام القرآن على كل فئة منهم نستطيع أن نميّز فيما بينهم، ونعرف من استجاب الدعوة الجديدة منهم ومن تنكّر لها، ومن اتّبعها من العرب. فالمعنيّون في القرآن إذن هم على أربعة أنواع : اليهود، والمسيحيين، والنصارى، والمتّقين من العرب. عندما نتعرّف على معتقدهم وموقفهم من الإسلام نعرف عندئذ هويّة الدين القيّم الذي بشّر به محمّد.

١ ــ اليهود :

هم الذين يتّبعون ما أنزل على آبائهم، لا يقرّون بتنزيل سواه. دعاهم محمّد إلى أن يؤمنوا بما أنزل عليه فكانوا يرفضون : « إذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله، قالوا نؤمن بما أنزل علينا. ويكفرون بما وراءه » (٢ / ٩١). و « إذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا » (٢ / ١٧٠). « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » (٥ / ١٠٤). و « إذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا » (٣١ / ٢١).

هؤلاء اليهود، فيما هم عليه من رفض وإنكار، يصفهم محمّد بـ« الظالمين » [٤٦]، و « شرّ البريّة » (٩٨ / ٦) و « أوّل كافر به » (٢ / ٤١). هم « سمّاعون للكذب »

(٤٦) ٢ / ١٢٤ و١٩٣ و٢٥٨، ٣ / ٥٧، ٦ / ٦٨، وحوالي ٩٠ مرّة ...

(٥ / ٤١) « يحرّفون الكلم عن مواضعه » (٤ / ٤٦). ثم يلومهم بكونهم لم يكتفوا بما أنزل عليه : « أولم يكفهم إنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » (٢٩ / ٥١) وفيه ذكر لما بين أيديهم! « لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكر لكم. أفلا تعقلون » (٢١ / ١٠). لهذا فهم موصوفون بالكفر الصريح، فـ« هم الذين كفروا من أهل الكتاب » (٤٧)، وكفروا بالآيات(٤٨)، وودّوا تضليل الناس : « ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم » (٢ / ١٠٩)، و « ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلّونكم » (٣ / ٦٩). يلبسون الحق بالباطل (٣ / ٧١) ويصدّون عن سبيل الله (٣ / ٩٩).

من مآخذ القرآن العربي عليهم إنهم لم يأخذوا بالكتاب كله، بالتوراة والإنجيل، بل أخذوا منه بنصيب : « ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة » (٤ / ٤٤)، أو « ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولّى فريق منهم وهم معرضون » (٣ / ٢٣).

إلاّ إنّ « اتّصال الرسول باليهود اتصالاً مباشراً إنما كان في يثرب. أمّا في مكة فلم يكن لليهود فيها شأن يذكر. لذلك لا نجد في الآيات المكيّة ما نجده في الآيات المدنية، ولا سيّما المتأخر منها، من تقريع لليهود وتوبيخ لهم، لوقوفهم موقفاً معادياً من الإسلام، واتّفاقهم مع المشركين في معارضة الرسول ومقاومته ... ويظهر أنه لم يكن لليهود نفوذ كبير ولا جاليات كبيرة في مكة. فلو كان لهم نفوذ فيها أو رأي مسموع لسمعنا به كما سمعنا بخبرهم في يثرب، ولكان لهم حيّ خاص بهم، ومكانة بين رجال قريش، كالذي كان عليه يهود يثرب... ولأشير إليهم في السور المكيّة على نحو ما أشير إليهم في السور المدنية. ثم لما اضطرّ رجال قريش للذهاب إلى يثرب مراراً لاستشارتهم في أمر سلوكهم مع المسلمين، ولما جاء سادات يهود يثرب إلى مكّة لتحريض أهلها

(٤٧) ٢ / ١٠٥، ٥٩ / ٢، ٩٨ / ١ و٦.
(٤٨) ٣ / ٧٠ و٩٨.

على مقاومة الرسول، ولعقد حلف معهم عليه » [٤٩].

وما يثبت عدم فعاليتهم في مكة أن سور القرآن المكيّة لا تذكر عنهم شيئاً، ولا يرد فيها اسمهم، ولم يتعرّض إليهم الرسول ولم يخاصمهم، كما أصبح الأمر في المدينة. ومن جراء العداوة المستحكمة بين محمّد واليهود في المدينة، راحت كتب السير والأخبار والتاريخ والتفسير والأدب والحديث تؤلّف قصص الصراع وتذكر العداوات الكثيرة التي حدثت بين العرب واليهود. وأصبح الكهّان الوثنيون ورهبان النصارى وعرّافو العرب ينذرون النبي من خطر اليهود، ويحذّرونه منهم، ويلفّقون الأخبار حول مناصبتهم له العداء. الاّ إنّ كل ذلك جاء بتأثير مواقف لاحقة من زمن المدينة، في حين أن واقع مكّة لم يكن هكذا. وهو أمر هامّ جدًا في فهم تاريخ القرآن والرسالة المحمّدية.

٢ ـ المسيحيّون :

هؤلاء لم يتعرّف عليهم محمّد تمام المعرفة، ولم يقف على كتابهم الرسمي. ولم يطّلع على حقيقة عقيدتهم. هم يؤمنون بالإنجيل بحسب رواياته الأربعة، ويعتقدون بألوهيّة المسيح وبنوّته الطبيعية لله. يختلفون فيما بينهم، فتفرّقوا إلى فرق، وعرف العرب منها ثلاثاً : اليعقوبيّة والنسطوريّة والملكانيّة. ولكنّها كلّها تعترف بألوهيّة المسيح وبحقيقة صلبه وبسرّي القيامة والفداء.

إن عقيدتهم في المسيح والثالوث جعلتهم، في نظر محمّد، مغالين في الدين، ومتخاصمين مع سائر أهل الكتاب من يهود ونصارى. فهم يختلفون عن اليهود الذين لا يعترفون بمجيء المسيح، ويختلفون عن النصارى الذين لا يعترفون بألوهيّته. ولذلك سمّاهم القرآن بالذين « غلوا في الدين » ، وهو لذلك ينصحهم بقوله لهم : « يا أهل الكتاب، لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله

الاّ الحق : إنّما المسيح عيسى بن مريم رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه. فآمنوا بالله ورسله. ولا تقولوا : ثلاثة. انتهوا خيراً لكم. إنّما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد. له ما في السماوات وما في الأرض. وكفى بالله وكيلاً. لن يستنكف المسيح أن يكــون عبــد الله... » (٤ / ١٧١ ــ ١٧٢). وأيضاً: « يا أهل الكتاب، لا تغلو في دينكم غير الحق... » (٥ / ٧٧).

وينتقل القرآن من النصيحة إلى التكفير، ويكرّر التكفير بقوله عنهم : « **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم. وقال المسيح : يا بني إسرائيل : اعبدوا الله ربّي وربّكم. إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنّة. ومأواه النار. لقد كذب الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة**. وما من إله إلا إله واحد ... ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرســل. وأمّه صدّيقة كانا يأكلان الطعام » (٥ / ٧٢).

هؤلاء المسيحيون الذين تعرّف عليهم محمّد وكفّرهم واعتبرهم مشركين، هم وفــد من أهل نجران جاء مكّة ليقدّم للرسول الولاء السياسي، ويقدّم هو لهم الأمــان بالمقابــل؛ وبالمناسبة جادلهم في أمر ألوهيّة عيسى وبنوّته لله. ونجد هذا الجدال في القرآن المــدني وفي عام الوفود أي ما قبل السنة الأخيرة من الدعوة. وقد وزّع على ثلاث سور : سورة آل عمران ٣ / ٣٣ ــ ٦٤، وسورة النساء ٤ / ١٧٠ ــ ١٧٢، وسورة المائــدة ٥ / ٧٥ ــ ٨٠ و١١٢ ــ ١٢٢، فيما هو، في الأصل، حديث واحد جرى بين محمّــد ووفــد نجــران المسيحي(٥٠) وفي سورة التوبة حيث نجد أيضاً نفس الموقف من المسيحيين تظهــر العــداوة مستحكمة ومشرّعًا لها. ولنا عودة إليها.

(٤٩) جواد علي في « المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام » ٦ / ٥٤٣.

(٥٠) الكلام على مسيحية وفد نجران مختلف فيه : هو على المذهب اليعقوبي، أم على المذهب النسطوري ؟ « تور أندره » يقول إنها كانت قبل الإسلام على اليعقوبيّة، ولمّا سيطر الفرس أصبحت على النسطورية.

٣ ــ النصارى :

هؤلاء يختلفون عن اليهود وعن المسيحيين على السواء. فهم لا ينكرون نبوّة عيسى كاليهود، ولا يقولون بألوهيّته كالمسيحيين. إنهم « أمّة وسط » (٢ / ١٤٣) **بين الفريقين، « أمّة مقتصدة »** (٥ / ٦٦) **في عقيدتها. يقيمون « الكتاب كلّه »** (٣ / ١٩٩) **أي التوراة والإنجيل معاً.** يؤمنون بموسى وعيسى سواء. هم « من قوم موسى أمّة يهدون بالحق وبه يعدلون » (٧ / ١٥٩، ١٨١). هم « طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل » (٣ / ٧٢)، ويتلون الآيات على حقيقتها : « من أهل الكتاب أمّة قائمة يتلون آيات الله » (٣ / ١١٣)، ويؤمنون بالله إيماناً صادقاً : « إِنَّ مِنْ أهل الكتاب لَمَنْ يُؤمنُ بالله وما أُنزِلَ إليكم وما أُنزِلَ إليهم خاشعين » (٣ / ١٩٩)، ويؤتمنون على الكثير الكثير : « ومن أهلِ الكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ » (٣ / ٧٥).

يصفهم القرآن بالعلم والمعرفة. فهم « الراسخون في العلم يقولون : آمنا به (بالقرآن) كلّ من عند ربّنا » (٣ / ٧). وهم « أولو العلم قائماً بالقسط » (٣ / ١٨)، و « الذين أوتوا العلم »[٥١] ، أو « الذين أوتوا العلم من قبله (قبل القرآن)، إذا يتلى عليهم يخرّون للأذقان سجّداً » (١٧ / ١٠٧). وهم يعلمون أن القرآن حقّ فيؤمنون به : « الذين أوتوا العلم (يعلمون) انه (القرآن) الحق من ربّك، فيؤمنوا به » (٢٢ / ٥٤) « ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربّك هو الحقّ » (٣٤ / ٦). والقرآن، في نظرهم، هو « آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم » (٢٩ / ٤٩)، ويفرحون به « بما عندهم من العلم » (٤٠ / ٨٣) ... لذلك يرفعهم الله درجة فوق درجة : « يرفع الله الذين آمنوا منكم (من العرب) والذين أوتوا العلم (النصارى) درجات » (٥٨ / ١١).

---

(٥١) انظر القرآن ١٦ / ٢٧، ٢٨ / ٨٠، ٣٠ / ٥٦، ٤٧ / ١٦ وغيرها.

هؤلاء النصارى يستشهدهم محمّد على صحّة رسالته وحقيقة كتابه. فهم، مع الله والملائكة، يشهدون على التوحيد ونبذ الشرك : « شهد الله أنّه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط » (٣ / ١٨٩)، ويشهدون على القرآن بما عندهم من مثله : « شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيْلَ عَلَى مِثْلِهِ (على مثل القرآن العربي) فَآَمَنَ (به) » (٤٦ / ١٠). وتكفي محمّداً شَهَادتُهم : « قلْ كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » (١٣ / ٤٣). ويوم يرتاب محمّد من صحّة ما أنزل عليه يسألهم لتثبت لديه الحجّة : « إنْ كنت في شك ممّا أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك » (١٠ / ٩٤). ويوم يرتاب أتباع محمّد من صوابية رسالته يأمرهم بقوله : « اسألوا أهل الذكر إنْ كنتم لا تعلمون » (١٦ / ٤٣، ٢١ / ٧). وعندما تصعب الحجّة على النبي يذهب إليهم ليحتكم عندهم : « وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجيل بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فيهِ (أي في القرآن) » (٥ / ٤٧).

والنصارى، بدورهم، عندما يشتدّ الخلاف فيما بينهم، وتتصارعْ « أحزابُهم، يلجأون إلى محمّد ليحكمَ بينهم، ويفضّ مشاكلهم، ويحلّ عقدهم » . لذلك، فهو يعجب من هذا الدور الذي كُلِّفَ بِهِ، فيما التوراة فيها الحكم الصحيح : « كيف يحكّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله! » (٥ / ٤٣). ومع هذا، وبكونه، المسؤول الأوّل، يُتِمّ دورَه فَيَحْكُمُ : « إِليَّ مَرجَعُكُم. فَأَحْكُمْ بَيَنَكُم فِيمَا كُنتم فيه تَختلفون » (٣ / ٥٥). وبالفعل، تدخّل النبي في شؤون بني إسرائيل قصد الحدّ من الصراع الدائر بين أحزابهم[٥٢] وشيعهم[٥٣] وفرقهم[٥٤] ، وراح يبيّن بعض ما فيه يختلفون : « قد جئتُكم بالحكمةَ ولأبيّنَ لَكم بعضَ الذي تَختلفون فيه » (٤٣ / ٦٣)، وأيضاً : « ما أنزلنا عليك الكتاب (القرآن) الاّ لتبيّن لهم الذي اختلفوا فيه » (١٦ / ٦٤).

---

(٥٢) ١١ / ١٧، ١٣ / ٣٦، ١٩ / ٣٧، ٤٣ / ٦٥، ٣٣ / ٢٠، ٣٣ / ٢٢ ...
(٥٣) ٦ / ١٥٩، ٣٠ / ٣٢، وغيرها.
(٥٤) ٢ / ١٠١، ٣ / ٢٣، ٢٤ / ٤٨، ٣٠ / ٣٣، وبالجملة ٢٩ مرّة.

٤ ـــ المسلمون :

كانت الدعوة إلى محمّد أن يوحّد بين أحزاب النصارى، فأمرهم بقوله « أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه » (٤٣ / ١٣)، و « اعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تَفَرَّقُوا » (٣ / ١٠٣). وكان هَاجِسُهُ أَلاَّ يُقَالَ عنه أَنَّه فرّق بينهم : « إنّي خشيت أن تقول فرّقت بين بني إسرائيل » (٢٠ / ٩٤)، وقال له الله : « إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لستَ منهم في شيء » (١٦ / ١٥٩). واستجاب النبي دعوة الله هـذه حين قال : « لا نفرّق بين أحد مـنهم. ونحـن لـه مسلمون » (٢ / ١٣٦)، وأعاد قوله : « لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسـلمون. ومـن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » (٣ / ٨٣ ـــ ٨٤)، وكرّره : « لا نفرّق بين أحد من رسله » (٢ / ٢٨٥). ووصف أتباعه « الذين آمنوا بالله ورسله لم يفرّقوا بين أحد مـنهم » (٤ / ١٥٢)، وينصحهم قائلاً: « لا تكونوا من المشركين من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً » (٣٠ / ٣٢)، وأيضاً « لا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا » (٣ / ١٠٥).

فالمسلمون إذن هم النصارى الَّذِيْنَ تَوَحَّدُوا. وفي الواقع، توحّدوا في كل شيء : في الاسم وفي الكتاب وفي العقيدة، حتى أصبحوا « أمّة واحـدة » (٢٣ / ٥١)، وأصبح اسمهم « مسلمين » ، وكتابهم « القرآن » ، ودعوتهم « الإسلام » ، وعقيدتهم « لا إلـه إلاّ الله » . لأجل هذا طلب الحواريّون شهادة عيسى على أنّهم مسلمون : « قال الحواريّون : نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ، آَمَنَّا بِاللهِ. وأَشْهَدْ (يا عيسى) بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » (٣ / ٥٢).

يبدو إذن، وبهذا الوضوح التام، إن المسلمين هم النصارى الذين توحّدوا فـي « أمّـة واحدة » ، « أمّة مقتصدة » ، « أمّة وسط » ، بعد تفرّقهم وتحزّبهم. ويبدو أيضاً، بالوضوح نفسه : إن الإسلام هو الاسْمُ الْعَرَبيّ لِلنَّصْرَانِيَّةِ، أي للطائفة التي آمنت من بني إسرائيل وأيّدها النبي في إيمانها على التي كفرت (٦١ / ٤١) ...

ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون » (٣٠ / ٣٠). ونخشى أن نكون من الذين لا يعلمون. يخرج من هذا الدين اليهود الظالمون الذين يُلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَيَكْتُمُونَ الحَقّ (٣ / ٧١)، ويخرج منه أيضاً المسيحيّون المتطرّفون الذين يغلون في الحق (٤ / ١٧١)، ويخرج منه الأعراب المنافقون الذين تخلّفوا عن الرسول وشغلتهم أموالهم[٥٥] ، وهمْ أشدّ كفراً ونفاقاً » (١ / ٩٧) ... ويبقى طائفة من أهل الكتاب ومن بغي إسرائيل، آمنت بالله، وبالكتب كلها. وهم على « دين القيّمة » (٩٨ / ٥)، وعلى الصراط المستقيم[٥٦] « يعبدون الله مخلصين له الدين، حنفاء، يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة » (٩٨ / ٥). « ذلك الدين القيّم » (٩ / ٣٦)، وهو « أمر ألاّ تعبدوا الاّ إيّاه ذلك الدين القيّم » (١٢ / ٤٠). ومن لم يأتمر فهو من الخاسرين : « أقمْ وجهك للدين القيّم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله » (٣٠ / ٤٣).

*****

النصرانيّة والإسلام دين على دين : من يجمع بينهما هو على ضلال، ومن يعتبرهما اثنين هو أيضاً على ضلال، ومن يحاول الوفاق بينهما هو على ضلال، ومن يباعد بينهما هو على ضلال، ومن يعتبر القرآن كتاب المسلمين وحدهم على ضلال، ومن يقول إن القرآن وحده هو كتاب المسلمين هو على ضلال : التوراة والإنجيل والقرآن ثلاثتهم من حق المسلمين: « لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم » (٥ / ٦٨). فالنصرانيّة والإسلام اسمان لمسمّى واحد : الأوّل نشأ في اليهوديّة، والثاني في مكّة والحجاز. وكلاهما واحد.

---

(٥٥) القرآن ٩ / ١٠١، ٩ / ١٢٠، ٤٨ / ١١، ٤٨ / ١٦، ٣٣ / ٢٠ ...
(٥٦) يرد هذا التعبير في القرآن أكثر من خمس وثلاثين مرّة.

الفصل الخامس

حقّ القسّ على النبيّ ــ التشابه ــ

أولاً ــ في المسيح وأمّه والرّوح القدس

ثانياً ــ في الفروض والعبادات وشعائر الدّين

ثالثاً ــ في الحسنات والصّدقات

رابعاً ــ في الجنّة والنّار وأحوال المعاد

خامساً ــ في أمثال الإنجيل القرآنيّة

مقدِّمَة

ترى، في مواضيع كثيرة، أوجه شبه بين القرآن وما سبقه من كتب : كالتوراة والإنجيل، الرسمي منها والمنحول؛ ومن تقليد شفهي تناقلته ألسنة الناس، وهي تفصّل أخبار الأقدمين وتيسّرها؛ ومن تراث نسجت مخيّلة الشعوب حوله قصصاً وأساطير، نمت وانتشرت سريعة دون رقيب من منطق أو من ضمير. وكان لهذه المخيّلة الدور الكبير في طقوس الأديان عامّة وفي معتقدات المتديّنين.

وفي القرآن مثل هذا الشيء كثير؛ ففي جميع المواضيع التي طرحها، تقارب قد يكون تامّاً بينه وبين تراث اليهود والنصارى وأخبار العجم والعرب في المواضيع اللاهوتيّة كما في المواضيع التشريعية والفقهية، ترى لها مصادر تظنّ القرآن اعتمد عليها ونقل عنها وأخذ منها ونسج حولها وعلى منوالها جميع تعاليمه وأخباره وأمثاله... كأنّه قصد نقلها إلى جماعته بلسان عربي يعقلونه.

فنظرة القرآن إلى الله وكمالاته، وقصّة الخلق منذ البدء حتى منتهاه، ووصف عدن حيث آدم وحواء وذرّيتهما، وخلق الملائكة، الأخيار منهم والأشرار، مروراً بأنبياء العهد القديم من نوح والطوفان، إلى إبراهيم الخليل وولديه إسحق واسمعيل، إلى يوسف الصديق في مصر ومع إخوته، إلى موسى كليم الله منزّل التوراة وصانع المعجزات، إلى داود صاحب المزامير وسليمان الحكيم، إلى أيّوب ... ثمّ إلى أخبار عاد وثمود وبلاد سبأ ... إلى يحيى بن زكريا وولادته من عاقر، إلى مولد مريم امّ عيسى والبشارة بعيسى وإنجيله وحوارييه وتعاليمه... كلها ترى لها مصادر ومراجع في كتب اليهود والنصارى، وفي تقاليد الفرس وتراث العرب.

وقصّة مصادر القرآن تطول، والبحث فيها يقتضي دراسة القرآن دراسةً علميّةً تاريخيّة تتطلّب معرفة أحوال المجتمع الذي نشأ فيه والذي توجّه الكلام إليه، مع جميع المعطيات الدينية والاجتماعية والسياسية والخلقية والاقتصادية وغيرها...

وتتعدّد المصادر بتعدد المواضيع التي ألمّ بها. وفي مجمله شبه وتقارب، بل صلة بين القرآن وأسفار العهد القديم، ومعظم الأناجيل النصرانيّة ومصنّفات الآباء الأوّلين، والتلمود اليهودي، والروايات النصرانية حول عيسى وإنجيله، والأساطير الملفّقة كقصّة بعض العرب البائدة، وقصّة أبناء الكهف، وسواها ... لكأنّك تظنّ، والحالة هذه، بأن القرآن أخذ عنها جميعها، واطّلع على رواياتها، أو قصد الجمع بينها خشية أن يفرّق بين بني إسرائيل...

هذا القصد العظيم هو الذي دعاني إلى هذا البحث. فتوصلت إلى أن أقول بأن الإسلام هو دين التوحيد بين الفرق على أساس توحيد الله، وأن القرآن هو كتاب يجمع بين الكتب لبلوغ التوحيد. وبذلك امتنعت عن القول برأيين : رأي الذين يقولون بأن الإسلام شيعة من شيع النصارى، ورأي الذين يربطون القرآن والإسلام مباشرة بالله وبسدرة المنتهى واللوح المحفوظ. ورحت أبحث في هذا القصد العظيم وفي من هو وراءه، فرأيت القسّ ورقة وراء النبي محمّد، والإنجيل العبراني وراء القرآن العربي، والنصرانيّة وراء الإسلام. وهو حقّ القسّ على النبي في جميع ما تعلّم النبي وفي كل ما بلّغ وأنذر وبشّر...

هذا هو الجديد في ما توصّلت إليه، وهذا هو حق القسّ الذي يُسلب منه على أهون سبيل. وسوى ذلك إمعان في التضليل والجهل، ومدعاة للفشل الذريع. وسيظهر هذا الجديد في جميع المواضيع التي بحثها القرآن أو ألمّ بها... إلاّ أنّني اقتصر على الشائك منها، أي المواضيع التي يأخذ بها القرآن العربي وفيها خلاف بينه وبين اليهود من جهة، وبينه وبين المسيحيّين من جهة ثانية. ويبقى أن يكون على وفاق مع النصارى يكاد يكون تامّاً.

بهذا تتجلّى الحقيقة في أبهى حللها، ويتجلّى القرآن في أكمل هويّته... وفي الفصل بين الحق والباطل يعود الحق إلى صاحبه.

أولاً ــ في المسيح وأمّه والرّوح القدس

موضوع المسيح وأمّه من أهمّ المواضيع التي يختلف فيها الإسلام عن اليهودية التي تُنكر نبوّة عيسى، وعن المسيحية التي تؤمن بألوهيّته وبنوّته لله. بينما يتفق اتّفاقاً تامًا مع النصرانيّة المقتصدة في عقيدتها. وبالنسبة إلى هذا الموضوع نُودِي بالإسلام كدين سماوي ثالث مع اليهودية والمسيحية. فيما الحقيقة جهل مطبق يتخبّط العالم في ظلمته إلى اليوم. وردّ تعاليم القرآن إلى مصادرها خير دليل، وخير الأدلّة النظر الحسّي. فهاكه :

١ ــ المسيح عيسى :

المسيح في القرآن هو « عيسى ابن مريم » [١] ، و « بشر سويّ » (٤ / ١٧٢)، وُلد كسائر الناس، إذ خلقه الله، كما خلق آدم من تراب (٣ / ٥٩)، ولكن بطريقة معجزة[٢]... وهو كذلك في عقيدة الأبيونيين : إنه يسوع ابن مريم[٣] ، و « بشر بين البشر » [٤] ، ولد كسائر الناس[٥] ، وخلق كآدم من تراب[٦] ولكن بطريقة معجزة[٧] .

ومع كون مسيح القرآن بشراً فــ« هو نبي ورسول خلت من قبله الرسل » (٥ / ٧٥). بل هو أسمى من الأنبياء لأنّه « مؤيّد من الروح القدس » [٨] ، وهو كلمة الله[٩] ،

---

(١) ٢ / ٨٧، ٣ / ٤٥، ٤ / ١٥٧، ٥ / ٤٦، ١٩ / ٣٤ ...
(٢) ٣ / ٤٥، ٢١ / ٩١، ١٩ / ١٧.
(٣) انظر أعمال يوحنّا أو إنجيل بطرس.
(٤) يوستينيانوس، حوار مع تريفون ٢٨ / ٩.
(٥) أوريجين، ضد سلس ٥ / ٦١.
(٦) ايرينى، ضد الهرطقات ٣ / ٢٦.
(٧) أوريجين، ضد سلس ٥ / ٦٥.
(٨) قرآن ٢ / ٨٧ و٢٥٣، ٥ / ١١٠.
(٩) قرآن ٤ / ١٧١، ٣ / ٤٥.

و « روح منه » (٤ / ١٧١)، أتاه الله بالبينات[١٠] ويصنع العجائب : فتكلم وهو بعد في المهد[١١]، وخلق من الطين طيراً[١٢]، وشفى الأكمه والأبرص، وأخرج الموتى من القبور[١٣]... **والأبيونيون يقولون في ذلك إن المسيح « نبي أسمى من الأنبياء جميعاً، لأن فيه روحاً ملائكياً »** [١٤]. **لم يكن في البداية مسيحاً بل « صار مسيحاً على الاصطفاء »** [١٥]، واستحق ذلك لأنه أكمل الناموس، و « لا أحد سواه أكمل الناموس، ولو كان سواه صنع بما كتب في الناموس لكان هو المسيح » [١٦] . لهذا **ينكر الأبيونيون أزليّة المسيح وألوهيّته فهو لم يولد من الله**[١٧] ، **وينسبون إليه معجزات : بعضها نراه في الأناجيل الرسمية، مثل شفاء الأبرص والأعمى وإقامة الموتى، وبعضها، كخلقه من الطين طيراً**[١٨]، **لا أثر له إلاّ في كتبهم الخاصّة.**

وفي القرآن أيضاً إنكار تامّ لإلوهيّة المسيح وبنوّته لله[١٩] ، لأن الله لم يلد ولم يولد (١١٢ / ٣)، بل يقول بأن المسيح هو « عبد الله » وبين الملائكة المقرّبين : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبين » (٤ / ١٧٠) وهو من المقرّبين (٣ / ٤٥)، ويستطيع الله أن يهلكه (٥ / ١٧) ... وهو رأى صريح للأبيونيين كما ورد في كتاب أبيفان : « إن المسيح ليس مولوداً من الله الأب، بل مخلوقاً، وهو أحد رؤساء الملائكة، المالك على الملائكة وعلى كل أعمال القدير »[٢٠]. وفيه أيضاً: « ليس المسيح، بنظرهم، سوى ملاك»[٢١] أو « أوّل رؤساء الملائكة » [٢٢] . ويشبه ذلك قول راعي هرمس : « إن الله لمّا أراد أن يخلق الملائكة المقرّبين من نار على عدد سبعة قضى أن يجعل أحدهم ابنه » [٢٣].

---

(١٠) ٢ / ٨٧ و٢٥٣، ١٧ / ١٠١.
(١١) ١٩ / ٢٩، ٥ / ١١٠.
(١٢) ٣ / ٤٩، ٥ / ١١٠.
(١٣) ٥ / ١١٠، ٩ / ٤٩.
(١٤) ترتليانوس في جسد المسيح ١٤ / ٥.
(١٥) يوستين، حوار مع تريفون ٢٩ / ١.
(١٦) هيبوليت الروماني مختارات ٧ / ٣٤.
(١٧) أوريجين ٥ / ٦٥، أبيفان ٣٠ / ٦.
(١٨) معجزات يسوع (حبشي) ١٢ / ٦٢٦.
(١٩) ٥ / ١٧، ٩ / ٣١، ١٠ / ٦٨ ...

يعتقد الأبيونيون بأن « المسيح نزل على يسوع يوم عماده في الأردن، وفارقه قبل استشهاده[٢٤] ، ويقولون في ذلك : « إن يسوع هو الذي صلب عندما ارتفع المسيح عنه قبل استشهاده، والمسيح فارق يسوع ابن مريم قبل موته على الصليب » [٢٥] . إلاّ إنّ بعضهم يقول بـ« أن المسيح يتحوّل برضاه من صورة إلى صورة : فقد ألقى في صلبه شبهة على سمعان، وصلب سمعان بدلاً عنه، فيما هو ارتفع حياً إلى الذي أرسله، ماكراً بجميع الذين مكروا، للقبض عليه، لأنه كان غير منظور للجميع » [٢٦] . وإذا كان موت المسيح، برأيهم، استشهاداً، وقيامته رفعاً إلى السماء، فإنّه « ليس له صفة الفادي والمخلّص » [٢٧] .

هذه العقيدة واضحة في القرآن : إن المسيح لم يقتل ولم يصلب، بل وقع الشبه على الذين قالوا بذلك : « **وقولهم (اليهود) إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم. ما قتلوه وما صلبوه، ولكن شبّه لهم** » (٤ / ١٥٦)، ومكر الله بهم وهو خير الماكرين[٢٨] . وينكر القرآن أن يكون المسيح قام بذاته من الموت وبقوّته، كما يقول مسيحيّو انطاكيا وروما، في حين أنه يقول بأن الله رفعه إليه[٢٩] ، ونتيجة ذلك لا يكون له أيّ دور في خلاص الإنسان وافتدائه، وليس على الإنسان أن يشفع به. « ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون » (١٩ / ٣٤).

*****

قد يكون المسلمون أتباع محمّد هم الابيونيّون حقاً خلفاء النصارى في أرض مكّة والحجاز، لأن إيمانهم بالمسيح واحد، وهو يختلف عمّا يقوله اليهود وعمّا يعتقد به المسيحيون على السواء. هم بالفعل « أمّة مقتصدة » في نظرتها إلى ابن مريم.

---

(٢٠) أبيفان، الشامل ... ٣٠ / ٦ و٤.
(٢١) و (٢٢) المرجع نفسه.
(٢٣) راعي هرماس ٩ / ١٢ : ٧.
(٢٤) ايريني، ضد الهرطقات ٣ / ٣ : ٤.
(٢٥) أعمال يوحنا ٩٩، إنجيل بطرس.
(٢٦) ايريني ١، ٢٤ / ٤، أبيفان ١ و٢.
(٢٧) ايريني ٣ / ٣٣، ٥ / ٨.
(٢٨) ٣ / ٥٤، ١٣ / ٤٢، ١٦ / ٢٦ ...
(٢٩) ٤ / ١٥٨، ٣ / ٥٥.

٢ ــ في مريم أمّ عيسى :

نظرة القرآن والنصارى واحدة إلى مريم أمّ عيسى. وبسببها يفترقان عن اليهود الذين يتّهمهم بالكفر وقول الزور : « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيمـاً » (٢ / ١٥٦). تحتلّ مريم في القرآن مقاماً رفيعاً. وهو الاسم النسائي الوحيد الوارد ذكـره فـي صـفحاته. وعادة ما يُسمّي عيسى ابن مريم بخلاف التسميات الساميّة التي تنسب الابن إلى أبيه، مما يدلّ على ولادته المعجزة. يرد اسم مريم ٣٤ مرة في القرآن. وهي وابنها آية من آيات الله (٢٣ / ٥٠).

يعترف القرآن والنصارى بكثرة الانعامات التي خصّ الله بها أجداد مريم، وبسـببها كان لهم ذلك. ويقدّم كلاهما إثباتاً لائقاً بشرف انتسابها إلى سلالة الأنبياء : من آدم إلى نوح وذريّة ابراهيم وآل عمران :

القرآن	المصادر النصرانية
« إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين : ذريّة بعضها من بعض... إذ قالت امرأة عمران : رب إني نذرت لك ما في بطني » (٣ / ٣٣ ...).	« نقرأ في تواريخ أسباط إسرائيل الاثني عشر... وذلك ليتبين لنا شرف انتساب المسيح وأمه مريم إلى ذرية يعقوب... » (انظر مقدمة إنجيل يعقوب ١ / ١).

أما عن ولادة مريم العجائبية ففي القرآن والكتب النصرانية الشيء الكثير منها، وهي تتفق اتفاقاً بيناً فيما بينهما، في حين أن المصادر المسيحية في الأناجيل الرسمية لا يوجد منها شيء ذو أهمية :

قالت امرأة عمران : « ربّ، نذرت لك ما في بطني محرراً. فتقبّل مني » (٣ / ٣٥).	قال ملاك الرب : « حنّة، حنة، لقد استجاب الرب صلاتك. إنك ستحبلين وتلدين وسيتحدث عن ذريتك في الأرض كلها » . قالت حنّة « حي الرب. إن وضعت للعالم ولداً صبيًا كان أم ابنة، سأقدّمه للرب

لما وضعتها قالت : « رب وضعتها أنثى. والله أعلم بما وضعت. وليس الذكر كالأنثى. وإني سمّيتها: مريم. وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبّلها ربها بقبول حسن. وأنبتها نباتاً حسناً » (٣ / ٣٦ ـ ٣٧).

الإله. وسيكون في خدمته طول أيام حياته » .

(وبعدما ولدت) قالت للقابلة : ماذا وضعت للعالم ؟ أجابت القابلة : ابنة. وأعطت حنـّة لابنتها اسم « مريم »؟

(وصلّى بواكيم قائلا :) « أيها الرب، انظر إلى ابنتك هذه، وتقبّلها، وحل عليها بركتك » (إنجيل يعقوب ٤ و٥ و٦)

« وكانت الصبية تنمو يوماً بعد يوم » [٦]

ويتبع القرآن والنصارى مريم إلى حين دخولها إلى الهيكل حيث اتخذت لها فيه مكاناً بعيداً عن الناظرين، وتكفلها زكريا رئيس الكهنة آنذاك، ورزقها الله من عنده رزقها، وتختلي على نفسها، إلى أن حان وقت زواجها :

« واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً. فاتخذت من دونهم حجاباً » (١٩ / ١٦ ـ ١٧).

و « كفلها زكريا. كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً. قال: يا مريم: أنّى لك هذا ؟ قالت: هو من عند الله. إن الله يرزق من يشاء » (٣ / ٣٧). « وما كنت (يا محمد) لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم » (٣ / ٤٤).

يواكيم يقود ابنته مريم إلى الهيكل. وكان لها من العمر ثلاث سنوات.

رئيس الكهنة، زكريا، كلف، بواسطة ملاك، أن يجد لمريم، زوجاً. وذلك، بعد أن استشار حكماء بني إسرائيل ... وكانت تحصل على رزقها من يدي ملاك الربّ (يعقوب ٧ ـ ٨).

في شأن بشارة الملاك لمريم بمولودها وهي في الهيكل نقابل أيضاً :

« فأرسلنا إليها روحنا. فتمثل لها بشراً سويّاً » (١٩ / ١٧).

« وإذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله اصطفاك على نساء العالمين » (٣ / ٤٢) « إذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين. ويكلم الناس في المهد

« أرسل الله الملاك جبرائيل للعذراء يقول لها : لا تخافي، إنك وجدت عند الله نعمة، وستحبلين بكلمته، والمولود منك يدعى ابن العلي، وتسميه : يسوع » (يعقوب ١١).

في لوقا ١ / ٢٦: دخل إلى العذراء ملاك يقول لها: السلام عليك يا ممتلئة نعمة. الرب معك » .

وكهلاً من الصالحين » (٣ / ٤٥ ـ ٤٦).	
قالت مريم : إنّي أعوذ بالرحمن منك إنْ كنت تقياً » (١٩ / ١٨).	« واضطربت لهذا الكلام، وقالت في نفسها : ما معنى هذا السلام » (لو ١ / ٢٨). قال الملاك : لا تخافي يا مريم، قد نلت حظوة عند الله » (لو ١ / ٣٠).
قال : « إنما أنا رسول ربّك لأهب لك غلاماً زكيّاً » (١٩ / ١٩).	
قالت : « ربّ، أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر » (٣ / ٤٧) أو : « أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر، ولم أك بغياً » (١٩ / ٢٠).	« فقالت مريم للملاك : انّى يكون هذا، ولا أعرف رجلاً! » (لو ١ / ٣٤).
قال : « كذلك الله يخلق ما يشاء. إذا قضى أمراً فانّما يقول له كن فيكون » (٣ / ١٧)، أو : « قال : كذلك قال ربّك وهو عليّ هين. ولنجعله أية للناس ورحمة منا. وكان أمراً مقضياً » (١٩ / ٢١).	« فأجابها الملاك : إن الروح القدس يحل بك وقدرة العلي تظللك، لذلك يكون المولود قدوساً وابن العلي يدعى » (لوقا ١ / ٣٥، إنجيل يعقوب ١١). قالت مريم : فليكن لي كما قلت.

ولمّا آن المخاض « حملته فانتبذت به مكاناً قصيّاً » (١٩ / ٢٢)، في البريّة حيث وجدت شجرة جلست تحتها تنتظر مولودها، وللحال : « ناداها (؟) من تحتها : لا تحزني. قد جعل ربّك تحتك سرياً » (١٩ / ٢٤). يختلف المفسرون في شخصية الذي نادى مريم : أهو مولودها أم الملاك، فالنص القرآني مبهم تماماً ... إلاّ أنّ المقابلة بين ما ورد في القرآن وما نرى في سيرة هاجر وابنها اسمعيل يرجّح أن الله تكلّم بواسطة ملاكه مع مريم، كما تكلّم مع هاجر. ويثبت ذلك انتقال القرآن من حذو الكتب النصرانيّة إلى حذو أخبار هاجر امرأة ابراهيم. فولادة عيسى القرآني أشبه ما تكون بولادة اسمعيل، لا في « مزود » كما في لوقا ٢/ ٧، ولا في « مغارة » كما في كتب النصارى, بل في البريّة، كما هو حال اسمعيل الذي اهتمّ بسقايته ملاك الرب، فأوجد له بئراً ليشرب، كما أوجد لعيسى ينبوع ماء :

« فاجأها المخاض إلى جزع نخلة. قالت : يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً » (١٩ / ٢٣) وناداها صوت قائلاً : « لا تحزني. قد جعل ربّك تحتك سريّا » ،	في سفر التكوين خبر هاجر امرأة ابراهيم التي تاهت في البرية، ونفد معها الماء، فطرحت اسمعيل ابنها تحت الشجرة. وجلست قبالته حزينة. بكت وبكى الغلام.

أي ينبوع ماء يسرى، « وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيّاً » (١٩ / ٢٤ و٢٥).	وسمع الله بكاء الغلام، وقال لها : مالك يا هاجر لا تخافي، فإن الله قد سمع صوت الغلام. قومي فخذي ابنك ... فرات بئر ماء وسقت الغلام. وكان الله معه (تكوين ٢١ / ١٤ ـ ٢٠) وفي كتب النصارى : انحنى النخيل لمريم يقدم لها التمر الطيّب لتطعم ابنها في سفرها إلى مصر (يعقوب ١٢ ـ ١٦، متى المنحول ١٠ ـ ١١).

وتستفيض كتب النصارى في الكلام على اضطراب يوسف عندما رأى مريم حاملاً بابنها، وعبساً يحاول أن يبرئ نفسه، وقد تكلّف بحماية مريم من قبل شيوخ بني إسرائيل، وتخلّف عن هذا التكليف، ومن جهة يعرف امرأته مصانة عفيفة، هي أكبر من أن تزلّ إلى مستوى سائر النساء. وتجول مخيلة مؤلّفي روايات الحبل والولادة فتضفي على الواقع مسحة أساطير الأقدمين، وأوجزها القرآن بلومة عارف ببراءة مريم في قوله : « يا أخت هارون. ما كان أبوك امرأ سوء. وما كانت أمّك بغياً » (١٩ / ٢٨). واضطرت مريم إلى أن تشير إلى ابنها ليخفّف عنها تهمة الناس « قال : إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً، وجعلني مباركاً أين ما كنت ... والسلام عليّ يوم ولدت ... » (١٩ / ٢٩ ــ ٣٤).

٣ً ــ في الرّوح القدس :

يناط الوحي في اليهوديّة تارة بالله مباشرةً وطوراً بالملائكة. وكثير من نصوص التوراة يخلط بين الاثنين : يقول سفر التكوين على لسان يعقوب اسرائيل : « قال لي ملاك الله في الحلم : يا يعقوب. قلت لبّيك. قال : ارفع عينيك وانظر ...

أنا إله بيت أيل ... » (٣١ / ١١ ــ ١٣)، وفي سفر القضاة أيضاً : « صعد ملاك الرب... وقال : إنّي أخرجتكم من مصر، وأدخلتكم الأرض التي أقسمت عليها لآبائكم. وقلت : إني لا أنقض عهدى معكم إلى الأبد » (٢ / ١ ــ ٤)، وفي سفر الخروج : « تجلّى ملاك الــرب (لموسى) في لهيب نار من وسط العليقة... فناداه الله مــن وســط العليقــة » (٣ / ٢ ...) وكذلك في أعمال الرسل : « كلم ملاك الربّ فيليبس ... فقال الروح لفيليــبس » (٨ / ٢٦ و٢٩)... فمن هو ملاك الربّ إذن في جميع هذه النصوص ؟ أهو شخصيّة مستقلّة عن ذات الله ؟ أم هو الله نفسه ؟

هذا الخلط وارد في القرآن أيضــاً، ولكن بين الملاك جبرائيل والروح القدس، يقول : « وآتينا عيسى بن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القدس » (٢ / ٨٧)[٣٠]، أي روح الرب، كما في التوراة؛ أمّا في الآيات التالية فهو الملاك جبرائيل، يقول : « قلْ نزّله روح القــدس مــن ربّك بالحق » (١٦ / ١٠٢)، و « نزل به الــروح الأمــين » (٢٦ / ١٩٣) أي المــلاك جبرائيل، وأيضاً : « إنه لقول رسول كريم ذي قوّة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمــين » (٨١ / ١٩ ــ ٢١)، « جبريل فإنّه نزّله على قلبك بإذن الله » (٢ / ٩٧).

وهناك خلط آخر من نوع آخر بين الروح القدس ومريم أم عيسى، في النصرانية كما في القرآن. نقل أورجين عن الإنجيل العبراني قــوله عن المسيح: « حملتني أمّــي الــروح القدس » [٣١] ، ويعلّق جيروم مفسّراً : « ممّا يدل على اعتقادهم (أي الأبيونيين) بأن الروح القدس هو أمّ المسيح » [٣٢] . وتعليلنا لذلك هو أن الروح باللغة الآرامية مؤنــث. وشــاعت جنسيّة الروح وأمومته للمسيح في أوساط متنوعة، فنجد اليعقوبي يقول : « فلمّا عمّده خرجت روح القدس على الماء » [٣٣] ، كما هو

---

(٣٠) انظر أيضاً ٢ / ٢٥٣، ٥ / ١١٠.
(٣١) اوريجين في تفسيره لأرميا ١٥ / ١٤.
(٣٢) جيروم في تفسيره لأشعيا ١١ / ٢.
(٣٣) تاريخ اليعقوبي ١ / ٧٢.

مكتوب في إنجيل العبرانيين : « الروح القدس يخاطب يسوع في عماده بقولها : أنـت ابنـي الحبيب » [٣٤] ، ونجد أيضاً عند أفراهات أحد آباء الكنيسة السريانيّة هذا القـول : « ... إن الرجل يحب الله أباه، والروح القدس أمّه » [٣٥] فالروح القدس إذن من جـنس « المؤنّـث » وهو. « أمّ المسيح » ويعتبره المسيحيون إلها مع المسيح الابن والأب. لكنّ النصارى، كمـا عرفنا، يقفون عن إلوهيّته.

وعندما نقرأ في القرآن هذه الآية، وفيها يلوم الله عيسى قائلاً : « أأنت قلـت للنـاس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ » (٥ / ١١٦)، وعندما نعرف أن الروح القدس هو أمّ المسيح بحسب اللغة الآرامية، نستطيع القول بأن القرآن يردّ على الذين يؤلّهون الروح القدس، ويعتبرونه ثالث ثلاثة، لا العذراء مريم، كما يـزعم مفسّـرو القـرآن جملـة كالبيضـاوي والزمخشري والطبري والجلالين وغيرهم على الآية ٥ / ١١٦؛ علماً بـأنّ مـريم العـذراء كرّمها المسيحيون وعظّموا اسمها، وقـدّم بعضهم لها القرابين، فاتّهمـوا بتقديسها وتأليههـا كـ« الكْلِيرِيّن » مثلاً من « كليرس » اليونانية التي تعني أقراصاً من الرقاق ... إلاّ إن هذه القلة لم يكن لها أثر ولا انتشار ولا كتاب ...

وهكذا بقي كل شيء عن الملاك جبرائيل وعن الروح القدس مبهماً في النصرانية كما في الإسلام. والروح القدس، تارة هو روح الله أو روح منه، وتارة هو ملاك الله. ومهمته في الحالين منوطة بالوحي والتنزيل.

---

(٣٤) جيروم في تفسيره على نبوءة أشعيا ١١ / ٢، انظر تفسير ميخا ٧ / ٦.
(٣٥) افراهات، البينات، ١٨ / ١٠.

ثانياً ــ في الفُروض والعبَادات وشَعائر الدين

في معظم أركان الدين ترى تقارباً بيّناً فيما بين الإسلام والنصرانيّة. ولا نغالي في القول إن جزمنا بأن ما في الإسلام منها هو نسخة عما في النصرانية. والقرآن العربي فيها يعتمد على الكتب النصرانيّة وتقليدها اعتماداً صريحاً. فهو يقررها، ويحددها، ويلتزم غايتها؛ لكأنّه ينقلها إلى العرب نقلاً. وهي موجودة في تعاليم التوراة والتلمود والأناجيل النصرانيّة على السواء. وحقيقة ذلك واضحة كما سترى :

١ ــ فالختان مثلاً، وهو « العلامة » التي تذكّر بعهد الله مع البشر، وتذكّر الإنسان بإنتمائه العضوي إلى شعب الله المختار، يعتبر سنّة إلهيّة شرّعت لها التوراة والأنبياء[١] . وقد يعود استعمال الختان إلى شعوب كثيرة في تاريخ البشرية، وهو سنّة شائعة بين الأمم، مارسها السوريون والمصريّون والعرب وكهنة الأصنام[٢] ... ولشيوعها لم يضطرّ القرآن العربي إلى التشريع لها. وهذا معنى الحديث النبوي القائل: « الختان من خصال الفطرة »[٣]، و « الختان سنّة للرجال ومكرمة للنساء » [٤] ... ومارس النصارى على مختلف فرقهم هذه السنّة، واعتبروها شرطاً أساسيّاً للإيمان بالمسيح وللخلاص[٥] . إلاّ إنّ المسيحيين، أتباع بولس الرسول، لم يخضعوا لهذه الشريعة، بل رفضوها رفضاً قاطعاً[٦] .

---

(١) انظر تكوين ١٧ / ١٠، خروج ١٢ / ٤٤، أحبار ١٢ / ٣، يشوع ٥ / ٢ ـ ٨ ...

(٢) J. Chaine, Le Livre de la Genèse, 1945, p. 229.

(٣) صحيح البخاري ٧٧ / ١٣، ٧٩ / ٥١، صحيح مسلم ٢ / ٤١ و٥٠.

(٤) مسند ابن حنبل ٥ / ٧٥.

(٥) أعمال الرسل ١٥ / ١ ـ ٣٥، انظر رسالة إلى الغلاطيين ٢ / ١١ ـ ٢١.

٢ ــ أمّا الغسل والوضوء والتطهير فهي فرض واجب عند اليهود والنصارى والمسلمين. شرّع لها موسى في التوراة، ومارسها اليهود في حالات كثيرة، قبل الصلاة والأكل وكل احتفال مقدّس. فغسل اليدين والرجلين واجب عليهم « لئلا يموتوا. وذلك لهم رسم الدهر » [٧]، وغسل الجسم بكامله في حالات معينة، مثل حال الرجل الذي « بجسده سيلان »، أو « يكون جسده يقطر الزرع » ، أو الذي « أكل نبيلة أو فريسة » ، أو من « لمس العظم أو القتيل أو الميت أو القبر » ، أو « الأبرص المتبرأ » ، أو حال المرأة التي « يسيل دم من جسدها » ، و « المرأة المستحاضة في طمثها » ، و « المرأة التي حبلت فولدت ... » [٨] . كل هذه الحالات واجبة من قبلة السنة. وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى النصارى عامّة والأبيونيين خاصّة. ويقول أبيفان عن هؤلاء : « عندهم وضوء شامل كل يوم للتطهير » [٩] . والغسل عندهم واجب يومي « قبل الأكل والصلاة وبعد كل جماع جنسي » [١٠] ، وعند لسعة أفعى أو في مرض أيّ مرض[١١] ... ويأخذ المسلمون بجميع هذه الحالات، ويميّزون بين الغسل الكبير وهو غسل الجسم بكامله، والغسل الصغير وهو الوضوء. ويقول القرآن قولاً مشابهاً لتعاليم اليهود والنصارى، فهو يأمر جماعته: « يا أيّها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة... حتى تغتسلوا » (٤ / ٤٣) ، « **يا أيها الذين آمنوا، إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين، وإنْ كنتم جنباً فاطهروا** » (٥ / ٦)[١٢]. وأباح القرآن للمسلمين احتراساً من اهمال هذا الاستعداد الضروري أن يتيمّموا صعيداً طيّباً من رمل أو تراب[١٣] كالبعض من النصارى الذين اعتاضوا المعموديّة بالرمل عن الماء.

---

(٦) ١ كور ٧ / ١٩، كو ٢ / ١١، روما ٢ / ٢٥ ـ ٢٩، غلاطية ٥ / ٦، ٦ / ١٥.
(٧) أحبار ٣٠ / ١٧ ـ ٢١، ٤٠ / ٣٠ ـ ٣٢، ١٥ / ١١، مزمور ٢٧ ، ٦، ٧٤ / ١٣.
(٨) أحبار ١٥ / ٣ و١٦ و٣٣، ١٧ / ١٥، عدد ١٩ / ١٨ ـ ١٩، أحبار ١٤ / ٨، ١٥ / ١٩ و٣٣، ١٢ / ١ ـ ٥، ٤ ملوك ٥ / ١ ـ ١٤، متى ٨ / ٤، مرقس ١ / ٤٤ ...

٣ً ــ أمّا تحريم الخمرة فهو خاص بالنصارى الأبيونيين دون اليهــود والمســيحيين. والأبيونيين يحرّمون الخمرة حتى في القربان، يقول ايريني عنهم : « **إن الأبيونيين يحرّمون مزج الخمر السماوي بالماء**، ويريدون فقط ماء هذا الدهر » (١٤) ، ويقول كتــاب « أعمــال توما عنهم أيضاً : « إن القربان، عندهم، من خبز وماء لا خمر فيه » (١٥) ، ويقول كليمــان الاسكندري : « إن بعض الخوارج يستعملون في القربان الخبز والماء بدل الخبــز والخمــر، على خلاف سنّة الكنيسة » (١٦)... بيد أن هذه الخمرة المحرّمة على الأرض ستكون في الجنّة حلالاً، على ما ذكر عنهم أوريجين(١٧) ، **وعلى ما ورد في إنجيل متى على لسان المســيح : « أقول لكم : لا أشرب بعد اليوم من عصيرة الكرمة هذا حتى يأتي يوم فيه أشــربه معكــم خمرة جديدة في ملكوت أبي »** (١٨) .

وهذا هو حالها في القرآن العربي حيث الخمرة « رجس من عمل الشــيطان » (٥ / ٩) وسبب « اثم كبير » (٢ / ٢١٩)؛ توقع بين الناس « العداوة والبغضاء » (٥ / ٩١)... بيد أنّها في الجنّة حلال حيث « فيها أنهار من خمر لذة للشــاربين » (٤٧ / ١٥)، وحيــث الناس فيها « يتنازعون كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم » (٥٢ / ٢٣)، وفيها « يطوف علــيهم ولدان مخلّدون بأكواب وأباريق وكأس من معين » خمرة جارية لا ينقطع أبــداً(١٩) . هنــاك المخلّصون « يسقون من رحيق مختوم » (٨٣ / ٢٥) ... فما كان من الخمرة إذن محرّمــاً على الأرض يكون محللاً في السماء.

---

(٩) أبيفان، « بناريون » أي الشامل في الهرطقات ٣٠ / ٢.
(١٠) نفس المرجع ٣٠ / ٢.
(١١) نفس المرجع ٣٠ / ١٧.
(١٢) في حديث نبوي : « إن التطهير مفتاح الصلاة » (الترمذي ١ / ٣) ...
(١٣) ٤ / ٤٦، ٥ / ٩.
(١٤) أيريني، ضد الهرطقات ٥ / ١ : ٣.
(١٥) انظر أعمال توما وأعمال القديس بطرس المنحولين.
(١٦) Clément d'Alexandrie, Stromates, I, 19….

٤ ـ تحريم لحم الخنزير هو في اليهوديّة والنصرانيّة فرض واجب. فاليهود في توراتهم يعتبرون الخنزير رجساً لهم : « لا تأكلوا شيئاً من لحمها وميتتها لا تمسّوها فإنها نجسة لكم » [٢٠] . والنصارى، منذ البدء وفي مختلف شيعهم، ساروا بموجب شريعة موسى[٢١] ، وعلّموا، بسبب خطايا الإنسان، تحريم بعض الأطعمة. واستبقت الكنيسة المسيحية السريانيّة هذا التعليم، فقال أفرهات : « إنه بسبب خطاياك أعطاك الله الذبائح وحرّم عليك بعض الطعام » [٢٢] . في حين أن المسيحيين ألغوا كل فارقة بين الأطعمة، فلا طعام مقدس ولا طعام نجس بذاته، إنما الإنسان يضفي عليها قداسة ونجاسة[٢٣] ... أمّا القرآن فعاد إلى الشريعة الموسوية واتّباع التقاليد اليهودية والنصرانيّة، وجعل بين الأطعمة فوارق، فنجّس بعضها وقدّس بعضها الآخر. وأعلن قائلاً : « إنّما حرّم عليكم الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهلّ به لغير الله » [٢٤] .

٥ ـ تحريم التبتّل والتحريض على الزواج هما أمران واجبان في اليهودية والنصرانيّة. في البدء كانت البتوليّة محترمة عند الأبيونيين من النصارى، على ما يقول أبيفان عنهم : « واليوم يحرّمون البتولية والإمساك عن الزواج كما في سائر الشيع التي تشبههم، ويفرضونه على الشباب فرضاً، ولكن قديماً كانوا يحترمون التبتل » [٢٥] ، ومن يمتنع عن الزواج تقع عليه مسؤولية امتناعه[٢٦] ...

---

(١٧) أوريجين في تفسير لسفر الأحبار ٧ / ٢ ...
(١٨) انظر إنجيل متى ٢٦ / ٢٩، ٨ / ١١.
(١٩) القرآن ٥٦ / ١٧ ـ ١٨، ٧٨ / ٣٤.
(٢٠) أحبار ١١ / ٧، تثنية الاشتراع ١٤ / ٨.
(٢١) انظر أعمال الرسل ١٥ / ٢٠ و٢٨ ـ ٢٩، ٢١ / ٢٥.
(٢٢) أفرهات، البيّنات، ١٥ / ٧، انظر تعاليم الرسل « ديدا سكالي » .
(٢٣) متى ١٥ / ١١ و١٧ ـ ٢٠، مرقس ٧ / ١٥ ـ ٢٣.
(٢٤) القرآن ٢ / ١٧٣، ٥ / ٣، ٦ / ١٤٥، ١٦ / ١١٥.

وموقف القرآن من البتوليّة لم يكن رفضاً مطلقاً، كما يظنّ معظم الناس. فهو لم يحرّم الرهبانيّة مثلاً تحريماً مطلقــاً، إنما يقف ضد بعض الرهبان الذين لم يرعوها حــق رعايتها: « فما رعوها حق رعايتها » (٥٧ / ٢٧) أي لم يعيشوا بموجب ما عاهدوا به نفوسهم، لذلك فهو يعظّم تارة شأن الرهبان الحقيقيين الذين « لا يستكبرون » (٥ / ٨٢)، وطورا يــتّهمهم بأكل أموال الناس وبالكبرياء: « إن كثيراً من الأحبــار والرهبان ليــأكلون أمــوال النــاس بالباطل » (٩ / ٣٤). وسبب تهمة محمّد لهم يعود إلى سيرتهم العاطلة التي لم تكن « ابتغاء رضوان الله » (٥٧ / ٢٧) أكثر ممّا تعود إلى الحياة الرهبانيّة نفسها. ومع هذا، يعود ســبّ القرآن للرهبان والأحبار إلى آخر سورة في تاريخ النزول حيث راح محمّد يُخضِع بــالعنف والسيف القبائل والبلدان دون تمييز في اليهود والنصارى والمســيحيين... إلاّ أنّ التحــريض على الزواج هو في القرآن أكثر وضوحاً وأوجب مسلكاً : « وانْ خفتم ألاّ تقسطوا ... فانكحوا ما طاب لكم من النساء ... » (٤ / ٣)، و « زين للناس حب الشهوات من النساء » (٣ / ١٤).

٦ ــ أمّا الصيام فهو سنّة عامّة في كل الأديان والمذاهب. إلاّ أنّ أحكامه في القــرآن تشبه إلى حدّ بعيد أحكامه في اليهودية والنصرانيّة، بل هي نفسها. جاء فــي التلمــود وفــي المشنا: « إنّ أول نهار الصيام هو الوقت الذي يقدر المرء فيه أن يتبين الخيط الأبــيض مــن الخيط الأزرق »[٢٧]، وجاء في القرآن : « وكلوا واشربوا حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض مــن الخيط الأسود من الفجر، ثمّ أتمّوا الصيام إلى الليل » (٢ / ١٨٧). ومن أحكام الصيام أيضاً في التقاليد النصرانيّة ألاّ

(٢٥) أبيفان، الشامل في الهرطقات ٣٠ / ١٨.
(٢٦) الكرازة البطرسية ١٩ / ٢٢.
(٢٧) التلمود ١ / ٥، المشنا ١ / ٢.

يجتمع الرجل بامرأته، كما في البدء[٢٨] وقد بقي له إلى اليوم أثر في شريعة الامتناع عن الزواج في زمن الصوم المقدس. ولكنّ هذه الأحكام ألغيت فيما بعد، وقد وصلت إلى القرآن العربي ملغاة، بدليل تحليله لها : « أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » (٢ / ١٨٧)، واستبقى منعها في خلوة المساجد: « ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد » (٢ / ١٨٧).

٧ً ــ والصلاة بحسب أوقاتها المحدّدة هي نفسها في النصرانيّة والإسلام : ثلاث مرّات في اليوم : عند الصبح والظهر والغروب، وما سوى ذلك من النوافل. في تعاليم الرسل: « علينا أن نصلي ثلاث مرات في اليوم » [٢٩] ، وحدد القرآن بقوله : « يا أيها الذين آمنوا... ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة، ومن بعد صلاة العشاء ... » (٢٤ / ٥٨) ويسمي في مكان آخر صلاة الظهيرة بـ« صلاة الوسطى » (٢ / ٢٣٨). وجاء في تعليم الرسل أن صلاة الليل لا تجبر أحداً[٣٠] ، وفي القرآن : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك » (١٧ / ٧٩). **أما قبلة الصلاة فبيت المقدس، في النصرانيّة[٣١] كما في القرآن، إلاّ إنها تحوّلت القبلة، في القرآن المدني، بعدما وسع الشقاق بين محمّد واليهود، من بيت المقدس إلى مكة[٣٢]** .

٨ً ــ وفيما يخصّ وضع المرأة وأحكام الزواج والطلاق فالأمر شديد المشابهة فيما بين النصرانيّة والقرآن العربي، كما في اليهوديّة سابقاً. جاء في

---

(٢٨) Cf. Augustin, Sermon au peuple… 124, 7…..
(٢٩) Didachè, VIII, 3….
(٣٠) Hippolyte de Rome, Trad. Apostolique, 35….
(٣١) Cf. Irénée, Adv. Haer., I, 26: 2; Const. Apost., II, 57
(٣٢) القرآن ٢ / ١٤٢ ـ ١٤٥.

التلمود اليهودي أن « ولادة الأنثى سبب غمّ للأب » [٣٣] ، وفي القرآن « إذا بشّر أحّدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به » (١٦ / ٥٨)، وفي النصرانيّة أن « الحياة العامّة للرجال. ويليق بالنساء أن تبقى في البيت ويعشن محتجبات » [٣٤] ، وتقول الأم لابنتها: « كنتُ فتاة عذراء لا أجتاز عتبة البيت الوالدي » [٣٥]، ويقول القرآن : « قِرْنَ (من القرار) في بيوتكنّ ولا تبرّجن تبرّج الجاهلية الأولى » (٣٣ / ٣٣)، ويقول لجميع النساء المؤمنات : « **قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنّ ويحفظن فروجهنّ ولا يبدين زينتهن إلاّ ما ظهر منها، وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ، ولا يبدين زينتهنّ الاّ لبعولتهنّ** » (٢٤ / ٣١)[٣٦] ، وكذلك شأن المرأة، في النصرانيّة، « إذا ما كشفت عن رأسها في الشارع وأسرعت في السير مجدّة وحادثت المارة ولعنت أولاد زوجها، وصاحت بأعلى صوتها ... تطلّق » [٣٧] . **والطلاق حقّ للرجل وحده**[٣٨] ، **ومع هذا فهو مكروه » وهو (الله) يبغض الطلاق »** [٣٩] ، **ولا يحق للرجل أكثر من أربع نساء**[٤٠].
والطلاق، في القرآن، هو أيضاً، حق للرجل وحده[٤١] ، ومع هذا فهو مبغوض : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » [٤٢] ، والزواج العدل يكون من أربع نساء [٤٣] .

---

(٣٣) A. Cohen, Le Talmud, 21
(٣٤) Philon, Les Lois, III, 169.
(٣٥) IV Maccabiens, XVIII, 7
(٣٦) القرآن انظر ٢٤ / ٦٠، ٣٣ / ٥٥ و٥٩.
(٣٧) Le Talmud, v. Fiançailles, p. 211.
(٣٨) Le Talmud, v. Fiançailles, VII, 7.
(٣٩) نبوءة ملاخي ٢ / ١٦.
(٤٠) Le Talmud, Yebamot, I, 44; Shem'une, I, 83...
(٤١) انظر القرآن ٢ / ٢٢٦ ـ ٢٣٢ و٢٣٦ ـ ٢٣٧ و٢٤١، ٤ / ١٢٨ ـ ١٣٠، ٣٣ / ٤ و٤٩.
(٤٢) سنن أبي داود ١٣ / ٣، سنن ابن ماجة ١٠ / ١، وغيرها من أحاديث نبوية.
(٤٣) القرآن ٤ / ٣.

٩ً ــ القربان والكهنوت : **إن موضوع الافخارستيا، في النصرانية، مختلف فيه : بعض النصوص تشير إلى وجوب إقامة القربان[٤٤] ، وبعضها غير واضح معناه. وشهادة أبيفان عن الأبيونيين تقول بأنهم كانوا يحتفلون بالخبز الفطير وبالماء بدل الخمر، وكان يقام مع الفصح اليهودي مرّة واحدة في السنة، وللذكرى فقط لا للتجديد[٤٥]. ومع هذا، لا شيء يدلّ على أنّهم كانوا يعتبرون ذلك أفخارستيا أو ذبيحة شكر، إنما هي « مائدة » روحيّة يجتمعون حولها ...**

وفي القرآن أيضاً، لا شيء واضح : لا هو ينكرها، ولا هو يقرّها؛ إنّما يشير إليها ببالغ الأهميّة : فهي « مائدة من السماء » (٥ / ١١٤)، طلبها الحواريّون من عيسى (١١٢) لتطمئنّ بها قلوبهم (١١٣). فطلبها عيسى من الله (١١٤) لتكون « عيد للأوّلين والآخرين » (١١٤). ونزّلها الله بناء لطلبه (١١٥). وراح عيسى يعلن مهدداً من يكفر بها بالعذاب الذي لا مثيل له : « إني منزّلها عليكم. فمن يكفر بعد منكم فإنّي أعذبه عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين » (١١٥). و « هو إعلان جهوري لا يظهر في هذه الصيغة إلاّ مرّة وحيدة. وهو الله نفسه الذي يعلنه » [٤٦] .

وأدّى غموض الموقف في موضوع القربان إلى عدم وضوح في الكهنوت. فلا النصرانيّة، ولا الإسلام يقول بالكهنوت أو بالذبيحة التي يقوم بها الكاهن. فالنصارى يؤمنون بأن المسيح أتى ليلغي ذبائح العهد القديم استناداً إلى

---

(٤٤) Kérygme de St. Pierre, Reconn. I, 63…

(٤٥) Epiphane, Panarion, XXX, 13

(٤٦) D. Masson : "Il convient de remarquer que cette formule particulièrement solennelle ne parait que cette seule fois dans le Coran; c'est Dieu lui-même qui la prononce". (Le Coran, Sour. V, 115, n° 1, p. 826).

تعاليم التوراة[٤٧] ، وقد عبر المزمور الخمسون قائلاً : « إنك لا تبتغــي ذبيحــة فأبــذل ولا ترتضي بمحرقة » (٥٠ / ١٨) والمزمور التاسع والأربعون : « لا أوبخك على ذبائحك » (٨). **وبنظر الأبيونيين، إن المسيح « أطفأ، بصبغة المعموديّة، النار التي يشــعلها الكــاهن للخطايا »** [٤٨]**، فألغى بالتالي وظيفة الكاهن، لأن نتيجة إلغاء الذبيحة والمحرقة تلغي الكاهن والكهنوت كفداء للخطايا**. وقد كان يوم عندهم كانت فيه الذبيحة ضــرورية لــذلك وكــذلك الكهنوت[٤٩] ...

والقرآن العربي، هو أيضاً، لا يقول شيئاً عن الكهنوت ولا عن الذبيحة، فهو لا يؤمن بالذبيحة كفداء للخطايا، ولا بالكهنوت لإقامة الذبيحة، ولا محلّ لهما فيه. وقد يكون مقرّاً بهما سابقاً بدليل استبدالهما بــ« صبغة » إلهيّة يصبغ بها الناس المؤمنين : « صــبغة الله. ومــن أحسن من الله صبغة » (٢ / ١٣٨) ... ومن يدري ما هي هذه الصبغة الإلهية ؟ وهــي لا ترد في القرآن الاّ مرة واحدة!

ولكن، إذا كان هم القس ورقة، كما رأينا سابقاً، أن يقيم بعده خليفة يكمل مهمته فــي الكنيسة المكية، وقد اختار لذلك محمداً، ونجح في اختياره، فإن محمداً لم يستطع، نظراً لتبدّل الأحوال، وسعة نشاطه، وعنف مهمّته، وقيامة اليهود عليه، وتغيير رسالته ودعوته من مبلّــغ ونذير وبشير إلى رسول ونبي... في كل هذه، لم يستطع أن يدبّر خليفة له من بعده. والدليل : ذاك الاختلاف التاريخي بين المهاجرين والأنصار من جهة وشيعة عليّ وآل البيت من جهــة ثانية. فمحمّد هو بالفعل « خاتمة » ولكن خاتمة النصارى وكنيستهم لا خاتمة النبيين والرسل.

---

(٤٧) انظر إلغاء الذبيحة في عاموس ٥ / ٢١، ٤ / ٤ ـ ٥، ١ ملوك ١٥ / ٢٢، أشعيا ١ / ١٠ ـ ١٦، ٢٩/ ١٣ ـ ٢٤، ٥٨ / ١ ـ ٨، هوشع ٦ / ٦، ملاخي ٦ / ٥ ـ ٨، أرميا ٦ / ٢٠، يوئيل ٢ / ١٣، زكريا ٧ / ٤ ـ ٦، مز ٣٩ / ٧ ...

(٤٨) Kérygme de St. Pierre, Reconn. I, 48; 36, 37, 39, 55…

(٤٩) Kérygme de St. Pierre, Reconn. I, 48…………………

ثالثاً ــ في الحسنَات والصَّدقات

إن تعاليم القرآن العربي في موضوع الحسنات والصدقات هي تعاليم أبيونيّة. وأولى السور القرآنية بحسب زمان نزولها هي التي تدعو إلى الاهتمام بالمساكين، وإلى الرحمة والشفقة، وإطعام الجياع، ومساعدة اليتامى والأرامل، وإقراء الضيف وسدّ عوز المحتاجين، واستضافة الغرباء وأبناء السبيل، والعناية بأصحاب الفاقة، وفرض الصدقة والحسنة، والطعن بالغنى والأغنياء، وعمل الصالحات ... ومن لم يأخذ بهذه التعاليم فهو من عداد أصحاب الهلاك في نار خالدة. ومن يحبس أحشاءه عن إغاثة المحتاجين لن يدخل الجنّة. فالذين لا يعملون صالحاً « لا يدخلون الجنّة حتى يلج الجمل في سمّ الخيّاط » (٧ / ٤٠)، تماماً كما يعلّم إنجيل متى في قوله : « لأن يدخل الجمل في سمّ الإبرة أيسر أن يدخل الغني ملكوت السماوات » (١٩ / ٢٤).

هذه التعاليم في الحسنات والصدقات تؤلّف لبّ العقيدة الأبيونيّة. ومنها كان اسم « الأبيونيين » نقلاً عن قول المسيح في متى « **طوبى للأبيونيين** » أي « **طوبى للفقراء** » (٥ / ٣). وعنهم قال أبيفان : « إن الأبيونيين كانوا يفتخرون بفقرهم، ويتراءون أمام الناس فيه، ويتباهون ببيع أملاكهم وخيراتهم وتوزيعها على المساكين، وعلى بعضهم بعضاً » [١] . وقال فيهم كتاب « الكرازة » المنسوب إلى القديس بطرس بـ« إنهم كانوا يمدحون الفقر ويذمّون الملكية »[٢]، و« يشدّدون على اقتلاع شهوات الغنى من النفس أكثر منه من اليد »[٣].

---

(١) Epiphane, Panarion, XXX, 17.
(٢) Kérygme de St. Pierre, Hom. XV, 7, 9.....
(٣) Kérygme de St. Pierre, Hom. XV, 10......

واستنار الأبيونيون في تعاليمهم هذه باليهود والمسيحيين على السواء، وبالتوراة والإنجيل معاً. فاليهود علّموا في توراتهم بـ« أن تكسر للجائع خبزك، وأن تدخل البائسين المطرودين بيتك. وإذا رأيت العريان أن تكسوه ... حينئذ يسير برّك أمامك ... وحينئذ تدعو فيستجيب الرب ... إذا أبرزت نفسك للجائع وأشبعت النفس المعنّاة ... يهديك الرب في كل حين ويشبع نفسك[٤] وأمرت الحكمة بأن « أبسط يدك للفقير » [٥] . ويعلّم التلمود بـ« أن العالم يبنى على ثلاثة أشياء : التوراة، وعبادة الله، وأعمال البرّ » [٦] .

والمسيحيون أناطوا الخلاص بـ« الإيمان العامل بالمحبّة » [٧] ، أي بإطعام الجائع وارواء ظمأ العطشان واستضافة الغرباء وإلباس العريان وزيارة السجين وإعادة المريض[٨] . **ويولي يعقوب الرسول عمل الصالحات أهميّة قصوى لدرجة أن « الإيمان بدون الأعمال ميت »** [٩] . ويشدّد آباء الكنيسة، على مختلف آلوانهم، على ممارسة أعمال البرّ : فكان باخوميوس يقول : « ليس من رجاء للإنسان في هذا العالم إن لم يصنع الخير قبل أن يترك جسده » [١٠] ؛ وافرام السرياني يعلّم : « طوبى للذين يسهرون في الصدقات » [١١] ، وأيضاً « إننا نرسل، قبل ذهابنا إلى القضاء، أعمالنا الصالحة لتستقبلنا عند وصولنا إلى مدينة القدوس » [١٢] ، « بالدموع والصدقات نستطيع محو الشكاوى المكتوبة علينا » [١٣] ؛ **واكليمنضوس الاسكندري كان يقول : « ما أحسنها تجارة! وما أجمله سوق إلهي! إننا نبتاع الأبدية بأشياء زائلة من هذا العالم »** [١٤] **. وعادة ما كانت تستعمل الكنيسة السريانية تعبير « تجارة مع الله »** [١٥] **، للدلالة على الربح الذي يناله**

---

(٤) أشعيا ٥٨ / ٧ ـ ١١، انظر أيوب ٢٢ / ٦ ـ ٨.
(٥) سفر يشوع ابن سيراخ ٧ / ٣٦.
(٦) Le Talmud, Pirké Aboth, 1, 2; Cohen, p. 176.........
(٧) انظر غلاطية ٥ / ٦، ١ تسا ١ / ٣، ٢ تسا ١ / ١١ ... وغيرها.
(٨) انظر إنجيل متى ٢٥ / ٣٧ ـ ٤٦، ١ كور ١٣ / ٢، ١ يو ٣ / ١٧.

المتصدّقون بأموالهم ... وفي القرآن من هذا دعوة إلى تجارة مع الله لا تكسد ولا تبور وتنجّيهم من عذابات النار. قال : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجّيكم من عذاب إليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » (٦١ / ١٠)[١٦] .

بين القرآن العربي وإنجيل العبرانيين أكثر من وفاق في هذا الموضوع، بل نقل صريح و « تفصيل » واضح. ولئن فاتتنا نصوص الإنجيل العبراني فإن اعتمادنا على « الأناجيل الازائية » الثلاثة الرسميّة لا يقلل من معرفتنا بالتعاليم الأبيونية في الحسنات والصدقات شيئاً؛ ذاك لأن **إنجيلي متى ولوقا، الموصوفين بالعناية بالفقراء**، كالإنجيل العبراني نفسه، يعتمدان على « إنجيل متى الآرامي » ، أصل كل الأناجيل بعده[١٧] . لهذا، تجدر المقابلة بينهما وبين القرآن العربي، وتصحّ :

القرآن العربي	المصادر الإنجيلية
« الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربّهم ... يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس » (٢ / ٢٦٢ ـ ٢٦٤، ٢٧٠، ٤ / ٣٨ ...).	« متى صنعت صدقة، فلا تبوّق بها قدّامك كما يفعل المراءون في المجامع وفي الشوارع لكي يمجدهم الناس » (متى ٦ / ٢ ـ ٨). « إيّاكم أن تعملوا برّكم بمرأى من الناس لكي ينظروا إليكم فلا يكون لكم أجر عند أبيكم » (٦ / ١) « أنتم تزكّون أنفسكم عند الناس » (لو ١٦ / ١٥).
إنّ الله « لا يضيّع أجر المحسنين » (٩ / ١٢، ١١ / ١١٥، ١٢ / ٥٦ ...)	« من يسقي ... كأس ماء بارد فأجره لن يضيع » (متى ١٠ / ٤٢).
« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها »	يقول بطرس للمسيح : « قد تركنا كل شيء ...

---

(٩) رسالة يعقوب ٢ / ١٤ ـ ٢٦.
(١٠) حياة باخوميوس ١٧ / ٣٨١.
(١١) Op. Gr., II, 22 ......
(١٢) Op. Gr., II, 152 ....
(١٣) Op. Gr., II, 215 ....
(١٤) Cl. D'Alex. Stromates 32
(١٥) Syn. Or., Canon XIX ....
(١٦) انظر ٩ / ٢٤، ٣٥ / ٢٩ ...
(١٧) Intr. A l'Ev. P. Benoît Du Cerf, p. 12, 29..

(٦ / ١٦٠). « أقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر » (٥٧ / ١٨، ٢ / ٢٤٥، ٦٤ / ١٧، ٧٣ / ٢٠ ...	فماذا كون جزاؤنا ؟ قال يسوع : ينال مائة ضعف » (متى ١٩ / ٢٩)

إن أصحاب الجنة في متى هم الذين قال لهم المسيح منادياً : « تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم : لأني جعت فأطعمتموني، وعطشت فسقيتموني، وكنت غريباً فآويتموني، وعرياناً فكسوتموني، ومريضاً فعدتْمونْي، وسجيناً فزرتموني ... » (٢٥ / ٣٤ ــ ٤٠). وفي القرآن : هم الذين يحررون أسيراً، ويطعمون جائعاً، ويحبون مسكيناً، ويتقرّبون من يتيم : « فكّ رقبة، وإطعام في يوم ذي مسغبة، يتيماً ذا مقربة، أو مسكيناً ذا متربة » (٩٠ / ٥ ــ ٦ و١٣ ــ ١٨).

وأصحاب الهلاك هم، في متى، الذين لم يطعموا جائعاً ولم يأووا غريباً ... هؤلاء يسمعون صوت الديان يقول لهم: « خذوه وألقوه في الظلمة البرانيّة » (٢٥ / ٤١ ــ ٤٦، ٥ / ٣٠). وفي القرآن: هم الذين لا يحضون على طعام المسكين، يسمعون الله يقول لهم: « خذوه فغلّوه، ثم الجحيم صلوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم، ولا يحض على طعام المسكين. فليس له ههنا حميم ولا طعام إلاّ من غسلين » (٦٩ / ٣٠ ــ ٣٦).

فالخلاص إذن، في القرآن وفي متى، منوط بعمل الصالحات وفعل البرّ. فمن عمل صالحاً لا خوف عليه، على حسب ما يقول القرآن (٥ / ٦٩)، وله جزاء الضعف (٣٤ / ٣٧)، يكفّر عنه سيئّاته (٦٤ / ٩)، ويغفر الله له (٢٠ / ٨٢)، ويؤتى أجره مرتين (٣٣ / ٣١)، ويكون من المفلحين (٢٨ / ٦٧). إن الله يوفي المحسنين أجورهم (٣ / ٥٧) ويهديهم بإيمانهم (١٠ / ٩) ويجزيهم من فضله (٣٠ / ٤٥) ويدخلهم رحمته (٤٥ / ٣٠) ويخرجهم من الظلمات إلى النور (٦٥ / ١١)، ويرزقون بغير حساب (٤٠ / ٤٠) لا يخافون ظلماً ولا هضماً (٢٠ / ١١٢). لهم الدرجات العليا والجنات التي تجري من تحتها الأنهار (٤٧ / ١٢). فـ« الذين

عملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » (١٣ / ٢٩) لأنّ « البرّ من آمن ... وأتى المال على حبّه ذوى القربى واليتامى والمساكين » (٢ / ١٧٧).

لقد علم القرآن العربي بـ« أن الله مع المحسنين »[١٨] و« قريب من المحسنين »[١٩] و « يحبّ المحسنين »[٢٠]. وجاء محمّد لأمر إلهي يقول: « بشّر الذين عملوا الصالحات »[٢١] لأن « لهم ما يشاءون عند ربّهم. ذلك جزاء المحسنين » (٣٩ / ٣٤). في حين أن صانعي السيّئات والظالمين وأصحاب النار والهلاك هم « الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً. انّما يأكلون في بطونهم ناراً. وسيصلون سعيراً » (٤ / ١٠).

تعاليم القرآن العربي هذه هي إيّاها تعاليم إنجيلي متى ولوقا الرسميين، بعد إنجيل متى الآرامي وإنجيل العبرانيين. وعليها يعتمد الأبيونيين ومنها يأخذون تعاليمهم في وجوب الحسنات والصدقات للإيمان الحقّ وللخلاص. وهي تختصر بما يلي : « تصدقوا بما لديكم يكن كل شيء لكم طاهراً » [٢٢] ، « إذا أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع ما تملكه وتصدق بثمنه على الفقراء، فيكون لك كنز في السماء » [٢٣]، « بيعوا أملاككم وتصدّقوا بثمنها » [٢٤]، « إذا أقمت مأدبة فادع الفقراء والزمنى الكسحان والعميان. فطوبى لك إذ ذاك لأنهم ليس بوسعهم أن يكافئوك فتكافأ في قيامة الأبرار »[٢٥]، « لا تكنزوا لكم كنوزاً في الأرض »[٢٦]، « من كان لديه ثوبان فليقسمهما بينه وبين من لا ثوب له. ومن كان لديه طعام فليفعل كذلك »[٢٧].

---

(١٨) ١٦ / ١٢٨، ٢٩ / ٦٩.
(١٩) ٧ / ٥٦.
(٢٠) ٢ / ١٩٥، ٣ / ١٣٤ و١٤٨، ٥ / ١٣ و٩٣.
(٢١) ٢ / ٢٥، ١٨ / ٢.
(٢٢) لوقا ١١ / ٤٠.
(٢٣) متى ١٩ / ٢١.
(٢٤) لوقا ١٢ / ٣٣.
(٢٥) لوقا ١٤ / ١٣ ـ ١٤.
(٢٦) متى ٦ / ١٩.

لقد بشّر المسيح زكّا الذي أعلن : « أتصدّق على الفقراء بنصف أموالي... قال له يسوع : « اليوم نال الخلاص هذا البيت » [٢٨] . وأقام بطرس من الموت « تلميذة اسمها طابيثة لأنها كانت غنيّة بالأعمال الصالحة والصدقات التي تعطيها » [٢٩]. وكلّم ملاك الله كرنيليوس لأنه « كان يتصدّق على الشعب صدقات كثيرة ... يقول له ملاك الله : صعدت صدقاتك إلى الله »[٣٠]. من أجل هذا أُرسِل المسيح: « أرسلني لأبشّر الفقراء »[٣١]، و« الفقراء يبشّرون » [٣٢] ، فـ« طوبى للفقراء فإن لهم ملكوت السماء » [٣٣] .

*****

هذه التعاليم الأبيونية هي أدلّة قاطعة لانتماء محمّد إلى جماعة النصارى الأبيونيين، إلى جانب ما تحصّل لدينا حتى الآن من أدلّة صريحة خلال عرضنا لسيرة محمّد وتعلمه على يد القس ورقة الأبيوني وفي إنجيل العبرانيين الذي كان بين يديه يحضر محمد نقله طيلة أربع وأربعين سنة. وقد رأينا سيرة عبد المطلب وندمائه، واهتمام أبي طالب بالفقراء رغم فقره، وأثر ذلك على محمّد.

أضف إلى ذلك ما تحقّق فعلاً في حياة محمّد : وهو أن جميع الذين اتّبعوه واستجابوا لرسالته هم من فقراء مكّة ومن طبقة « الأرذلين » « المستضعفين »[٣٤]، ومن « الأذلّة »[٣٥] والصعاليك؛ في حين أنّ طبقة الأثرياء « المترفين » [٣٦] ، المسمّين بـ« الملأ » [٣٧] الأعلى وبـ« الأعزّة » [٣٨] اضطهدوه وشنّوا عليه حربا ...

---

(٢٧) لوقا ٣ / ١١.
(٢٨) لوقا ١٩ / ٨.
(٢٩) أعمال الرسل ٩ / ٣٦.
(٣٠) أعمال الرسل ١٠ / ٢ ـ ٤.
(٣١) لو ٤ / ١٨ ـ أشعيا ٦١ / ٢.
(٣٢) متى ١١ / ٥، لوقا ٧ / ٢٣.
(٣٣) متى ٥ / ٣، لوقا ٦ / ٢٠.
(٣٤) القرآن ٢٦ / ١١١، ٢١ / ٢٧.
(٣٥) ٣ / ١٢٣، ٥ / ٥٤، ٢٧ / ٣٤ ...
(٣٦) ٣٤ / ٣٤.
(٣٧) ٢ / ٢٤٦، ٧ / ١٠، ١١ / ٢٧ ...
(٣٨) ٥ / ٥٤، ٢٧ / ٣٤، ٦٣ / ٨ ...

بل اتّهموه وسخروا منه واحتقروا كلامه وأعرضوا عن تعاليمه بحجّة أن الذين دخلوا في دعوته هم « أذلّة » معدومون وفقراء ضعفاء. قالوا له : « أنؤمن بك واتّبعك الأرذلون ؟ » (٢٦ / ١١١)، أو « وما نراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا » (١١ / ٢٧). وقد اعترف محمّد يوماً بأن الذين استجابوا دعوته هم بالفعل كذلك. وقالها مرّة لأصحابه في بدر : « لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة » (٣ / ١٢٣).

إلاّ أنّ النصر والخلاص والمغانم التي وعد بها النبي أصحابه سيفوزون بها بإذن الله. قال : « ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمّة ونجعلهم الوارثين » (٢٨ / ٥)، وقال أيضاً : « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها » (٥٩ / ٧). ثم وعدهم بمغانم كثيرة يحصلون عليها من غزواته التي فاقت السبعين عدّاً، فقال : « عند الله مغانم كثيرة » (٤ / ٩٤) « ومغانم كثيرة يأخذونها » (٤٨ / ١٩) و « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها » (٤٨ / ٢٠). ووعدهم أيضاً بالقضاء التام على أصحاب الثروة والمال « كي لا يكون دولة بين الأغنياء » (٥٩ / ٧).

ونفّذ محمّد ما وعد به فخرج بالمهاجرين إلى يثرب التي « تسيطر على طرق تجارة مكّة مع الشام من جهة الشمال، وهذا يعطي فرصة لتسديد ضربة قاتلة إلى مكة التي تعتمد على التجارة وقوافلها ... وفي نفس الوقت فإن موقع يثرب يتيح فرصاً واسعة لشنّ الغارات في اتّجاهات متعددّة، ويتيح فرصاً واسعة بالتالي للسيطرة على القبائل المجاورة لها » [٣٩] . من يثرب انطلق محمّد، على ما تقول كتب السير، « يريد عيراً لقريش » [٤٠] و « يعترض عيراً لقريش » [٤١] ،

---

(٣٩) حسنين كروم، نظرية الثورة والتنظيم في كتاب « محمّد نظرة عصرية جديدة » ، صفحة ١٧١.
(٤٠) ما قيل عن غزوة « ودان » ، ابن هشام ٢ / ١٧٠، الحلبية ٢ / ١٣٥.
(٤١) ما قيل عن غزوة « بواط » ، ابن هشام ٢ / ١٧٦، الحلبية ٢ / ١٣٥.

وفي غزوة « بدر » جمع الرسول أصحابه ودعا لهم قائلاً : « **اللهم إنهــم حفــاة فــاحملهم وعراة فاكسهم وجياع فاشبعهم**. وما منهم رجل إلاّ رجع بجمل أو جملين. واكتسوا وشــبعوا بما أصابوه » (٤٢) . وقبل الزحف على مؤتة دعا النبي لأصحابه قــائلاً : « دفــع الله عــنكم وردّكم غانمين » (٤٣) . وفيما الحرب في حنين تستعر جاء رجل رسول الله يقول له : « فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشبابهم اجتمعوا إلى حنين » . فتبسّم محمّد وقال : « تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله » . فأجمع أمر السير إلى هوازن، وخرج أهل مكّــة (الذين كانوا مع الرسول) ركباناً ومشاة حتى النساء يمشين على غير وهن يرجــون الغنــائم. وأمر رسول الله بالسبي والغنائم أن تجمع. فكان السبي ستة آلاف رأس والإبل أربعة وعشرين ألفاً والغنم أكثر من أربعين ألفاً وأربعة آلاف أوقية فضة » (٤٤) . ومن تبّوك « ظفر المسلمون بالغنائم والسبايا » (٤٥) ... ...

*****

تلك هي تعاليم الرسول في الحسنات والصدقات، وهذه هي غزواته وسيرته. في بادئ الأمر علّم فعل الخير والإحسان، ثم وعد بالجنّة لفاعليه، وبعدها ظفر بما وعد ولم يزل فــي طور الجهاد والتعليم، وأخيراً نفّذ بالأغنياء ما كان هدّد به. وذلك في سبيل القضاء على طبقة « الملاّ الأعلى » والأعزّة الميسورين وإعلاء شأن الأذلّة المحرومين المستضــعفين. وهكــذا **تغيّرت تعاليم**

---

(٤٢) السيرة الحلبية ٢ / ١٥٣ ـ ٢٠٥، ابن هشام ٢ / ١٨٢، ابن الأثير ٢ / ١١٦.
(٤٣) السيرة الحلبية ٣ / ٦٨ ـ ٧١، ومجمل السير وكتب المغازى.
(٤٤) السيرة الحلبية ٣ / ١٢١ ـ ١٣١، وغيرها من السير.
(٤٥) نفس المرجع ٣ / ١٤٧ ـ ١٧١. انظر الطبري، وطبقات ابن سعد ...

الأبيونيين والقسّ ورقة والكتاب العبراني من دعوة « طوبى إلى الفقراء » في متى ودعوة « الذين عملوا الصالحات طوبى لهمْ، في القرآن (١٣ / ٢٩) ... إلى دعـوة « عنـد الله مغانم كثيرة » (٤ / ٩٤).

لهذا السبب قال بعض الباحثين في نشأة الإسلام والقرآن بأن محمّداً دعا إلى إصـلاح مجتمع فاسد متصدّع، ودعم دعوته بتعاليم إنجيلية في الفقر وعمل البرّ والإحسـان، فـأوجز بندلي جوزى نظريات بعض المستشرقين في قوله :

« إنّ القول بأن الإسلام فكرة دينية محضة وإن ظهوره وتغلّبه على وثنيّـة العـرب وانتشاره السريع بين أكثر أمم الشرق وفتوحات الخلفاء الراشدين وبني أميّة الواسعة، ترجـع إلى الحماسة الدينيّة أو التعصّب الديني، يعد اليوم قولاً جزافاً بعيـداً عمـا أثبتتـه الأبحـاث التاريخيّة والاقتصاديّة، كأبحاث الأستاذ فيلهوزن والأمير كايتاني والأستاذ لامـنس ونولدكـه وعضو أكاديمية بطرسبرج بارتولد وغيرهم. فقد أصبح اليوم من المقرّر **أن الإسلام كغيـره من الأديان الكبيرة ليس فقط فكرة دينية بل مسألة اقتصادية واجتماعية أيضاً، أو بـالأحرى هو مسألة اقتصادية واجتماعية أكثر منه فكرة دينية. قال الأمير كايتاني : إن الإسلام لم يكن حركة دينية إذ لم يكن فيه دينياً إلاّ الظاهر، أما الجوهر فإنه كان سياسيّاً واقتصاديّاً** » [٤٦] .

إنها ملاحظة تلفت النظر وتستحق التوقف عندها، ولكن أهمّ منهـا أن نعـرف تلـك المصادر التي استقى منها الإسلام تعاليمه الاجتماعية وإصلاحه بين طبقات مجتمـع مكّـة. ورأينا من جهتنا أن الحركة الأبيونية الواسعة هي التي كانت الأساس والمعتمد في الإلهيـات كما في الاجتماعيات والماورائيات وسواها ...

(٤٦) بندلي جوزى، من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، صفحة ١٧ ...

رابعاً ـــ في الجنّة والنّار وأحوال المعاد

بين القرآن العربي والتقاليد النصرانيّة وفاق تام فيما يخصّ أحوال المَعَاد[١] . فأوصاف اليوم الأخير، وأحوال الجنّة والنار، والإيمان بالقيامة العامة، والاعتقاد بالحساب الأخير، هي نفسها في كلا المصدرين. الصور والتعابير والألفاظ تكاد تكون واحدة. لكأنّ القرآن ينقل نقلاً مباشراً عن التوراة والأناجيل والتقاليد النصرانية. وحسبنا أن نقابل :

١ ـــ اليوم الأخير :

يعلّم القرآن أن « الساعة » الأخيرة من هذا العالم « ستأتي بغتة »[٢]، وإنها « آتية لا ريب فيها »[٣]، و « تجيء كلمح البصر »[٤]، وقد تكون قريبةً: « لعل الساعة تكون قريباً »[٥].

وفي النصرانية، إن المسيح يجيء بغتة « في ساعة لا تتوقعونها »[٦]، في « ساعة لا يعلمها أحد »[٧]. سيأتي « كاللص ليلاً »[٨]. ويكون مجيئه « قريباً على الأبواب »[٩] وفي « لحظة وطرفة عين »[١٠].

---

(١) أعني بـ « المعاد » : Eschatologie
(٢) ٦ / ٣١ ، ٧ / ١٨٧ ، ١٢ / ١٠٧، ٢١ / ٤٠، ٢٢/ ٥٥، ٢٩ / ٥٣.
(٣) ٦ / ٤٠، ١٥ / ٨٥، ١٨ / ٢١، ٢٠ / ١٥، ٤٠/ ٥٩، ٤٥ / ٣٢.
(٤) ٤٣ / ٦٦، ٤٧ / ١٨.
(٥) ٣٣ / ٦٣.
(٦) متى ٢٤ / ٤٤.
(٧) متى ٢٤ / ٥٠.
(٨) متى ٢٤ / ٤٣.
(٩) متى ٢٤ / ٣٤.
(١٠) ١ كور ١٥ / ٥٢.

يصر القرآن على أن الله وحده « عنده علم الساعة » [١١] ، ويردّد بأن « علمها عند ربّي » [١٢] . و « علمها عند الله » [١٣] أمّا محمّد، على قربه من الله، فلا يعلم « متى هذا الوعد » [١٤] ، لأن الله « لا يظهر على غيبه أحداً » [١٥] .

وكذلك الأمر في النصرانية : « ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلمهما أحد، لا الملائكة، ولا الدين، إلاّ الآب » [١٦] .

أمّا أوصاف ذلك اليوم المَعَادي الأخير فرهيبة في القرآن، فمظاهر الكون كلها تتبدّل : فيه « تنشق السماء » (٨٤ / ١) وتنفظر (٨٢ / ١) وتنكشط (٨١ / ١١) وتكون كالمُهْلِ (٧٠ / ٨) أي كالفضة الذائبة، وتمور موراً (٥٢ / ٩)، وتصبح كالدخان (٥٥ / ٣٧) وتشقق بالغمام (٢٥ / ٢٥) وتطوى كطيّ السجل للكتب (٢ : ١٠٤) ويومئذ تتكدر الشمس (٨١ / ١) ويخسف القمر (٧٥ / ٩) وينشق (٥٤ / ١) ويتّسق (٨٤ / ١٨) ويجمع بين الشمس والقمر (٧٥ / ٩) بعد أن كانا لا يجتمعان ولا يلتقيان (٣٦ / ٤٠). تتكدر النجوم (٨١ / ٢) وتنتثر الكواكب (٨٢ / ٢) وتفجّر البحار وتسجّر (٨١ / ٦، ٥٢ / ٦، ٨٢ / ٣).

ويستفيض الإنجيل والتقاليد النصرانيّة بوصف ذلك اليوم الذي فيه « تظلم الشمس ويفقد القمر ضوءه وتتساقط النجوم من السماء، وتتزعزع كواكب السماوات »[١٧]، و « يطوي الله السماء كمن يطوي رداء » [١٨] ، و « تفتّح أبواب السماء وتهدّم وتتمزّق أحجبتها » [١٩] ، و « القمر يحمّر » [٢٠] ، ويتحوّل إلى لون الدماء » [٢١] ، و « يجمع فيما بين النيّرين : الشمس والقمر » [٢٢] ...

---

(١١) ٤٣ / ٨٥.
(١٢) ٧ / ١٨٧.
(١٣) ٣٣ / ٦٣.
(١٤) ١٠ / ٤٨.
(١٥) ٧٢ / ٢٦.
(١٦) متى ٢٤ / ٣٦.
(١٧) متى ٢٤ / ٢٩.
(١٨) أشعيا ٣٤ / ٣٤، رؤيا ٤ / ١٤.
(١٩) IV Esdras, VI, 14 – 26.
(٢٠) أشعيا ٢٤ / ٢٣.
(٢١) يوئيل ٣ / ٤، أعمال الرسل ٢ / ٢٠.
(٢٢) Livers Sibyllins, II.

في ذلك اليوم ترتجف الأرض (٢٣ / ١٤) وتزلزل زلزالها (٩٩ / ١) وتحدث زلزلة عظيمة (٢٢ / ١) وشديدة (٧٣ / ١١) وتبدّل الأرض غير الأرض (١٤ / ٤٨). وتمتدّ جبالها سهولاً (٨٤ / ٣) وتدك دكّة واحدة (٦٩ / ١٢) وتشقق سراعاً (٥٠ / ٤٤) وترتجف (٧٤ / ١٤) وتكون كالصوف المنفوش (٧٠ / ٩، ١٠ / ٥) وتسير سيراً (٥٢ / ١٠) وتنسف نسفاً (٧٧ / ١٠) وتبسّ بسّاً (٥٦ / ٥) وتخرّ هدّاً (١٩ / ١٠) فتصبح هباءً منثوراً (١٨ / ٤٧).

في هذا اليوم « تحدث زلازل هنا وهناك » [٢٣] ، وتذوب الصخور وتصير رماداً منثوراً » [٢٤] ، و « تذوب السماوات كالرصاص في النار » [٢٥] ... ...

في ذلك اليوم

تنزل الملائكة على الناس (٢٥ / ٢٥) وتلقاهم (٢١ / ١٠٣) وتقابلهم (١٧ / ٩٣) ويدخلون عليهم من كل باب (١٣ / ٢٣) ويأتي الله في ظلل من الغمام والملائكة (٢ / ٢١٠) ويجتمع الملائكة صفاً صفاً (٨٩ / ٢٣).

في يوم الدين يحضر الملائكة كشهداء على أعمال البشر وكمشتكين على سيئاتهم « هوذا الرب قد أتى في ألوف قديسيه ليجرى القضاء على جميع الخلق ويخزى المنافقين جميعاً في كل نفاق اقترفوه وكل كلمة سوء قالها عليه الخاطئون المنافقون » (يهوذا ١٤ ـ ١٥).

في ذلك اليوم

يحدث برق ورعد ومخاوف عظيمة (٢٤ / ٤٣، ٢ / ٢٠، ٣٠ / ٢٤) ... ويكون جوع عظيم (٨٨ / ٧).

تحدث مجاعات هنا وهناك (متى ٢٤ / ٧).

ينقر في الناقور (٧٤ / ٨) وينفخ في الصور (٦ / ٧٣) وتسمع صيحة في كل مكان تهتز لها الأرض وترتجف فرائص البشر وتخشع لها أبصارهم[٢٦]

يرسل الله ملائكته بالصور (متى ٢٤ / ٣١)، وينفخ في البوق (١ كور ١٥ / ٥٢) وتسمع صيحة (١ تسا ٤ / ١٦) تنتحب لها جميع قبائل الأرض (متى ٢٤ / ٣٠).

---

(٢٣) متى ٢٤ / ٧.

(٢٤) Ap. de Jean (ap.) 81 ..

(٢٥) II Clément, XVI, 3.. V. As. De Moise, 225..

(٢٦) انظر ٥٠ / ٤٢، ١١ / ٦٧ و٩٤، ١٥ / ٧٣ و٨٣، ٢٣ / ٤١، ٢٩ / ٤٠، ٣٦ / ٢٩ و٤٩ و٥٣، ٥٤ / ٣١، ٧٩ / ٦ ـ ٩، ٧٠ / ٤٤، ٨٢ / ٤، ٥٤ / ٧، ٥٠ / ٤٢ ...

فيه « تذهل كل مرضعة عمّا أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها » (٢٢ / ٢)

« ويل للحبالى والمرضعات » (متى ٢٤ / ١٩)

و« يجعل الولدان شيباً » (٧٣ / ١٧).

« يرى على رؤوس الشبّان شعر أبيض » [٢٧]

« يفرّ المرء من أخيه وأمّه وأبيه وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » (٨٠ / ٣٤). فيه « لا يسأل حميم حميماً » (٧٠ / ١٠) و « لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً » (٣١ / ٣٣) « ولا يغني مولى عن مولى شيئاً » (٤٢ / ٤١) « ولا تملك نفس لنفس شيئاً » (٨٢ / ١٩).

فيه « يسلم الأخ أخاه إلى الموت والأب ابنه ويثور الأبناء على والديهم فيقتلونهم » (متى ١٠ / ٢١). « على كل واحد أن يحمل حمله » (غلا ٦ / ٥) « لا أحد يشفع لأحد : لا أب ولا أم ولا أخ ولا صديق ولا قريب. لا يحمل أحد حمل آخر. كل مسؤول عن أعماله » [٢٨] .

إنه يوم « لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة » (٢ / ٤٨).

إنه يوم لا تنفع فيه شفاعة : « الحق أقول لكن إني لا أعرفكنّ » (متى ٢٥ / ١٣).

في ذلك اليوم لا شيء يفيد الإنسان سوى أعماله الخيّرة : « للذين استجابوا لربهم لهم الحسنى. والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به. أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنّم » (١٣ / ١٨).

في التقاليد اليهودية النصرانية: « ... لا تقدر فضّتهم وذهبهم على انقاذهم في يوم غضب الرب. ولا يشبعون نفوسهم ولا يملأون أجوافهم بهما لأنهما كانا معثرة لهم » (حز ٧ / ١٩، صفنيا ١ / ١٨).

هو « يوم لا ينفع مال ولا بنون » (٢٦ / ٨٨). ومنهم من اعتبر كثرة الأموال والأولاد تنجيهم فافتخروا : « نحن أكثر أموالاً وأولاداً. وما نحن بمعذبين» (٣٤ / ٣٥).

« لا ينفع المال في يوم الغضب » (أمث ١١ / ٤) « الويل لكم أيها الأغنياء لأنكم ثقتم بغناكم. ستحرمون منها لأنكم لم تذكروا العلي يوم غناكم. لقد نضجتم ليوم الدين العظيم » [٢٩] .

وفي نهاية ذلك اليوم المشهود تحدث القيامة العامة ويبتدئ الحساب العسير، ويحضر الناس أمام الله الديّان العادل، كل يحمل أعماله في كتاب، وتوزن بميزان العدل، فيذهب الأبرار إلى اليمين والأشرار إلى الشمال ...

---

(٢٧) Ap. de Thomas (ap.), Sibyllins, 2

(٢٨) IV Esdras, X, 104-105; II Hénoch, LII, 1….

(٢٩) I Hénoch, XCIV, 8-9….

فيه يحضر الناس أمام الله « أشتاتاً » (٩٤ / ٦) ويكون الفصل بين الأبرار أصحاب اليمين (٥٦ / ٨ و٣٧) وبين الأشرار أصحاب الشمال (٥٦ / ٩ و١٠) ويخيّم على الجميع صمت رهيب (٢ / ١٠٧) ويبتدئ الحساب (٨٤ / ٨) وتكشف الأعمال والخفيات (٦٩ / ١٨، ١٨ / ٤٦) بحسب كتاب الأعمال لأن لكل إنسان كتاباً خاصاً تدوّن فيه أعماله[٣٠] .	« وتحشر لديه جميع الأمم ... فيفصل (الناس) بعضهم عن بعض. فيقيم النعاج (الأبرار) عن يمينه والكباش (الأشرار) عن شماله » (متى ٢٥ / ٣٢)... « ويجازى يومئذ كل امرئ على قدر أعماله (١٦ / ٢٧) « كل واحد سيؤدي عن نفسه حساباً لله » (رو ١٤ / ١٢) ... ثم تفتح الكتب... ومن لم يوجد مكتوباً في سفر الحياة طرح في مستنقع النار » (رؤيا ٢٠ / ١٢ ـ ١٥، ٣ / ٥، دانيال ٧ / ١٠) ...
« وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » (٢٤ / ٢٤) « ويشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم » (٤١ / ٢٠٩) و (٣٦ / ٦٥).	« كل أعضائكم تشهد عليكم في البيت الأزلي » [٣١].
وتوزن الأعمال : « فمن ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية. وأما من خفت موازينه فأمّه هاوية ... نار حامية » (١٠١ / ٦ ـ ١١)	يزن الله أعمال الإنسان في ميزان العدل : يقول أيوب: « ليزنّي (الله) في ميزان العدل : إنْ كانت خطواتي قد جارت عن الصراط المستقيم » (٣١ / ٦).

٢ ـ أحوال الجنّة :

في القرآن العربي كما في التقاليد النصرانية جنة واحدة في أوصافها وأحوالها ومحتوياتها. وأوّل ما يتوقّف عنده الباحث في الجنة تلك الماديّة المفرطة من شهوات حسية متطرفة، ومآكل متنوّعة، وملذات جسدية صاخبة. وما يسترعي منّا الاهتمام والانتباه تلك **المقابلة القريبة بين جنة القرآن وفردوس مار افرام السرياني (+ ٣٧٩) الملقّب بـ« كنارة الروح القدس »** .

---

(٣٠) ٧٨ / ٢٩، ٨٢ / ١٠ ـ ١٢، ٣٦ / ١١، ٢١ / ٩٤ ...
(٣١) Le Talmud, sur Ecclés. 4, 5; v. Cohen, p. 454…

ترتفع الجنّة القرآنية عن الأرض في مكان عال حيث يتكئ الصدّيقون « في جنّة عالية » (٦٩ / ٢٢، ٨٨ / ١٠) ويرون الهالكين تحتهم وهم فوق (٧ / ٤٤). ويحدّد مار افرام فردوسه في قوله : « إن قمم الجبال كلها تحت شرفة قمّته، عرف الطوفان بلغ حدّ عقبيه، فلثم رجليه وسجد وتقهقر، ليتسلق الجبال والذرى فيدرس رأسها. فإذا به يقبّل قدمي الفردوس، ويطأ الرؤوس كافّة » (٣٢) .

ومساحة الجنّة القرآنية لا تحدّ، بل « عرضها كعرض السماء والأرض » (٥٧ / ٢١) و « جنّة عرضها السماوات والأرض » (٣ / ١٣٧). لها طبقات ودرجات بحسب درجات الأبرار وطبقاتهم : « المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربّهم » (٨ / ٤)؛ وقد تكون هذه الدرجات بحسب تصنيف اعتمده القرآن مبتدئاً بـ« النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » (٤ / ٦٩). ويحدّد التلمود درجات الجنّة فإذا هي سبع(٣٣) ، وعند مار أفرام ثلاث : « أرضه (الفردوس) للتائبين، ووسطه للصديقين، وقمته للمنتصرين (الشهداء)، وقبّته سكنى الله » (٣٤) ، وعند القديس بولس ثلاث سماوات أيضاً(٣٥) . وفي كل درجة غرف ومنازل كثيرة لكل أصناف المختارين، يقول القرآن : « الذين اتّقوا ربّهم لهم غرف من فوقها، وغرف مبنية تجري من تحتها الأنهار » (٣٩ / ٢٠)، وفي الإنجيل ما يشابه هذا القول: « في بيت أبي منازل كثيرة » (٣٦) .

وللجنّة أبواب يدخلها المتّقون المؤمنون « جنّات مفتحة لهم الأبواب » (٣٨ / ٥٠)، و « سيق الذين اتّقوا ربّهم إلى الجنّة زمراً، حتى إذا جاؤوها

---

(٣٢) « منظومة الفردوس » لمار أفرام السرياني، تعريب الأبوين روفائيل مطر ويوحنا الخوند، النشيد الأوّل ٤.
(٣٣) A. Cohen, Le Talmud, Chap. Jardin d'Eden..
(٣٤) منظومة الفردوس، النشيد الثاني ١١.
(٣٥) رسالة القديس بولس إلى أهل كورنتس ١٢ / ٢.
(٣٦) إنجيل القديس يوحنا ١٤ / ٢.

فتّحت أبوابها » (٣٩ / ٧٣). و « الملائكة يدخلون عليهم من كل بـــاب » (١٣ / ٢٣). وفي سفر الرؤيا، لأورشليم السماوية « سور شامخ له اثنـــا عشر بابـــاً، عليها اثنـــا عشـــر ملاكاً »[٣٧]، وفي التلمود للفردوس بابان فقط[٣٨] ، وعهد لاوي لا يحدد العدد[٣٩] ، ومار افرام يؤكّد وجود باب في قوله : « لأن الباب قد فتح، فيا طوبى لمن يقدم » [٤٠] ، وفي قوله: « منذ الآن صغ لك، خذ مفتاح الفردوس لأن الباب لمبادر إليك. يتألّق ويضحك لك البـــاب الفهّامـــة يقيس الداخلين » [٤١] .

أمّا السعادة القصوى في جنّة القرآن كما في فردوس النصارى فتقوم على رؤيـــة الله ومعرفته ورضوانه على المؤمنين الأبرار. ذلك هو الفوز العظيم : « لهم جنّـــات رضـــي الله عنهم ورضوا عنه. ذلك الفوز العظيم » (٥ / ١١٩)[٤٢] . وسعادة الدنيا، بمقابـــل ســـعادة الآخرة، ليست سوى بهجة عابرة وخادعة : « وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيـــك ربّك فترضى » (٩٣ / ٤ ــ ٥) وأيضاً : « اعلموا انّما الحياة الدنيا لعـــب ولهـــو وزينـــة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ... وفي الآخرة عـــذاب شـــديد ومغفـــرة مـــن الله ورضوان. وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور » (٥٧ / ٢٠). هذه هي كنوز الأرض حيـــث يرعى السوس والعثّ وينقب اللصوص، بمقابل كنوز السماء حيث لا يرعى السوس والعـــثّ، ولا ينقب السارقون[٤٣] .

هذه السعادة تقوم على الفرح والسلام الدائمين، إذ الجنّة هي « دار الســـلام » (٦ / ١٢٧، ١٠ / ٢٥) أو « دار راحة الله » ، كما تقول الرسالة إلى

---

(٣٧) رؤيا ٢١ / ١٢، حز ٤٨ / ٣٠.
(٣٨) Le Talmud, p. 456-57.
(٣٩) Test. de Lévi, 18/ 10...
(٤٠) منظومة الفردوس ١٣ / ١٣، انظر ١٥ / ٢، ٨ / ١١.
(٤١) الفردوس ٢ / ٢، انظر ٣ / ١٣.
(٤٢) القـــرآن ٣ / ١٥، ٩ / ٢١ و٧٢، و١٠٠، ٥٨/ ٢٢، ٩٨ / ٨، و٢٧ ـ ٣٠.
(٤٣) إنجيل متى ٦ / ١٩ ـ ٢١.

العبرانيين[٤٤] ، حيث لا خوف ولا حزن : « أدخلوها بسلام آمنين » (١٥ / ٤٦)، « ادخلوا الجنّة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون » (٧ / ٤٩). وهكذا هو فردوس مار افرام « حيث لا عناء فيه » [٤٥] ، « يسكنه الجمال لا عيب فيه، والأمان لا قلق » [٤٦] . لا يسمع الأبـــرار في الجنّة أية كلمة كاذبة أو باطلة، بل سلاماً وأماناً : « لا يسمعون فيه لغواً ولا تأثيمـــاً، إلاّ قيلا: سلاماً سلاماً » (٥٦ / ٢٥)، و« كل ضحكة صغيرة أو كبيرة تجرّ الويل والتعاسة »[٤٧] فهي لا توجد في الجنّة من قول القرآن : « كل صـــغير وكبيـــر مســـتطر » (٥٤ / ٥٣). ويصف مار افرام فردوسه في قوله : « الويل لمن يضيع في الضحك والثرثرة هـــذا اليـــوم الصالح للتوبة » [٤٨] ، « لأنّ التعاسة ستكون مجازاة الضاحكين » [٤٩] .

لا شمس حارقة ولا برد قارس، في الجنّة القرآنية، بل « وجوه يومئذ ناعمة » (٨٨ / ٨) و « وجوه ناضرة » (٧٥ / ٢٣) و « مسفرة ضاحكة مستبشرة » (٨٠ / ٣٨) لكأنّك « تعرف في وجوههم نضرة النعيم » (٨٣ / ٢٤). وسبب ذلك أنهم « لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً » (٧٦ / ١٣) ... وهو حال أصحاب الفردوس حيث « قوارس البرد ولواهب الحرّ لا وجود لها في ذلك الموضع المبارك الشهيّ » [٥٠] ، كما ورد في أشيعا : « لا يقرعهم الحرّ ولا الشمس » [٥١] ، وفي سفر الرؤيا : « لن تلفحهم الشمس ولا السموم » [٥٢] ، وفـــي زكريا : « في ذلك اليوم لا يكون نور، بل قرّ وجليد » [٥٣] عكس ما هي عليه الجنّة.

---

(٤٤) عبـــــرانيين ٣ / ١١ و١٨، ٤ / ١، و٣ و٥ و٨ و١١ ...
(٤٥) منظومة الفردوس ١ / ٥.
(٤٦) نفس المرجع ٥ / ١٢.
(٤٧) ابن العباس يفسّر ٥٤ / ٥٣.
(٤٨) St. Ephrem, Op. Gr. 2.
(٤٩) St. Ephrem, Op. Gr. 3.
(٥٠) منظومة الفردوس ١١ / ٢.
(٥١) اشعيا ٤٩ / ١٠.
(٥٢) سفر الرؤيا ٧ / ١٦.
(٥٣) زكريا ١٤ / ٦.

إن أصحاب الجنّة يصرخون ليل نهار بحمد الله فـ« دعواهم فيها : سبحانك الله. وتحيّتهم فيها سلام. وآخر دعواهم : الحمد لله رب العالمين » (١٠ / ١٠، ٣٥ / ٣٤). وأصحاب الفردوس « يصيحون بصوت جهير : النصر لإلهنا ... الحمد والمجد والحكمة والشكر والإكرام والقوة والقدرة أبد الدهور » [٥٤] .

أما وصف الجنّة القرآنيّة وما فيها من ملذات فهو كما يلي :

إن للأبرار « جنّات تجري من تحتها الأنهار » [٥٥] و « عيون ماء » [٥٦] . ويرى القرآن عدد الأنهار فإذا هي أربعة : واحد من ماء، وثان من لبن، وثالث من خمر، ورابع من عسل مصفّى. يقول : « فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى » (٤٧ / ١٥). هذه الأنهار الأربعة تذكّرنا بأنهار سفر التكوين الأربعة[٥٧] ، وهي تعطي، بحسب القرآن، أحسن ما تنتجه الأرض[٥٨] ، كما هو حال أرض ميعاد العبرانيين التي يغزر فيها العسل واللبن والمياه والزيت والحنطة والشعير والكرم والتين والرمان[٥٩] ... وتختلف خيرات الأنهار

---

(٥٤) سفر الرؤيا ٧ / ٩ ـ ١٢.
(٥٥) ترد هذه الصيغة حوالي الخمسين مرّة، انظر مثلا : ٢ / ٢٥، ٣ / ١٥، ١٣٦، ١٩٥، ١٩٨، ٤ / ١٣، ٥٧، ١٢٢، ٥ / ١٢، ٨٥، ١١٩، ٧ / ٤٣، ٩ / ٧٢، ٨٩، ١٠٠، ١٠ / ٩، ١٣ / ٣٥، ١٤ / ٢٣، ١٦/ ٣١، ١٨ / ٣١، ٢٠ / ٧٦، ٢٢ / ١٤، ٢٣، ٢٥ / ١٠، ٢٩/ ٥٨، ٤٧ / ١٢، ٤٨ / ٥، ١٧، ٥٧/ ٢٣، ٥٨ / ٢٢، ٦١ / ١٢، ٦٤ / ٩، ٦٥ / ١١، ٦٦ / ٨، ٨٥ / ١١، ٩٨ / ٧ ... وغيرها.
(٥٦) ترد هذه العيون حوالي العشر مرات : ١٥ / ٤٥، ٤٤ / ٥٢، ٥١ / ١٥ ...
(٥٧) سفر التكوين ٢ / ١٠ ـ ١٤.
(٥٨) القرآن ١٦ / ٦٥ ـ ٦٩.
(٥٩) تثنية ٨ / ٧ ـ ١١، ٦ / ٣، ١١ / ٩، خروج ٣ / ٨، ٢٧، ١٣ / ٥ ...

بحسب المصادر. ففي التلمود : لبن وعطر وعسل وخمر[٦٠] ، وفي رؤيا بولس : الزيت بدل الماء، وفي إسراء موسى : العطر بدل الماء، وفي رؤيا يشوع بن لاوى : الزيت والعطور بدل الماء اللبن، وفي فردوس مار افرام : الخمر واللبن والعسل والزبد[٦١] .

وتعود سعادة الجنة القرآنية إلى ما فيها من خيرات ومآكل شهيّة: فـ« أكلها دائم » (١٣ / ٣٥) من « فواكه كثيرة » (٤٣ / ٧٣، ٣٨ / ٥١) يشتهونها (٧٧ / ٤٢، ٥٢ / ٢٢) ويتخيّرون منها ما يطيب لهم (٥٦ / ٢٠). فيها من كل الثمرات (٤٧ / ١٥) يدنيها الله من يد المتّقين ليسهل عليهم القطاف والأكل : « قطوفها دانية » (٦٩ / ٢٣)، و « ذلّلت قطوفها تذليلاً » (٧٦ / ١٤) أي « ينالها القائم والقاعد والمضطجع » (تفسير الجلالين)...

هكذا حال فردوس مار افرام حيث « الثمار من كل طعم في مطال اليد » [٦٢] . وأخصّ فواكه الجنّة الأعناب (٧٨ / ٣٢) والنخل والرمان (٥٥ / ٦٨)، ولحم الطيور (٥٦ / ٢٠، ٥٢ / ٢٢). لكأنها وليمة مبسوطة أمام الأبرار حيث الأكل الدائم (١٣ / ٣٥). ويصف مار افرام فردوسه بقوله : إن « الأبرار ... وجدوا الفردوس مائدة الملكوت مبسوطة أمامهم » [٦٣] ، أو هي « وليمة الملكوت طوبى لمن استحقها » [٦٤] .

أمّا مشروب الجنّة القرآنيّة المفضّل فهي الخمرة. إنها تشرب في « أكواب » [٦٥] وفي « كؤوس » [٦٦] و « أباريق » [٦٧] و « صحاف من ذهب » [٦٨] و « آنية من فضّة » [٦٩] . يشربها الصالحون كأساً من معين بيضاء لذّة للشاربين لا تغتال

(٦١) الفردوس ١٠ / ٦.
(٦٢) الفردوس ٩ / ٤.
(٦٣) الفردوس ٢ / ٥.
(٦٤) الفردوس ٧ / ٢٤، انظر : ٧ / ٢٦، ٩ / ٧ و٨، ١١ / ١٥ ...
(٦٥) ٤٣ / ٧١، ٥٦ / ١٨، ٧٦ / ١٥ ...
(٦٦) ٧٨ / ٤٣، ٧٦ / ١٨، ٥٦ / ١٧...
(٦٧) ٥٦ / ١٧.
(٦٨) ٤٣ / ٧١.
(٦٩) ٧٦ / ١٥.

عقل الإنسان ولا تسكره كخمرة الدنيا، يقول القرآن : « يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين. لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون » (٣٧ / ٤٥ ــ ٤٧، ٥٦ / ١٨). لا تعرّض الأبرار إلى الكلام الباطل أو إلى الإثم والكذب : « يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم » (٥٢ / ٢٣). إنها خمرة طيّبة من « رحيق مختوم » (٨٣ / ٢٥) أي من قدم الدنيا في عتاقها. لإنها شراب طهور (٧٦ / ٢١) مزاجه الزنجبيل (٧٦ / ١٨) والكافور (٧٦ / ٥). لقد أصبحت الخمرة في الجنّة حلالاً طيّباً بعدما كانت على الأرض محرّمة على المؤمنين ...

وخمرة الفردوس الافرامي لا تقلّ جودة عن خمرة الجنة القرآنية، ومن يمتنع عن شربها هنا نالها هناك بسخاء : « من صام عن الخمر زاهداً، هفت إليه دوالي الفردوس واحدة فواحدة تنيله عنقودها » [٧٠] . وهي كخمرة التلمود التي « احتفظ بها الله منذ اليوم السادس للخليفة » [٧١] .

يستريح الأبرار في جنّة القرآن على « سرر مرفوعة » (٨٨ / ١٣) و « مصفوفة » (٥٢ / ٢٠) متقابلين بعضهم تجاه بعض (٣٧ / ٤٤). لكل منهم غرفة يلقون فيها تحية وسلاماً (٢٥ / ٧٥) وغرف مبنية تجري من تحتها الأنهار (٣٩ / ٢٠). هم فيها آمنون (٣٤ / ٣٧) يتكئون على الأرائك (١٨ / ٣١) مع أزواجهم (٣٦ / ٥٦). وهم ينظرون منها نضرة النعيم (٨٣ / ٢٣). ينبسطون على « فرش مرفوعة » (٥٦ / ٣٤) بطانتها من استبرق (٥٥ / ٥٤). ويلبسون ثياباً نضرة خضراء من سندس واستبرق[٧٢] وحرير[٧٣]. ويحلون بأساور من ذهب ولؤلؤ[٧٤] ، ويتوسّدون « رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَان » (٥٥ / ٧٦) أي « أوسدة خضراء وطنافس جميلة » (تفسير الجلالين) [٧٥] ...

---

(٧٠) الفردوس ٧ / ١٨.
(٧١) Le Talmud, p. 455; Ber.
(٧٢) ١٨ / ٣١، ٤٤ / ٥٣، ٧٦ / ٢١.
(٧٣) ٢٢ / ٢٣، ٣٥ / ٣٣.
(٧٤) ٢٢ / ٢٣، ٣٥ / ٣٣.
(٧٥) تفسير الجلالين لـ ٥٥ / ٧٦.

وهو حال المخلّصين في فردوس مار افرام يتنعمون بمآكل وألبسة ولذات لا حدود لها ولا نهاية. وهم، بعد آدم وحواء « اللذين أضاعا ثيابهما، قد استرداها جديدة بيضاء » [٧٦] يستحقون الطوبى والحلل الزاهية البيضاء: « طوبى لمن استحق أن يرى حلّتهم »[٧٧]، « ذكور وإناث يشتملون بلباس من نور، يحجب ألقه ملامح السوءة » [٧٨] . وكل واحد منهم « التحف الضياء » [٧٩] ، ولبس النور ...

هؤلاء المخلّصون، يصفهم مار افرام بقوله : « يولمون في الأشجار خلل الهواء الطلق. تحتهم الأزاهير وفوقهم الأثمار. فسماؤهم ثمر وأرضهم زهر ... غمامة فوق الرؤوس مظلة من ثمر، وبساطاً تحت الأقدام منبسطاً من زهر » [٨٠] . ثم يوجز مار افرام نعيم الفردوس قائلاً : « أثمار قدسية، حلل نورية، أكاليل مشعة، مراق علية، مناعم ولا عناء، لذات ولا رعب، عرس أبدي، ولا نهاية » [٨١] . وقد سبق أشعيا النبي مار افرام في وصف أهل الفردوس بقوله : « إن الله ألبسني ثياب الخلاص، وشملني برداء البرّ، كالعريس الذي يتعصّب بالتاج وكالعروس التي تتحلّى بزينتها » (٦١ / ١٠)، وسفر الرؤيا أيضاً يقول: « سيلبسني الغالب ثوباً أبيض » (٣ / ٥) والمخلّصون « يلبسون حللاً بيضاء » (٧ / ٩ و١٤) والشيوخ حول العرش يلبسون ثياباً بيضاً وعلى رؤوسهم أكاليل من ذهب » (٤ / ٤)...

وما يزيد في بهجة الجنّة القرآنية وجمالها الفتان وملذاتها العارمة « حوريّات » خلقهنّ الله حديثاً وخصيصاً للمتقين الأبرار : « أنشأناهنّ إنشاء » (٥٦ / ٣٥). هنّ أبكار على الدوام (٥٦ / ٣٦)، كلّما باشرهنّ أصحاب الجنّة لمسوا

(٧٦) الفردوس ٦ / ٩.
(٧٧) الفردوس ٦ / ١٨.
(٧٨) الفردوس ٧ / ٥، ٩ / ٢٨.
(٧٩) الفردوس ٦ / ٢٣.
(٨٠) الفردوس ٩ / ٥.
(٨١) الفردوس ١٤ / ٨.

بكارتهن كأنّهم معهنّ لأول مرّة، وعرفوا فيهنّ « عربا » (٥٦ / ٣٨) أي عاشقات لأزواجهنّ، و « أترابا » (٥٦ / ٣٧، ٧٨ / ٣٣، ٥٢)، أي مستويات في العمر مع أزواجهنّ وفيما بينهنّ، ورأوهنّ « كواعب » (٧٨ / ٣٣) أي تكعّبت أثديتهنّ، استثارة للذة والمتعة البالغة. إنّهنّ، مع وفرة الجمال فيهنّ، يتصّفن بالعفّة، وبالنظر فقط إلى أزواجهنّ، فهنّ « قاصرات الطرف » [٨٢] . يوصفن بالبهاء، فهن كاللؤلؤ المكنون (٥٦ / ٢٣) والياقوت والمرجان (٥٥ / ٥٨). وهنّ « بيض مكنون » (٣٧ / ٤٩) و « حور عين »[٨٣]. وهنّ « أزواج مطهّرة »[٨٤] من الحيض والطمث وكل قذر ممكن. يلازمن خدرهنّ، فهنّ « حور مقصورات في الخيام. لم يطمثهنّ أنس قبلهم ولا جان » [٨٥] . شغل المتنعمين في الجنّة معهنّ باستمرار، والمتّقون بهنّ فاكهون على الدوام : « إن أصحاب الجنّة اليوم في شغل فاكهون. وهم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون » (٣٦ / ٥٦) ... لهنّ من العمر ثلاث وثلاثون سنة، لا يكبرن عنها أبداً [٨٦] ... إلى هذا العمر يشير كتاب رؤيا يوحنا المنحول حيث يقول : « لهنّ من العمر ثلاثون. وكل البشر سيقوم يوم القيامة العامّة بهذا العمر » [٨٧] .

يقوم في خدمة أصحاب الجنّة وأزواجهم غلمان وولدان « مخلّدون » (٥٦ / ١٧، ٧٦ / ١٩) « كأنّهم لؤلؤ مكنون » (٥٢ / ٢٤)، « إذ رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً » (٧٦ / ١٩) ... إن هذه الأوصاف هي أوصاف الحوريات نفسها. ويخشى، لهذا، أن يكون للأبرار الذين لا يلذّ لهم نكاح الإناث، أو الذين لا يكفيهم ذلك، ان يكون لهم حظّ اللواط كمتعة مرغوبة في جنّة القرآن ...

---

(٨٢) ٣٨ / ٥٢، ٥٥ / ٥٦، ٣٧ / ٤٨.
(٨٣) ٥٦ / ٢٢، ٥٥ / ٧٢، ٥٢ / ٢٠، ٤٤ /٥٤...
(٨٤) ٢ / ٢٥، ٣ / ١٥، ٤ / ٥٧.
(٨٥) ٥٥ / ٥٦، ٥٥ / ٧٠ ـ ٧٤.
(٨٦) انظر تفسير القرآن للبخاري والزمخشري، وغيرهما ...
(٨٧) رؤيا يوحنا المنحول ١٠.

أمّا الخدمة، في فردوس مار أفرام السرياني، فتناط بـ« نسيمات » الهواء. يقول: « تهبّ النسيمات الطيّبات، من كل لون. يحملن الأطباق... والمدعوون المولمون لا يبرحون... حيث الخدّام يخدمون لا يتعبون... النسيمات في الفردوس يتنقلن أمام الأبرار، تخفّ الواحدة بالطعام، والأخرى تصبّ الشراب. هبوب تلك سمن، ومهبّ هذه رواء : من رأى قط نسمات يأتين بنفحات تؤكل، وأخرى بنفحات تشرب، واحدة تنفخ بندى، وأخرى يطيب ... نفحة ترويه، ونفحة تشبعه ... نسيم يرفّهك، ونفح يلذذك. واحد يسمّنك، وآخر ينعمك ... » (٨٨) .

*****

لا أقول إن القرآن العربي نقل مباشرة عن مار أفرام السرياني أو عن سواه، ولا أقول أن محمّداً كان مطلعاً على شوارد الجنّة النصرانيّة وأوصافها كلها ... بل إن أفكار مار أفرام كانت شائعة في الكنيسة السريانية النصرانية، ومعروفة لدى جميع آبائها وكتّابها. والصلة بين القرآن ومؤلّفات الكنيسة السريانية لم تكن فقط نتيجة جوّ عامّ عاش فيه محمّد وأخذ عنه، بل كانت بواسطة تعاليم ونصوص عرفها شفهياً وكتابة على السواء، وعرفها بواسطة معارفه الشخصية واحتكاكه المباشر ببعض مؤلّفات السريان ...

وكان الكلام على الجنّة وأحوالها من أبرز ما اهتمّت به الكنيسة السريانيّة في كرازتها وتقواها وكانت « تقوى القرآن المَعادية قريبة الصلة بالمفاهيم الدينية التي كانت مسيطرة في الكنيسة السريانية في زمن محمد وقبله » (٨٩).

---

(٨٨) الفردوس ٩ / ٦، ٩ / ٧، ٩ / ٨، ٩ / ٩، ٩ / ١١.

(٨٩) Tor Andrae, Les Origines de l'Islam et Christianisme, Trad. J. Roche, Paris 1955, p. 145

٣ــ جهنّم :

في القرآن كما في التوراة والتلمود والأناجيل أسماء عديدة واستعارات كثيرة تدلّ على جهنّــم. فلفظة « جهنم » الــواردة نحواً من ٧٧ مرّة في القرآن تعني لغـــة « وادي ابــن هنّوم »[٩٠] حيث هيكل الإله « مولك » وحيث يحرق الوثنيون ضحاياهم البشــرية، فأصــبح بذلك « وادي ابن هنّوم وادي القتل الذي فيه تصير جثث الشعب مأكلاً لطير السماء ولبهــائم الأرض » [٩١] ، وحيث « جثث النـــاس الذين عصوني؛ لأن دودهم لا يمـــوت ونـــارهم لا تطفا » [٩٢] ... ثم أصبحت كلمة « جهنّم » تعني مقرّ الأموات في مكان ما تحت الأرض، فيه الظلمة والنار والعذاب، بحسب ما جاء في التقاليد اليهودية[٩٣] ... ويستعمل العهد الجديد هذه اللفظة مراراً[٩٤] ... كما أن التلمود اليهودي يركّزها في منتصف الأرض[٩٥] ، ويقسمها إلـــى سبعة أقسام[٩٦] ، وسِعَتُها لا حدود لها[٩٧] ، غارقة في الظلمة[٩٨] ، نارها أشد من نار الأرض بستين مرّة[٩٩] ...

وألفـــاظ أخرى في القـــرآن تحدد جهنّم مثل « الجحيم » وترد نحـــواً من ٢٦ مـــرّة، و « سعير » ١٦ مرّة، و « نار » ما يقارب ١٢٠ مرّة، و « سقر » ٤ مـــرّات ... ويشـــبّه القرآن جهنّم بـــ« الحطمة » (١٠٤ / ٤ ــ ٥) وبـــ« اللظى » (٧٠ / ١٥) وبـــ« عذاب الحريق » (٨٥ / ١٠) وبـــ« الهاوية » (١٠١ / ٩) وبـــ« الحفـــرة » (٣ / ١٠٣)... وهي تشابيه قريبة من التوراة والتلمود حيث جهنم تعني « الجب » و« الحفرة » و« التهوم » أي « هيجـــان » البحر حيث خرج الطـــوفان على الأرض[١٠٠]، و« التـــوفت » أي الحفـــرة « العميقة المملوءة ناراً وحطباً. ونسمة الرب كسيل من كبريت تضرمها » [١٠١].

---

(٩٠) يشوع بن نون ١٨ / ١٦، ٤ ملوك ٢٣ / ١٠ ـ ١٢، أرميا ٣٢ / ٣٥ ...
(٩١) أرميا ٧ / ٣١ ـ ٣٣.
(٩٢) أشعيا ٦٦ / ٢٤.

وفي تشبيه القــرآن لجهنــم بــ « دار القـــرار »[١٠٢] وبـــ« المستقـــرّ »[١٠٣]، وبــ« المقام »[١٠٤] وبــ« دار البوار »[١٠٥] و « دار الخلود »[١٠٦] ، ما يجعلنا نقارن بينهـا وبين « شوول » التوراة الذي يعني « مقاماً لا رجوع للإنسان منه »[١٠٧] . وهو موقف آباء الكنيسة أمثال هيبوليت الروماني[١٠٨] واغناطيوس الانطاكي[١٠٩] وكيريلس الأورشـليمي[١١٠] وغيرهم ...

أمّا وصف جهنم فيتّفق فيه أصحاب التوراة والقرآن. لجهنّم القرآنيّة « سبع درجات » يدليل قوله بـــ « سبعة أبواب » (١٥ / ٤٤)، ويفسّرها « الجلالين » بـــ « طبقات سبع » ، كما تُفسّر بالأبواب. والملائكة يحرسون هذه الأبواب ويُدخلون فيها الهالكين قائلين : « ادخلوا أبواب جهنّم خالدين فيها » (١٦ / ٢٩) « حتى إذا جاؤوها فُتحت أبوابها. وقال لهم خَزَنَتُهَا... ادخلوا أبواب جهنم خالدينْ » (٣٩ / ٧١ ــ ٧٢)... ولجهنّم اليهود أيضاً سَبْعُ درجات[١١١]، ولكن بثلاثة أبواب : « واحد من جهة الصحراء، والثاني من جهة البحر، والثالث من جهــة أورشليم » [١١٢] . وأيوب يشير إلى « أبواب الموت » أو « أبواب ظــلال المــوت » [١١٣]، وأشعيا يقول عن « أبواب الجحيم » [١١٤] ...

---

(٩٣) .. IV Esd. VII, 36; II Bar. 85, 13; I Hén. 54, 1-3; 56, 3
(٩٤) متى ٥ / ٢٢ و٢٩ ـ ٣٠، ١٠ / ٢٨، ١٨ / ٩، ٢٣ / ١٥ و٣٣، لوقا ١٢ / ٥، مرقس ٩ / ٤٣ و٤٧، ٢ بطرس ٢ / ٤، رؤيا ١٩ / ٢٠، ٢٠ / ١٠ و١٤ ـ ١٥ ...
(٩٥) ...Talmud Babylonian, Sanhedrin, 110 b
(٩٦) .... T. B. Sotah, 10 b
(٩٧) .... T. B. Pesahim, 94 b
(٩٨) ... T. B. Yebamot, 109 b
(٩٩) ...... T. B. Berakot, 57 b
(١٠٠) تكوين ١ / ٢، ٨ / ٢، رؤ ٩ / ١ ـ ٢، ٢٠ / ٣.
(١٠١) أشعيا ٣٠ / ٣٣.

إن الذنوب التي تؤدّي بالهالكين إلى جهنم فكثيرة. نقف عند بعضها :

من يكتم البيّنات ويخفي الدليل والهدى مصيره جهنم : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى ... أولئك يلعنهم الله » (٢ / ١٥٩).

من ينقض العهد هو الخاسر : « الذين ينقضون عهد الله بعد ميثاقه ... أولئك هم الخاسرون » (٢ / ٢٧).

من يحرّف كلام الله أو يبدّل في الكتب المنزلة يستحقون لعنة الله :

« فريق منهم يسمعون كلام الله ثمّ يحرفونه » (٢ / ٧٥) « ويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ... فويل لهم مما كتبت أيديهم » (٢ / ٧٩). « إن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب، وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله » (٣ / ٧٨). « من الذين هادوا يحرفون الكلم من مواضعه لعنهم الله » (٤ / ٤٦) « لعنّاهم (لأنهم) يحرّفون الكلم عن مواضعه » (٥ / ١٣) ...

« ... كل من يسمع الأقوال النبوية في هذا الكتاب، فإن زاد أحد عليها شيئاً زاده الله من النكبات ... وإذا أسقط أحد شيئاً من أقوال الكتاب النبوي، أسقط الله نصيبه من شجرة الحياة ومن المدينة المقدسة اللتين وصفتا في هذا الكتاب » (سفر الرؤيا ٢٢ / ١٨ ـ ١٩).

من يؤذي الله ورسوله مصيره جهنم : « الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة » (٣٣ / ٥٧).

من يصدّ غيره عن طريق الله له هلاك فيه خالد : « الذين كذبوا على ربّهم ألاَ لعنةُ الله على الظالمين. الذين يصدّون عن سبيل الله ... هم كافرون » (١١ / ١٨).

من يفسد في الأرض له سوء العذاب : « الذين ينقضون عهد الله ... ويفسدون في الأرض ... أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » (١٣ / ٢٥) ...

« ومن يقتل مؤمناً متعمّداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها » (٤ / ٩٣) ...

وغير ذلك من ذنوب لم نذكرها لشيوعها ومعرفة الناس بها كالكبائر مثل الشرك والكفر والقتل والزنى والتخلّف عن الجهاد وقذف المحصنات وغيرها وغيرها ...

ويشير القرآن إلى كثرة الهـالكين في جهنّم وإلى دخول الناس إليهـا أفواجاً أفواجاً: « ونسوق المجرمين إلى جهنم وِرْدًا » (١٩ / ٨٦)، و« سيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً » (٣٩ / ٧١). وجهنم مليئة بالناس والجنّ : « ... ولكن حقّ القول مني : لامْلأنّ جهنم مـن الجنّة والناس أجمعين » (٣٢ / ١٣)[١١٥] .. وهي لا تشبع على رحابتها : « يـوم نقـول لجهنم : هل امتلأت ؟ وتقول هل من مزيد ؟ » (٥٠ / ٣٠) ...

إلى مثل هذا أشارت التوراة والأناجيل : نسمع أشعيا يقول : « وسّعت الجحيم نفسـها وفغرت فاها بلا حدّ. فينحدر فيها وجهاء الأرض وعامّتها وجمهورها وكل مرح فيها » (٥ / ١٤)، وسفر الأمثال : « ثلاث لا يشبعن ... : الجحيم والرحم العقيمـة والأرض » (٣٠ / ١٥ ــ ١٦). ويشير متى إلى رحابة طريق الجحيم وسهولة الانحدار فيـه : « إن الطريـق المؤدي إلى الهلاك رحب واسع. وما أكثر الذين يسلكونه. (في حـين) أن البـاب ضـيّق والطريق المؤدي إلى الحياة حرج. وما أقلّ الذين يهتدون إليه » (٧ / ١٣ ــ ١٤)[١١٦] .

---

(١٠٢) ١٤ / ٢٩، ٣٨ / ٦٠.
(١٠٣) ٢٥ / ٦٦.
(١٠٤) ٢٥ / ٣٤، ١٩ / ٧٤.
(١٠٥) ١٤ / ٢٨.
(١٠٦) ٤١ / ٦٦.
(١٠٧) ٢ ملوك ١٢ / ٢٣، أيوب ٧ / ٩ ـ ١٠، ١٤ / ١٤، ابن سيراخ ٣٨ / ٢٢.
(١٠٨) Hippolyte de Rome, Homélie, P. G. 10..
(١٠٩) Ignace d'Antioche, Ep. aux Ephésiens, P. G. 5.
(١١٠) Cyrille de Jérusalm, Cathéchèse, 18; P. G. 33…
(١١١) A. Cohen, Le Talmud, Ed. Payot, Paris, p. 448...
(١١٢) T. B. Erubin 19 a. A. Cohen, Le Talmud, p. 449.
(١١٣) أيوب ٣٨ / ١٧.
(١١٤) أشعيا ٣٨ / ١٠.
(١١٥) القرآن ١١ / ١١٩، ٧ / ١٨.
(١١٦) انظر أيضاً : متى ١٩ / ٢٤، لوقا ١٣ / ٢٤، يوحنا ١٠ / ٩ ـ ١٠.

ولكثرة الواردين إلى جهنّم يُخشى أن يكونَ كلُ البشر يَرِدُهَا، ولو لِلَحْظَةٍ وجيزة. نقرأ في القرآن : « فوربّك، لنحشرنّهم والشياطين، ثم لنحضرنّهم حول جهنم جثيّاً. ثم لننزعنّ من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيّا. ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليّاً. وإِنَّ مِــنْكُمْ إلاَ وَارِدُهَا. كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا. ثم ننجّي الذين اتّقوا، ونذر الظالمين فيها جثيّاً » (١٩ / ٦٨ ــ ٧١).

ولكن يختلف الرأي في القرآن عمّا إذا كانت عذابات جهنم أبديّة أم لها نهاية ؟ ونرى فيه رأيين متقابلين أو متناقضين : من جهة إنها عذابات أبدية لا تزول، ومن جهة ثانية إنهــا منتهية لا بد أن تقف عند حدّ.

يؤيّد الرأيَ الأوّلَ بعضُ النصوص مثل : « من يعص الله ورسوله فإن له نار جهــنم خالدين فيها أبداً » (٧٢ / ٢٣)، و« إن الله لعن الكافرين وأعدّ لهم. سعيراً خالدين فيها أبداً » (٣٣ / ٦٥)، و« أصحاب النار هم فيها خالدون » (٢ / ٣٩)[١١٧] . وهو رأي نراه فــي المسيحية بوضوح حيث جهنّم « نار لا تطفأ » [١١٨] ، و « نار أبديّــة » [١١٩] ، و « عــذاب أبدي » [١٢٠] ... وغيرها الكثير.

ويؤيّد الرأيَ الثاني نصوصٌ أخرى تُنِيطُ الهلاكَ بمشيئةِ اللهِ مثل : « فأمّا الذين شــقوا ففي النار، لهم فيها زفير وشهيق، خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض، أَلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ. أَنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيْدُ » (١١ / ١٠٦ ــ ١٠٨)، وأيضاً : « قــال (الله) النــار مثــواكم خالدين فيها، إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ. إنَّ ربَّكَ حَكِيم » (٦ / ١٢٨) ... كل شيء إذن، حتى أبديــة جهنم أو نهايتها، متعلِّق بحكم الله وإرادته الحرّة وتصرّفه المطلق، لأنّ « اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيْدُ » (٢٢ / ١٤) وَ« يَحْكُم مَا يُرِيْدُ » (٥ / ١) وَ« فَعَّالٌ لِمَا يُرِيْدُ » (٨٥ / ١٦، ١٠١ / ١٠٧)...

---

(١١٧) انظر ٢ / ٨١ و٢١٧، ٣ / ١١٦، ٧ / ٣٦، ١٠ / ٢٧، ١٣ / ٥، ٥٨ / ١٧ ...
(١١٨) متى ٣ / ١٢، مرقس ٩ / ٤٤ و٤٨ ...
(١١٩) متى ١٨ / ٨، ٢٥ / ٤١ ...
(١٢٠) متى ٢٥ / ٤٦ ...

إذا كان القرآن يعترف فعلاً بنهاية عذابات جهنم فيكون معنى ذلك إنه يعترف بـ« المطهر » الذي تقول به التقاليد المسيحية والنصرانيّة. ويقوم المطهر بأن يكفّر الإنسان، أو يكمّل كفّارته عن خطاياه قبل أن يدخل الجنّة، في مكان ما بعد الموت ... ويبدو أن المتأخرين من المسلمين فهموا ذلك فهماً صريحاً وأسند بعض المحدَثين إلى النبي حديثاً يقول فيه : « يَدْخُلُ أهْلُ الجنةِ الجَنَّةَ وأهْلُ النَّارِ النَّارَ. ثم يقول : اخرجوا من كان في قلبه مِثقالَ حَبّةٍ مِن خردلٍ مِن إيمان. فَيَخْرُجُونَ مِنها وقد اسْوَدُّوا فيلقون في نهر الحياة » (١٢١) . ونسمع في المسيحية صدى جيّداً لهذا الرأي يختصره « أوريجين » في كلمته الشهيرة « التجديد الشامل » (١٢٢) ، وذلك نقلاً عن بعض نصوص الأناجيل وأعمال الرسل(١٢٣).

و« حجاب الأعراف » الذي يتكلّم عليه القرآن مختلف فيه، هو أيضاً. يقول القرآن : « وَبَيْنَهُمَا (أي بين أصحاب الجنة وأصحاب النار) حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ. وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ: أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ. وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ... » (٧ / ٤٦ ــ ٤٨).

يظهر أن حجاب الأعراف هو سور الجنة الفاصل بينهما وبين النار، ورجال الأعراف يسيرون على هذا السور الذي هو أيضاً « صراط الجحيم » (٣٧ / ٢٣) أي جسر العبور الذي عليه يعبر هؤلاء الرجال بعد الموت. ويسمى عند المزديين

---

(١٢١) صحيح البخاري بشرح الكرماني، في الإيمان، عدد ٢١، ج ٢، ص ١١٦.
(١٢٢) استعمل أوريجين لفظة يونانية شهيرة على لسانه « Apocatastase » ورد حرم هذا القول في Dens. n° 211
(١٢٣) هناك إشارات إلى تجديد السماوات والأرض في سفر الرؤيا ٢١ / ١ - ٥، ٢ بطرس ٣ / ١٣ ... وأعمال الرسل ٣ / ٢١، متى ١٩ / ٢٨، ٢ كور ٥ / ١٧.

بـــ« سنفات » وهو جسر فوق جهنم. وقد أشار إليه بعض التقاليد اليهوديّة والنصرانيّة بقولها: إنه طريق ضيّق فوق الهوّة، نار على يمينه، ومياه على شماله، ومن سار عليه مُثَقَّلاً بأعبـــاء الخطايا، خاف الوقوع، ويقع لا محالة[١٢٤] ... ورجال الأعراف لا نعرف ميزتهم، ولا نعرف إذا كانوا من أصحاب الجنّة أم من أصحاب النار. يظهر أنهم بين الجهتين، وأنهم مـــا زالـــوا على الجسر يسيرون، لم يصلوا بعد، ولم تتحدّد هويّتهم، لكنهم يعرفون أصحاب الجنّـــة كمـــا يعرفون أصحاب النار، ويحذّرون الناس بألا يعبروا دون نـــور : « يـــوم يقـــول المنـــافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم. قيل : ارجعوا وراءكم، فالتمسوا نـــوراً. فَضُرِبَ بينهم بسورٍ له باب » (٥٧ / ١٣)[١٢٥].

إن الهالكين في جهنم لا يشعرون بموت ولا بحياة : « من يأت ربّه مجرماً فـــإن لـــه جهنم لا يموت فيها ولا يحيى » (٢٠ / ٧٤)؛ بل هم يموتون ميتين : « ربّنا، أمتّنا اثنتـــين، وأحييتنا اثنتين. فاعترفنا بذنوبنا، فهل إلى خروج من سبيل ؟ » (٤٠ / ١١). وفي مكـــان آخر يقول القرآن عن الناجين بأنهم لا يعرفون إلاّ ميتة واحدة. وهذا ما نتبيّنه في سفر الرؤيا حيث الهالكون يموتون ميتة ثانية والناجون ميتة واحدة :

« لا يذوقون فيها الموت إلاّ الموتة الأولى » (٤٤ / ٥٦). « إن هي الا موتتنا الأولى » (٤٤ / ٣٥). « أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى، وما نحن بمعذبين » (٣٧ / ٥٨ ـ ٥٩).	« ... من غلب فلا يضره الموت الثاني » (٢ / ١١). « ... وبحيرة النار هي الموت الثاني » (٢٠ / ١٤). « أمّا الجبناء والكفرة ... فإن نصيبهم في البحيرة المتّقدة بالنار والكبريت. هذا هو الموت الثاني » (٢١ / ٨)[١٢٦].

(١٢٤) .. IV Esdras, VII, 6-8
(١٢٥) سترى صلة بين كلام القرآن هذا وكلام إنجيل متى في مثل العذارى العشر (٢٥ / ١ ـ ١٣، ومثل الغني ولعازر في لوقا ١٦ / ١٩ ـ ٢٦.
(١٢٦) انظر اغوسطينوس، مدينة الله ١٣ / ٢ : ٨، ٢٠ / ٦ .. أفرهات، ٨ / ١٩ ..

وعذاب الهالكين في جهنم على أنواع : تحيط بهم جهنم من كل جهـة : « إن جهـنّم لمحيطة بالكافرين ... يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهـم » (٢٩ / ٥٤ ــ ٥٥)، وتطلع النار على أفئدتهم وتطبّق عليهم : « نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة. إنها عليهم مؤصدة (مطبّقة) في عمد ممدّة » (١٠٤ / ٦ ــ ٩)، ينامون على النار ويلتحفون بها: « لهم من جهنم مهاد، ومن فوقهم غواش (أغطية) » (٧ / ٤١)... وفي كتاب أحنوخ المنحول: « الظلمة مسكنهم، والدود مهادهم، وليس لهم أمل بالنهوض من مرقدهم » [١٢٧] . وفي القرآن هم « في سموم وحميم، وظل من يحموم » (دخان شديد السـواد) » (٥٦ / ٤٢ ــ ٤٣)، وعند مار أفرام السرياني « الهالكون يقعدون في بحيرة من نار يتألمون بدون أمل في الرجوع عن الألم، تلفّهم لهب النار من كل جنب. أفواههم تتقيّـأ نـاراً »[١٢٨]، ويقـول أيضـاً: « إن المنافقين في جهنم مأكل للنار » [١٢٩] . وفي القرآن : « النار التي وقودها الناس والحجـارة أعدت للكافرين » (٢ / ٢٤). أمّا الذين فسقوا فمأواهم النار، كلما أرادوا أن يخرجوا منهـا أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار » (٣٢ / ٢٠)، « ثم صبّوا فوق رأسه من عـذاب الحميم » (٤٤ / ٤٨). و « تغشى وجوههم النار » (١٤ / ٥٠) وتصبح سـوداء حالكـة فـ« ترى الـذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة » (٣٩ / ٦٠) كأنهـا قطعاً من الليـل: « أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً » (١٠ / ٢٧) تعلوها ظلمة سـوداء : « وجـوه يومئذ عليها غبرة ترهقها (تغشاها) فترة (ظلمة سوداء) » (٨٠ / ٤٠ ــ ٤١) وأيضاً « وجوه يومئذ باسرة » (كالحة شديدة العبوس) (٧٥ / ٢٤) ...

(١٢٧) I Hénoch, XLVI, 6…

(١٢٨) St. Ephrem, Sermo alter de Reprehensione, II, 368, Traduction Lamy….

(١٢٩) St. Ephrem, Le Baptême du feu, cité par C. M. Edsman, p. 131……….

وتستفيض الأناجيل والعهد الجديد عامّة بهذا الوصف للمنافقين في جهنم، وتصفهم قابعين في ظلمة قاتمة[١٣٠] ، تلفّهم من فوقهم ومن تحتهم، ويملأ الدخان عيونهم وقلوبهم، وتسودّ كل المناظر أمام وجوههم. وفي التقاليد « حيث النور يضمحلّ من أمام وجوههم وتغشى مسكنهم ظلمة إلى أبد الابدين » [١٣١] . وفي الأنبياء أيضاً حيث جهنم هي « أرض دجية حالكة كالديجور وظلال الموت لا نظام فيها، ونهارها كالديجور » [١٣٢] .

أمّا حالات الهالكين النفسية فلا توصف لكثرة ما هي عليه من « الذل »، و« الخزي » و« الأسف »... ويعكس ذلك ما يسمع منهم من زفير وشهيق وعويل : للهالك « نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم » (٩ / ٦٣)[١٣٣] ، وترى الهالكين « خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة » (٦٨ / ٤٣)[١٣٤] ، و « تراهم ... خاشعين من الذل » (٤٢ / ٤٥) ... ولكن لن ينفعهم شيء من التأسّف، إن أرادوا تأسفاً، فلا يسمع منهم أسفهم ولا شهيقهم : « لهم فيها (جهنم) زفير، وهم فيها لا يسمعون » (٢١ / ١٠٠)، « فأمّا الذين شقوا ففي النار، لهم فيها زفير وشهيق » (١١ / ١٠٦) ...

وهالكو الإنجيل ليسوا بأحسن حال من هالكي القرآن. فلهم أيضاً في جهنم بكاء وصراخ وعويل وصريف أسنان[١٣٥] ، كما لا يسمع منهم أسفهم وتوبتهم، كما هي الحال الغني الذي يتعذب في الدرك الأسفل، مستنجداً بابراهيم، وابراهيم لا يفيد، شيئاً[١٣٦] .

---

(١٣٠) متى ٨ / ١٣، ٢٢ / ١٣، ٢٥ / ٣٠، يهوذا ٦.
(١٣١) I Hénoch, LXIII, 6; XCII, 5…
(١٣٢) أيوب ١٠ / ٢٢.
(١٣٣) القرآن : ٣ / ١٩٤، ٢٦ / ٨٧، ١١ / ٣٩ و٩٣، ٣٩ / ٤٠، ١٦ / ٢٧، ٤١ / ١٦، ٩ / ٢ ...
(١٣٤) القرآن : ٧٠ / ٤٤، ١٠ / ٢٧ ...

وتتصف عذابات جهنم بما يكون على أعناق الهالكين من قيود وسلاسل وأغلال. يقول القرآن : « إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقحمــون » (٣٦ / ٨)، « إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النـــار يســجرون » (٤٠ / ٧١)، و« انّا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً » (٧٦ / ٤)، و « إن لدينا أنكالاً (قيــوداً ثقالاً) وجحيماً » (٧٣ / ١٢).. وينـــادي الله الملائكة ليقوموا بتعذيب الهالكين قـــائلاً لهم: « خذوه فغلّوه، ثم الجحيم صلّوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاســلكوه » (٦٩ / ٣٠ ــ ٣٢) ...

وفي كتاب أحنوخ المنحول كلام على « سلسلة من حديد ومقـــارع يحملهـــا ملائكـــة التعذيب » [١٣٧] ، وفي الإنجيل يقول الملك : « امسكوه وغلّوه في يديه ورجليه واطرحوه في الظلمة البرانيّة » [١٣٨] ، وفي كتب نصرانيّة أخرى نرى « غضب الله يقيّــد الهـــالكين فـــي عمود، وينزل الملائكة وفي أيديهم مقارع مشرقة وسلاسل من نار ... » [١٣٩] .

ولهالكي القرآن مأكل خاص بهم مرّ المذاق، شوك، ولا ينفع، وهو من شجرة خاصة بجهنم تسمّى الزقوم. يقول القرآن : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم، كالمُهْلِ يغلي في البطون كغلي الحميم » (٤٤ / ٤٣ ــ ٤٦) « إنها شجرة تخرج في أصل الجحــيم. طَلْعُهَـــا كأنـــه رؤوس الشياطين » (٣٧ / ٦٢ ــ ٦٨)[١٤٠] إنها « الشجرة الملعونة » (١٧ / ٦٠) التـــي تذكرنا بشجرة الفردوس التي نهى الله آدم عن أكلها فلعنت الأرض بسببها[١٤١] . ومن جملـــة مآكل الجحيم الشوك

---

(١٣٥) انظر متى ٨ / ١٢، ١٣ / ٤٢ و٥٠، ٢٢ / ١٣، ٢٤ / ٥١، ٢٥ / ٣٠، لوقا ١٣ / ٢٨ ... وغيرها.
(١٣٦) مثل الغني ولعازر في لوقا ١٦ / ١٩ ـ ٢٦.
(١٣٧) I Hénoch, LVI, 1; Cf. LIV...
(١٣٨) متى ٢٢ / ١٣.
(١٣٩) Oracles Sibyllins, II; St. Ephrem, Sermo..., 5; Apocalypse de St. Paul, Trad. James, p. 554...

الذي يُبقي في الزلعوم غصّة، والذي لا ينفع في سدّ حاجة: « ليس لهم طعام إلا من ضـــريع (نوع من الشوك) لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِي من جوع » (٨٨ / ٦ ــ ٧)، وهو « طعاماً ذا غصّة » (٧٣ / ١٣). وأهمّ العذابات إن النار تأكلهم وهم يأكلونها: « لا يأكلون في بطونهم الاّ النار » (٢ / ١٧٤) ... أمّا الشراب فهو من « حميم » ، أى ماء يحرق الأمعاء : « الذين كفــروا لهم شراب من حميم » (١٠ / ٤)[١٤٢] ، أو من ماء يغلي يمزّق الأحشاء تمزيقاً: « ... سقوا ماء حميماً فتقطّع أمعاءهم » (٤٧ / ١٥)[١٤٣]. ويشربون أيضاً غسّاقاً، أي القيح والدم: « لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلاّ حميماً وغسّاقاً » (٧٨ / ٢٥)[١٤٤] ، ويشربون « الصديد » جرعة جرعة، فيضرّ حتى يميت، ولكنه لا يميت : « من ورائه جهنم، ويسقى من ماء صديد، يتجرّعه ولا يكاد يسيغه، ويأتيه الموت من كل مكان، وما هو بميت » (١٤ / ١٦ ــ ١٧) ... وتختصر السورة ٨٨ مأكل الهالكين ومشربهم بقولها : « ... وجوه يومئذ خاشعة (ذليلــة) عاملة ناصبة (ذات نصب وتعب بالسلاسل)، تصلى ناراً حامية، تسقى من عين آنية (شديدة الحرارة) ليس لها طعام إلاّ من ضريع (نوع من الشوك) لا يُسمن ولا يغني من جوع » (٢ ــ ٧).

أما الملائكة الذي يلعبون دوراً في موت الإنسان وهلاكه فللقرآن فيهم نظرة قريبة من تقليد النصارى وكتلهم. فالقرآن يقول بــ« ملاك الموت » : « قل : يتوفاكم ملاك الموت الذي وكّل بكم ثم إلى ربّكم ترجعون » (٣٢ / ١١). وقد يكون اسمه « مالــك » (٤٣ / ٧٧) وفي التقليد النصراني والإسلامي « عزرائيل » أو عزازيل

---

(١٤٠) انظر أيضاً ٥٦ / ٥١ ـ ٥٥.
(١٤١) سفر التكوين ٣ / ١٧.
(١٤٢) انظر أيضاً ٦ / ٧٠.
(١٤٣) انظر أيضاً ٥٦ / ٥٤.
(١٤٤) انظر أيضاً ٣٨ / ٥٧.

الذي يقبض على نفوس البشر عند دنو أجلها. إلاّ إن ملاك الموت هذا الذي يشقّ الإنسان شطرين، كما يقول سفر دانيال (١٢ / ٥٥ و٥٩) ليس له على المؤمنين من اليهود حافظي التوراة أي سلطان[١٤٥] . وتتم عملية ملاك الموت كالآتي : « عندما يترك الإنسان هذا العالم، يظهر عليه ملاك الموت لينزع منه نفسه : فإن كان بارًا تُنزع بلطف، كما تُسحب الشعرة من اللبن، وإن كان شريراً تنزع كما تُخرج المياه الدافقة من مخرج ضيّق » [١٤٦] . ويعبر القرآن عن هذه الصورة بقوله: « النازعات نزعاً، والناشطات نشطاً ... » (٧٩ / ١ ــ ٢) ومعناه: « الملائكة تنزع أرواح الكفار نزعاً بشدة. والملائكة تنشط أرواح المؤمنين، أي تسلها برفق » [١٤٧].

وعندما تنتهي مهمة ملاك الموت يحضر إلى جانب الميت ملاكان أخريان: « هاروت وماروت » (٢ / ١٠٢) واحد عن شماله وآخر عن يمينه. ويسير كل واحد منهما بالميت في الطريق الذي يستحق : « وإذ يتلقّى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد » (٥٠ / ١٧). وإذا ما تقرر مصيره، وكان من الهالكين، يحضر لديه بأمر الله ملاكان أخريان « السائق والشهيد » (٥٠ / ٢١) ليلقيانه في جهنم : « ألقيا في جهنم كل كفّار عنيد ... ألقياه في العذاب الشديد » (٥٠ / ٢٥ ــ ٢٦). وعندما يصلا به إلى أبواب الجحيم تتكفل به وبأمثاله من الكافرين ملائكة أشرار « **يضربون وجوههم وأدبارهم** » (٤٧ / ٢٧). **ويبلغ عددهم، بحسب القرآن، تسعة عشر، يسمون** « **زبانية** » (٩٦ / ١٨) وهم « ملائكة غلاظ شداد » (٦٦ / ٦) و « أصحاب النار » (٧٤ / ٢٦ ــ ٣١) و « خزنة » الجحيم : « كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها : ألم

---

(١٤٥) Le Talmud, 'Abodah Zarah 20 b; 5 a; Beresit 6, 7.
(١٤٦) Midras Tehillim 52 a; Ps. XI, 7; 51, B ..
(١٤٧) تفسير الجلالين على ٧٩ / ١ - ٢.

يأتكم نذير ؟ .. » (٦٧ / ٨).

في التقاليد اليهودية النصرانيّة كلام كثير على الملائكة : فمنهم الصالحون يقودون الأبرار إلى الجنة، ومنهم المهلكون الذين يهتمّون بعذاب الأشرار من الناس. وفي التوراة مرجع هامّ لكل شيء عن الملائكة : فسفر المزامير يذكر أن الله « أرسل علهم (على الناس الأشرار) وغر غضبه السخط والخنق والضيق، بإرسال ملائكة مهلكين (٧٧ / ٤٩). والمزامير ترجع إلى ملاكي لوط اللذين قالا له : « إنا مهلكان هذا الموضع ... وقد بعثنا الرب لنهلك المدينة » [١٤٨] . وعلى ذلك يعتمد كتاب احنوخ المنحول في قوله : « لقد رأيت صفوف ملائكة الهلاك يمشون وفي أيديهم مقارع وسلاسل من حديد محمى ونحاس يعدونها للهالكين »[١٤٩]... هؤلاء الملائكة المهلكون، هم بحسب باخوميوس غلاظ لا يرحمون: « خلقهم الله بدون شفقة لئلا يكون لهم على الأشرار عطف » [١٥٠] . **ويبدو الاسم الذي سمّاهم به القرآن** « **زبانية** » **قريباً من** « **شبابا** » **عند مار افرام السرياني،** « **الذين، بحسب رأيه، يدفعون الناس إلى الهلاك** » [١٥١].

*****

إن كلام القرآن على اليوم الأخير والقيامة العامّة والجنّة والنار، كان أول ما بشر به محمد وأنذر في دعوته النبوية. وهذا الكلام في أحوال المعاد « قريب جداً من الأفكار النصرانية » [١٥٢]. ومن يتعمق بالبحث أكثر يثبت أكثر.

---

(١٤٨) تكوين ١٩ / ١٣، يذكرها القرآن في ١١ / ٧٤ و٧٧ ـ ٨٣، ٢٩ / ٣١ ـ ٣٥.

(١٤٩) I Hénoch, LVI, 1; LXII, 11; LXIII, 1; …….

(١٥٠) Vie de Pacôme (copte) Ann. du Musée Guimet 17.

(١٥١) الزبانية في لسان العرب هم « الذين يدفعون الناس ».

(١٥٢) Tor Andrae, Les Origines de l'Islam et le Christianisme, trad. J. Roche, 1955; p. 67.

خامساً ــ في أمثال الإنجيل القرآنيّة

بين القرآن العربي والإنجيل العبراني صور وتعابير وتشابيه وأمثال وألفاظ مشتركة، إن وضعنا بعضها إزاء بعض نتأكد، بدون شك، لا من معرفة محمد بالأجواء النصرانيّة وحسب، بل من اعتماده إنجيلاً مكتوباً كان موجوداً بين يديه. وطريقة الاعتماد هذه تقوم، لا على النقل الحرفي، كما هو معروف اليوم، بل على حرية التصرّف والـ« تصريف » والشرح والتفسير والتفصيل ... لكأن القرآن، في نقله، يعلق على الإنجيل، ويفسر لسامعيه بحسب مقدورهم؛ وقد يخلط أمثال الإنجيل في مثل قرآني واحد، أو ينثر تعاليم الإنجيل الواحدة في مواضع متعددة من القرآن؛ وقد يستلهم، في شرحه وتفسيره، أخباراً وأمثلة وقصصاً من بيئته العربية، ومن تاريخ قبائل مكة، ومن قصص وروايات نصرانية متداولة كـ« قصة أبناء الكهف » ، وقصة الاسكندر، وتواريخ عاد وثمود، وأنبياء العهد القديم، وقصة الخلق والتكوين، وسقطة آدم وحواء وغواية ابليس وزبانيته ... وغيرها.

أمّا المقارنة بين تعاليم القرآن العربي والإنجيل العبراني تبقى أساس بحثنا، لأن ما فيها من طرافة النقل وطريقته يجعلنا نتأمل بحقيقة الدعوة المحمدية، وبهوية الإسلام نفسه. ولا يغيب بالنا عمّا شرحناه، سابقا بأن الإنجيل العبراني الذي إليه نعود لا نملك بين أيدينا نصوصه، بينما نحن على علم به أكيد من خلال الأناجيل الازائية الثلاثة : متى ولوقا ومرقس الذين اعتمدوا على إنجيل متى الآرامي أصل كل الأناجيل بعده، الرسمية منها والمنحولة ... وإنك لترى بأم العين بعض الأمثال والتعاليم الإنجيلية في القرآن :

القرآن	الإنجيل
« ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ... يخادعون الله ... وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم ... هم المفسدون ولكن لا يشعرون. هم السفهاء ولكن لا يعلمون. الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ... صم بكم عمي. فهم لا يرجعون. يجعلون أصابعهم في آذانهم ... ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ... » (٢ / ٧ ـ ٢٠).	« ... يبصرون من غير أن يبصروا. ويسمعون من غير أن يسمعوا، ولا يفهموا » : سماعاً تسمعون ولا تفهمون ونظراً تنظرون ولا تبصرون. فإن قلب هذا الشعب قد غلظ. لقد ثقّلوا آذانهم، وأغمضوا عيونهم لكي لا يبصروا بعيونهم ولا يسمعوا بآذانهم ولا يفهموا بقلوبهم ولا يرجعوا إليّ فأشفيهم. (متى ١٣ / ١٣، مرقس ٤ / ١٠ ـ ١٢، لوقا ٨ / ٩ ـ ١٠، روما ١١ / ٨، أشعيا ٦ / ٨ ـ ١٠، ٢٩ / ١٠، أعمال ٢٨ / ٢٦ ـ ٢٧، تثنية ٢٩ / ٤، يوحنا ١٢ / ٤٠).
« وإذا قلنا ادخلوا هذه القريّة فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً (منحنين مسلّمين) وقولوا: حطة (مغفرة وسلاماً) تغفر لكم خطاياكم. وسنزيد المحسنين ... كلوا واشربوا من رزق الله » (٢ / ٥٨ ـ ٦٠).	« آية ... قرية دخلتموها استخبروا عن الكريم فيها وأقيموا هناك. لأن العامل يستحق طعامه. وحين تدخلون البيت سلّموا عليه ... فمضوا يدعون الناس إلى التوبة » . « أي بيت دخلتم قولوا : السلام على هذا البيت. وامكثوا في ذلك البيت تأكلون وتشربون ممّا لديهم، لأن العامل يستحق أجرته. وأية مدينة دخلتم وقبلوكم فكلوا مما يقرّب إليكم. وقولوا قد اقترب زمن التوبة » (متى ١٠ / ١٠ ... لوقا ١٠ / ٥ ...).
« يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا رَاعَنَا وللكافرين عذاب أليم » (٢ / ١٠٤)[١].	« من قال لأخيه أحمق استوجب نار جهنّم » (متى ٥ / ٢٢)
« أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم » (٢ / ٤٤).	« تحملون الناس أحمالاً ثقيلة وأنتم لا تمسّونها بإحدى أصابعكم » (متى ٢٣ / ٤).
« اقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم » (٢ / ٥٤).	« من أراد أن يخلّص نفسه يقتلها » (متى ١٦ / ٢٥، لوقا ٩ / ٢٤، مرقس ٨ / ٣٥).

(١) « راعنا » هي « سب بلغة اليهود » وتعني أحمق وجاهل. انظر تفسير الجلالين.

القرآن	الإنجيل
« ... وما أنفقتم من نفقة ... فإن الله يعلمه ... إن تبدوا الصدقات فنعما هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم. ويكفر عنكم من سيّئاتكم. والله بما تعملون خبير. وما تنفقوا من خير فلأنفسكم، وما تنفقون إلاَّ ابتغاء وجه الله. وما تنفقون من خير يوف إليكم » (٢ / ٢٧٠ ... « وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم. الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم. لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبّون، وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم » (٣ / ٩٢).	... أبوك الذي يرى في الخفية يجازيك (متى ٦ / ١٨) إياكم أن تعملوا بركم بمرأى من الناس لكي ينظروا إليكم. فلا يكون لكم أجر ... فإذا تصدّقت فلا ... كما يفعل المراؤون ليعظمهم الناس. إنهم آخذوا أجرهم. وإذا تصدقت لتكن صدقتك في الخفية. وأبوك الذي في الخفية يجازيك » ... (متى ٦ / ١ ـ ٢). « إذا أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع كلّ شيء » (متى ١٩ / ٢١).
« ... إن الذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء، ولا يدخلون الجنّة حتى يلج الجمل في سم الخياط » (٧ / ٤٠).	« ... يعسر على الغني دخول ملكوت السماوات لأن يدخل الجمل في سم الإبرة أيسر من أن يدخل الغني ملكوت السماوات » (متى ١٩ / ٢٣ ـ ٢٤).

الصلاة الربانيّة

القرآن	الإنجيل
... ربّنا، لا تؤاخذنا إن نسينا[٢] أو أخطأنا. ربنا، ولا تحمل علينا اصراً، كما حملته على الذين من قبلنا. ربنا، ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعفُ عنا، واغفر لنا، وارحمنا » (٢ / ٢٨٦). « ربّنا، فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنّا سيّئاتنا » (٣ / ١٩٣).	« ... أبانا ... لا تعرضنا للتجربة، اعف ممّا علينا، كما أعفينا نحن غيرنا مما لنا عليه » (متى ٦ / ١٢ ـ ١٣). « ... اغفر لنا خطايانا لأننا نغفر لمن أساء إلينا، ولا تعرضنا للتجربة ... » (لوقا ١١ / ٤).

---

(٢) قد تكون لفظة « نسينا » الواردة في القرآن تحريفاً للفظة « نِسْيُونُوْ »: **نهمُنُا** الآرامية، وتعني « التجربة » في اللغة العربية ...

« وإذا قاموا إلى الصلاة ... يراؤون الناس » (٤ / ١٤٢). « ويل للمصلين... الذين يراؤون » (١٠٧ / ٤).	« وإذا صليتم فلا تكونوا كالمرائين، يحبون الصلاة في المجامع ... ليراهم الناس » (متى ٦ / ٥).
« ادعوا ربكم تضرعا وخفية » (٧ / ٥٥).	« صل لأبيك الذي في الخفية » (٦ / ٦).
« إن كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ... أحب إليكم من الله ورسوله ... فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ... » (٩ / ٢٤).	« من كان أبوه وأمه أو ابنه أو ابنته أحبَّ إليه مني فليس يستحقني » (متى ١٠ / ٣٧ ـ ٣٨).
« من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرةً » (٢ / ٢٤٥)[٣] .	« من كان له شيء يزاد حتى يفيض » (متى ١٣ / ١٢، لوقا ٨ / ١٨، ١٩ / ٢٦).
« ولو نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى ... ما كانوا ليؤمنوا » (٦ / ١١١)	« ان لم يستمعوا إلى موسى والأنبياء لا يقتنعوا لو قام واحد من الموتى » (لو ١٦ / ٣١)
« وكيف يحكمونك وعندهم التوراة وفيها حكم الله ؟ » (٥ / ٤٣).	« عندهم موسى والأنبياء فليستمعوا إليهم » (لوقا ١٦ / ٢٩).
« يا أيها الرسول لا يحزنك ... الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » (٣ / ٩١).	« هذا الشعب يكرمني بشفتيه وأما قلبه فبعيد مني » (متى ١٥ / ٨).
« ومنهم من يقول : ائذن لي، ولا تفتني. ألا في الفتنة سقطوا » (وهو كلام الذين يستأذنون الرسول حتى يتخلفوا عن اتباعه لأجل افتتانهم بالنساء) (٩ / ٤٩ تفسير الجلالين).	« قال له رجل : ائذن لي أن أمضي ... وأودّع أهل بيتي ... » (لوقا ٩ / ٥٧ ـ ٦١، انظر أيضاً متى ٨ / ١٩ ـ ٢٢).

(٣) انظر أيضاً ٥٧ / ١١ و١٨، ٦٤ / ١٧، ٧٢ / ٢٠ ...

« إن تستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم » (٩ / ٨٠).	« أغفر له... لا سبع مرات، بل سبعاً وسبعين مرة » (متى ١٨ / ٢١ ـ ٢٢).
« ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم ولا خمسة إلاَّ هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاَّ هو معهم أينما كانوا » (٥٩ / ٧).	« حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة ... كنت هناك بينهم » (متى ١٨ / ٢٠).
« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما. فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء (ترجع) إلى أمر الله، فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل. إنما المؤمنون إخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله ...	« إذا خطئ أخوك فاذهب إليه ... وإن لم يسمع لك ... فأخبر الكنيسة ... وإن لم يسمع للكنيسة فليكن عندك كالوثني » (متى ١٨ / ١٥).
« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكون خيراً منهم .. ولا تلمزوا أنفسكم (أي لا يعب بعضكم بعضاً) ولا (تـ) تنابزوا بالألقاب. بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » (٤٩ / ٩ ـ ١٢).	« إياكم أن تحتقروا أحدا (متى ١٨ / ١٠) « من غضب على أخيه استوجب القضاء، ومن قال لأخيه أحمق استوجب النار، ومن قال له جاهل استوجب حكم الجماعة » (متى ٥ / ٢١).

أما المقارنة بين أمثال الإنجيل والقرآن فهي أشد صلة وقرابة. ومن الطبيعي أن لا يستعملها القرآن العربي استعمالاً حرفياً ودقيقاً، إمّا لأنه يعتقد معرفتَها عند سامعيه، وإما لأنه يحاول النسجَ على منوالها، وإما يأخذ منها ما يراه منسجماً مع بيئته ومجتمعه. وفي أي حال لا يمكن لأحد أن ينسبها إلى مصدر آخر وفي القرآن ما يدل على أنه أخذها من الإنجيل مباشرة. فهو القائل بوضوح لا بعده شك : « ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي الإنجيل » (٤٨ / ٢٩). وإنك لترى حرّية التصرف وحرية التفسير ومقدرته على مزج أمثال الإنجيل بعضها مع بعض. يقول

« ... ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل : كزرع أخرج شطأه (فراخه) فآزره (أعانه) فاستغلظ (غلظ وكبر)، فاستوى على سَوقه (أصوله) يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار » (٤٨ / ٢٩).

انظر مثل الزارع في لوقا ٨/ ٤ ـ ٨ وفي لوقا ١٣/ ١٨ ـ ١٩ عن حبّة الخردل « التي نمت وارتفعت وصارت شجرة كبيرة » . انظر متى ١٣ / ٣٢، ومرقس ٤ / ٣٠ ـ ٣٢).

فأنت ترى حرية التصرف في القرآن، وترى في الوقت نفسه تأكيد محمّد بأنه يعتمد على الإنجيل في أخذه هذا المثل ... مما يدلّ على نقل مباشر، وعلى حرية في التصرف. وترى أيضاً الأمثولة الأدبية من المثل، فهي تختلف عما هي في الإنجيل. وعلى كل حال أنه من جملة أساليب الإنجيل الاعتماد على المثل ليعلم الناس بالأمثال، وأيضاً من أساليب القرآن ضرب الأمثال :

« وتلك الأمثال نضربها للناس » (٢ / ٢٦) «ويضرب الله الأمثال للناس» (٤ / ٢٥) « وضربنا لكم الأمثال » (١٤ / ٤٥) « ضرب الله مثلاً ... للذين كفروا » (٦٦ / ١٠) « وضرب الله مثلاً للذين آمنوا » (٦٦ / ١١).

« فأخذ يضرب لهم الأمثال » (متى ١٣ / ٣) « انّما أخاطبهم بالأمثال » (١٣ / ١٣) « وضرب لهم مثلاً آخر » (١٣ / ٢٤) « وضرب لهم مثلاً آخر » (١٣ / ٣١) « ثم قال لهم مثلا آخر » (١٣ / ٣٣).

يتوقف القرآن على مثل الزارع الوارد في الأناجيل الازائية، ويؤديه بتصرف وحرية، ويجمل فيه أمثالاً أخرى من الأناجيل، ويبدّل في مغزاه، ويستعرضه كما يلي :

« مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة. والله يضاعف ... الذي ينفق مال رئاء الناس ... فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل (مطر) فتركه صلداً ... ومثل الذين

انظر مثل الزارع الذي خرج ليزرع، فوقع بعض الحبّ على الصخرة، فيبس، ووقع بعضه على أرض طيّبة فأعطى مائة (متى ١٣ / ٥ ـ ٨، لوقا ٨ / ٦ ـ ٨).

وأضاف القرآن تعاليم من الإنجيل أخذها من مناسبات أخرى ومن تعاليم مختلفة،

ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله كمثل جنّة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها (ثمرها) ضعفين » (٢ / ٢٦١ ـ ٢٦٥).	كمثل قوله عن الذين ينفقون مالهم ليراهم الناس (٢ / ٢٦٤ = متى ٦ / ١) والذين ينفقون مالهم في سبيل الله (٢ / ٢٦١ = متى ١٢ / ٨).

وإليك مثلا آخر في القرآن (٧ / ٤٢ ــ ٥٠) قريب بقصة لوقا عن الغني ولعازر (١٦ / ١٩ ــ ٢٦). ولكنّه ضرب للناس بأسلوب جديد، واستخلصت منه تعاليم مختلفة، وزيد عليه عناصر جديدة، ومزج بمثل العذارى العشر في متى ٢٥ / ١ ١٣، وبمثل العبيد الذين ينتظرون سيّدهم عند عودته من العرس في لوقا ١٢ / ٣٥ ــ ٤٨).

« وقالوا (أصحاب الجنّة) : الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ... ونودوا : إن تلكم الجنة أورثتموها. ونادى أصحابُ الجنة أصحابَ النار : إن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً. وبينهما حجاب ... ونادوا أصحاب الجنة : إن سلام عليكم ... ونادى أصحاب الأعراف رجالاً (من أصحاب النار) قالوا : ما أغنى عنكم جمعكم (للمال). (ونادوا أصحاب الجنة) : ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة : أن أفيضوا علينا من الماء ... قالوا (أصحاب الجنة): إن الله حرمها على الكافرين ... الذين غرّتهم الحياة الدنيا » (٧ / ٤٢ ـ ٥٠، انظر أيضاً صيغة أخرى لهذا المثل في ١٨ / ٣٣ ـ ٤٤).	إن الحوار في لوقا (١٦ / ١٩ ـ ٢٦) هو بين الغني والفقير بواسطة ابراهيم، وفي القرآن بين أصحاب الجنة وأصحاب النار بواسطة رجال الأعراف. في مثل القرآن عناصر من مثل العذارى عند متى، وعناصر من مثل العبيد المنتظرين سيدهم. « الماء » الذي طلبه الغني في الجحيم من لعازر الفقير في النعيم بواسطة ابراهيم. (لوقا) الهلاك جزاء الذين لم يعملوا البرّ في الحياة الدنيا فالتهوا بجمع المال والثروة ...

وهناك أيضاً مثل « البيت الذي بني على الصخرة » ، وهو في القرآن وفي

الإنجيل على الوجه التالي :

« أفمن أسّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به!.. » (٩ / ١٠٩).	« مثل رجل عاقل بنى بيته على الصخر ... لم يسقط لأن أساسه على الصخر... ومثل رجل جاهل بنى بيته على الرمل فانهار وكان انهياره شديداً » (متى ٧ / ٢٤ ـ ٢٧، انظر لوقا ٦ / ٤٧ ـ ٤٩).

ومثل الشجرة الطيّبة والشجرة الخبيئة في القرآن مدموج بمثل حبّة الخردل على الشكل الآتي :

« ألم ترَ كيف ضرب الله مثلاً : كلمة طيّبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أُكُلَهَا (ثمرها) كل حين بإذن ربها ... ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت (استؤصلت) من فوق الأرض. وما لها من قرار. يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وفي الحياة الدنيا وفي الآخرة » (١٤ / ٢٤ ـ ٢٧).	مثل حبة الخردل، أصغر الحبوب، إذا زرعت نمت وارتفعت وصارت شجرة كبيرة (متى ١٣ / ٣٢). الشجرة الطيبة تثمر ثماراً طيباً. وكل شجرة لا تثمر ثمراً طيباً تقطع » (متى ٧ / ١٧). « ما من شجرة طيّبة تثمر ثمراً خبيثا، وما من شجرة خبيثة تثمر ثمراً طيّباً » ، مثل « الرجل الطيب من كنز قلبه الطيب يخرج ما هو طيب ... » (لوقا ٦ / ٤٣).

ومثل العبد الأمين والعبد المملوك يقابل على الوجه الآتي :

« ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً، فهو ينفق منه سراً وجهراً ... هل يستوون ؟ » (١٦ / ٧٥ ـ ٧٦).	« العبد الأمين الذي يقيمه سيده على جميع أمواله ... وعبد السوء الذي يأكل ويشرب ... لا يستويان » (متى ٢٤ / ٤٥ ـ ٥١).

وأخيراً مَثَلُ الْعَذَارَى الْعَشْر، كما ورد في إنجيل متى، دون غيره من الأناجيل، نستدل عليه بوضوح في القرآن العربي. ولكن، بدل أن

يكون الحديث بين العاقلات والجاهلات فهو في القرآن بين المنافقين والمنافقات من جهة والمؤمنين والمؤمنات من جهة ثانية. المنافقون كالجاهلات يطلبون من المؤمنين النور، ويجيبهم المؤمنون كالعاقلات ارجعوا واطلبوا النور. ولما رجعوا أغلق الباب. وقف المنافقون وراء ينادون المؤمنين ليفتحوا لهم، وليس من سميع ولا مجيب.

« يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبإيمانهم بشراكم اليوم جنات ... يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظروا نقتبس من نوركم. قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً. فضرب لهم بسور له باب ... ينادونهم: ألم نكن معكم ؟ قالوا: بلى. ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور. مأواكم النار. وبئس المصير » (٥٧ / ١٢ ـ ١٤).	عشر عذارى أخذن مصابيحهن ... ... قالت الجاهلات للعاقلات : أعطينا من زيتكن (لإنارة المصابيح) فأجابت العاقلات : اذهبن وابتعن لكن ... دخلت المستعدات ... وأغلق الباب. فجاء العروس: وناداهنّ: الحق أقول لكن إني لا أعرفكنّ... وبقيت الجاهلات خارجا. هناك يكون البكاء وصريف الأسنان » (متى ٢٥ / ١ ـ ١٣).

******

هذا قليل من كثير. أوردناه على سبيل الحجّة، ولم نعالج ما أوردناه معالجة درس وتمحيص واستخلاص عبر؛ ولم نتوقف على كيفية اعتماد القرآن على الإنجيل، ولا على نوعية القربى والصلة بينهما ... جل همنا أن نقدّم الدليل، للمرّة الألف، على أن القرآن العربي هو قراءة ميسرة للكتاب الأعجمي، وعلى أن محمداً لم يكن ليعرف أية لغة أعجمية، وعلى أن من علمه ما لم يكن يعلم « خبير » كان يقرأ الكتاب « من قبل » ، له به صلة، وبينهما أكثر من قربى، وفي مقصدهما أن يكون للأميين كتاب كما للكتابيين ...

خَاتمَة

إن ما أوردناه إلى الآن من مقابلات ومقارنات بين القرآن والمصادر الـ« من قبل » يدل على واقع. إلاَّ إن هذا الواقع، هو، بنظر المتدينين، شتيمة ما بعدها شتيمة، وكفر لا مغفرة بعده، وذلك لسبب واحد هو : إن المسلمين، بالأمس واليوم، لا يقبلون، بحال من الأحوال، أن يكون القرآن خاضعاً للبحث التاريخي، أو أن يدخل القرآن في التاريخ، أو أن يكون له أي مصدر غير الله مباشرة. فمحمد نفسه، برأيهم، ليس له فيه يد. القرآن عندهم يتعلّق رأساً بـ« الأفق الأعلى » ويعتمد كلّياً على « اللوح المحفوظ » في سدرة المنتهى ...

بيد أن حقيقة الوحي، كما أدركها جميع الأنبياء الأقدمين، ومحمّد يفتخر بالانتماء إليهم، تعتمد على وهن الطبيعة البشرية وتحولات التاريخ. وحظ الإنسان مع الله ألاّ يبقى الله « متعالياً » و « صَمَدًا » إلى الأبد، لأنّ الخلاص يحتّم على محبّة الله أن يتدخّل اللهُ نفسه في تاريخ الإنسان، ويُشْرِكَ الإنسانَ في تدابيره الخلاصية. وشأن كلمة الله، لكي تكونَ خلاصيّة، أن تكون مُدْرَكَة. ولكي تكون كذلك عليها أن تعتمد على أحداث التاريخ وتحوّلاته. ويوم يُنَزِّلُهَا جبريلُ أزلية أبدية دون اعتبارِ أحوالِ الزمان وتغيراتِ الإنسان، يكون قد قضى على الله وعلى الإنسان معاً، لأنّ كرامةَ الله تقضي ألاّ تكونَ على حساب كرامةِ الإنسان وحريتِه. والله حِفْظًا لِكَرَامَتِهِ لاَ يَسْلُبُ الإنْسَانَ كَرَامَتَهُ.

وفي مطلق الأحوال، « **ليس من اليسير أن نفهم أن الناس قد أُعجبوا بالقرآن حين تليت عليهم آياته إلاّ تكون بينهم وبينه صلة ... وليس من**

اليسير أن نفهم أن العرب قد قاوموا القرآن وناهضوه وجادلوا النبي فيه إلاّ أن يكونوا قد فهموه ووقفوا على أسراره ووقائعه. وليس من اليسير، بل ليس من الممكن أن نصدّق أن القرآن كان جديداً كله على العرب، فلو كان كذلك لما فهموه ولا وعوه ولا آمن به بعضهم ولا ناهضه وجادل فيه بعضهم الآخر ... » [١] .

هذه الكلمة العابرة للدكتور طه حسين جلبت عليه نقمة المسلمين قاطبة فاتُّهم بالكفر، ورَمي بالزندقة والإلحاد. وما كان المسكين يدري، وهو المؤمن الفخور بِإِسْلاَمِهِ، أَنَّ ذهولَ المسلمين يتحدّى اللهَ نفْسه، فيعرفون اللهَ كالله، ويدركون المشيئةَ الإلهيّة بتمامِها، ويعبّرون عنها كأنهم يلمسونها لمسَ اليد؛ فيما هو يؤمن بأنّ عظمةَ الله تقوم على الاعتراف بحرية الإنسان وكرامته، وتعلو بقدر ما تعلو مقدرة الإنسان إليها ...

بقي أن نعترف بحق الإنجيل على القرآن، وبحق من كان ينقل الإنجيل ويفصله على من كان يحضر هذا النقل وهذا التفصيل طيلة أربع وأربعين سنة من عمره.

وبقي علينا أن نلم بمقصد الرجلين.

---

(١) الدكتور طه حسين، في الأدب الجاهلي، الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٤٧، صفحة ٧٨.

خاتمة الكتاب

نجاح وفشل

أولاً ــ نجاح القسّ والنبيّ

ثانياً ــ فشل القرآن

ثالثاً ــ محمديّون أم قرآنيّون

رابعاً ــ « اسألوا أهل الذّكر »

مُقدّمَة

يلحّ علي الحقّ بأن أُفْلِت الله من قيود المتدينّين ليتحــرّر مــن أيــديهم وتصــوّراتهم وتخيّلاتهم. ويلح عليّ نشدان الحريّة بأن أبعد المتدينين عن الله لئلا تتحكم بهم الطمأنينة على أهون سبيل. إنّ ما يقلقني عند المتديّنين اطمئنانهم الكلّي إلى ما يتصوّرون، وارتياحهم السعيد إلى ما يعرفون، واسترخاؤهم التام إلى ما يملكون من « ملفّات جاهزة للحقائق » المنزلة ... فيما أنا قلق باستمرار، وباحث بلا شفقة عن الله وعن الحقيقة. ولا يزعجني قلقي بقــدر مــا يزعجني اطمئنان المتديّنين. هم يسيرون مع الله ومع الحقيقة جنباً إلى جنب، وأنا أسعى حثيثاً وراء الله والحقيقة، وكلاهما يفلت مني كالسراب. وشغفي اللامحدود بالحرّيّة وضــعني فــي منعطف صعب، دافعت فيه عن كرامة الإنسان دون الدفاع عن حقوق الله، لعلمــي إن الله لا يحتاج أحداً للدفاع عن كرامته على حساب الإنسان وحريته.

من هذا المنطلق رحت أبحث في الله وفي الوحي والتنزيل والنبــوّة، وفــي الحقيقــة والشريعة وكلام الأنبياء، فيما علا وفيما سفل من أمور السماء والأرض. ومن هذا المنطلــق رأيت الله يستعمل الإنسان واسطة بينه وبينه البشر : فرأيت القــسّ وراء النبــي، والإنجيــل العبراني وراء الإنجيل العربي، والنصرانيّة وراء الإسلام، والكتابيين وراء الأميين، « والذين يقرأون الكتاب من قبل » وراء الذين « لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانيّ » . من هــذا المنطلــق عمدت إلى البحث في الحق الذي قضى عليّ بألاّ أدّعي الحصول عليه إلاّ بعد اعتماد المصادر في السير إليه، والأمانة في تدوين الأخبار، والصدق في نســبة الأقــوال، والصــراحة فــي الاستنتاج ... وما سوى ذلك لا يغريني في الدنيا

شيء. الحقيقة ذاتها لا تشدّني إليها بقدر ما يغريني البحث عنها. وهذا ما يجنبني مخاطر الطمأنينة.

لقد أدّى بي البحث إلى الكلام على مقاصد القس ورقة بن نوفل، وعلى مهمته الصعبة التي قام بها، وعلى اختياره محمداً خليفة له على كنيسة مكة. لقد نجح القسّ في ذلك، وتوقّف نجاحه على نجاح تلميذه. ونجح التلميذ. ومآثر نجاحه يدل عليها أثره الكبير في تاريخ العالم.

بيد أن الأثر الكبير لازمه فشل ذريع. والفشل حدث له بالعرض، بسبب العصبيّة القبليّة المتمكّنة في نفوس المستجيبين. وهذه تعود، لا إلى سوء استراتيجية القسّ والنبي، بل إلى جهل المتديّنين حقيقة رسالة القسّ والنبي. هؤلاء المتديّنون بدّلوا في الدعوة، وبدّلوا في الكتاب.

ولحق بالتبديل فشل استمرّ في التاريخ نشيطاً بالقدر الذي كان عليه النجاح. وغذّى الفشلَ اطمئنانُ الفاشلين إلى ما هم عليه من ارتياح كلّي إلى الحقيقة. واستمر الفشل باستمراريّة تعليق جذور الدعوة بعُمُدِ السماء. وسبب كل ذلك جهل بهويّة « اللوح المحفوظ » الذي أناطوه بالله مباشرة.

ولنا أن نسأل عن أصل كل شيء في الدعوة الجديدة لئلا يبقى كل شيء فيها معلّقاً بالهواء. فإذا ما وجدنا هذا الأصل أو هذا الـ« قبل » نجد هويّة ما وراء ذلك. والأصل المتمكّن في جذور التاريخ أَثبتُ من الهاوي إلينا من الأفق الأعلى ...

بهذا نكمّل نجاح الناجحين. وبغير هذا نسعى أثر الفاشلين.

ويحق لنا النجاح إذا ما ترك لنا الفاشلون حرّيّة البحث.

أولاً ــ نَجاحَ القسّ والنَبيّ

النجاح الأوّل :

أوّل نجاح حقّقه قسّ مكّة كان في اختياره محمّداً، وتزويجه إيّاه من « سـيّدة نسـاء قريش » ، وتدريبه له في غار حراء على التأمّل والخلوة والتفكّر بالله، وتعليمه إيّاه التـوراة والإنجيل وما لم يكن يعلم، ومناصرته له في جميع مهمّاته الصعبة ... ثم إعلان مسـؤوليّته وتعيينه خليفة له من بعده على كنيسة مكّة ... فكان محمّد « أوّل المسلمين » ، كما كان القس « رئيس النصارى » . وراح يهتمّ بمسؤوليته الجديدة هذه وينصرف إليها. فكانت كمسـؤوليّة أي قسّ في كنيسة الله. وهي التالية :

تعليم الناس الكتاب والحكمة[١]، وتزكيتهم من خطاياهم[٢]، وتلاوة آيات الله علـيهم[٣]، وتذكيرهم بقصص الأنبياء الأقدمين وأخبارهم[٤]، وتبشير المحسنين بالجنّة وانـذار المنـافقين بعذاب النار[٥]، وتأليف القلوب بين الناس[٦]، وتوحيد الشيع والأحزاب في أمّة واحدة[٧]، وسنّ شرائع اجتماعيّة تناسب المجتمع المكّي المتصدّع : من تحريم الربا[٨]، وقطع يد

---

(١) ٢ / ٢٣٩، ٢ / ١٥١، ٢ / ١٢٩، ٣ / ١٦٤، ٦٢ / ٢، ٦ / ٩١ ...
(٢) يضاف إلى المراجع السابقة ١٣ / ٣٠، ٢٨ / ٤٥، ٣ / ١، ٦٥ / ١١ ...
(٣) ٥ / ٢٧، ٧ / ١٧٥، ١٠ / ٧١، ١٨ / ٢٧، ٢٦ / ٦٩، ٨ / ٣١ ...
(٤) ذكر قصص الأنبياء : نوح وابراهيم وموسى وادريس وأيوب واليشع وغيرهم.
(٥) ٢ / ٢٥ و١٥٥ و٢٢٤، ٤ / ١٣٨، ٩ / ٢١ و١١٢، ١٠ / ٢ و٨٧، ٢٢ / ٣٧ ...
(٦) ٣ / ١٠٣، ٨ / ٦٣، ٩ / ٦٠ الخ ...
(٧) ٦ / ١٥٩، ٣٠ / ٣٢، ٤٣ / ٦٥، ٣٣ / ٢٢، ١٩ / ٣٧، ١٣ / ٣٦ الخ ...
(٨) ٢ / ٢٧٥ و٢٧٦ و٢٧٨، ٣ / ١٣٠، ٤ / ١٦١.

السارق[٩]، ومنع قتل الأولاد[١٠]، ومنع وأد البنات[١١]، وجلد الزاني والزانيـة[١٢]، والاهتمـام البالغ باطعام الجياع وإيواء أبناء السبيل والعطف على الأرامل واليتامى[١٣] ... وغير ذلك.

وتقوم مهمات محمد الرسولية أيضاً على وضع الطقوس وفروض العبادات، كجعـل الغسل والوضوء والتطهير قبل الصلاة وبعد كل عمل نجس[١٤]، وفرض الحـج إلـى بيـت الله[١٥]، ووجوب صيام رمضان[١٦]، واداء الزكاة[١٧]، ومنع أكل لحم الخنزير وما أُهلَّ لغيـر الله[١٨]، وتحريم الخمرة[١٩] ... وغير ذلك من مسؤوليات هي من اختصاص أي رجـل ديـن يعي دوره.

ولم يكن نجاح النبي هذا غير متوقـع لأن القس نجح قبله في رسالته بين العرب ومع « الحمس من قريش » من الذين تحنثوا في غار حراء، أمثال عبد المطّلب، وعبيـد الله بـن جحش، وعبد الله بن جدعان، وزيد بن نفيل، وعثمان بن الحويرث ... وغيرهم. كما نجح في اختياره محمّداً، وقد عرفه منذ صغره، وهو في بيت جدّه وكفالة عمّه، ودربـه علـى محبّـة الخلوة والصلاة، وعلى قراءة كتب الله، وحضّه على التأمل بأخبار الأنبياء، ومرّسه على نجدة البائسين والأذلّة... ولمّا توفي القس « فتر الوحي » وكان على محمّد عامٌ من الحزن عليه، إذ فقد به العضد والسند والخبير الحكيم ...

---

(٩) ٥ / ٣٨.
(١٠) ٦ / ١٥١، ١٧ / ٣١، ٦ / ١٣٧، ٦ / ١٤٠، ٦٠ / ١٢ ...
(١١) ٨١ / ٨.
(١٢) ٢٤ / ٢ و٤.
(١٣) ٧٦ / ٨، ٢٢ / ٢٨ ...
(١٤) ٥ / ٦، ٤ / ٤٣ ...
(١٥) ٢ / ١٩٦، ٣ / ٩٧ ...
(١٦) ٢ / ١٨٣، ٢ / ١٧٨ ...
(١٧) ٢ / ٤٣ ... (٣٢ مرة).
(١٨) ٥ / ٣، ٦ / ١٤٥، ٢ / ١٧٣ ..
(١٩) ٢ / ٢١٩، ٥ / ٩٠ و٩١ ...

النجاح الثّاني :

أمّا النجاح الثاني الذي تحقّق على يد القس فيقوم على نقل الإنجيل العبراني إلى لسان عربي مبين. وسمي النقل قرآناً. والقرآن هو في حقيقته القراءة العربية للكتاب العبراني. إلا أن ناقلها « تصرف » بها بما يناسب أحوال مدعويه : « **كذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه** » (٢٠ / ١١٣)، أو « لقد صرّفنا في هذا القرآن ليذكروا ... » (١٧ / ٤١)، أو أيضاً : « **انظر كيف نصرّف الآيات** ... » (٦ / ٤٦)[٢٠].

بيد أن القراءة العربية لا تحتوى كل ما في الكتاب العبراني، ولا الكتاب العبراني يتضمّن كل ما في القراءة العربية. لقد رأينا، خلال بحثنا، مصادر عديدة أخذ عنها القرآن أو اعتمد عليها، ممّا يدل على أنّه كان عارفاً بكثرتها وتعدّدها. لهذا قصد « الجمع » بينها. وعلى هذا قام النجاح الثاني الذي تحقّق على يد القسّ والنبي. وهو يكمن في « جمع » الكتب المتداولة في أَيْدِي الشيع والأحزاب النصرانيّة، وفي جعلها كتاباً واحداً، وشهد الكتاب على هذه المهمة في قوله : « إنّا علينا جمعه وقرآنه » (٧٥ / ١٧) وذلك بعدما كان كتباً متفرّقة ومختلفة في تعاليمها.

واعتبر كل من القس والنبي توحيد الكتاب أساس كل رسالة ناجحة، فجعلا القرآن العربي « كلمة سواء » يكون الناس فيه سواء بسواء. قال : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء » (٣ / ٦٤)، « الذي جعلناه للناس سواء » (٢٢ / ٢٥)، فأصبحوا « هم فيه سواء » (١٦ / ٧١) أو « أنتم فيه سواء » (٣٠ / ٢٨)، في حين أن « الذين أخذوا بجزء من الكتاب هم كافرون ويردّون الناس

---

(٢٠) انظر أيضاً ٦٥ / ١٠٥، ٧ / ٥٨ ...

بعد إيمانهم كافرين » (٣ / ١٠٠)، لذلك يطمئن القس والنبي الناس بأنهما لم يتركا من الكتاب شيئاً هامّاً ولم يفرّطا فيه بشيء : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » (٦ / ٣٨).

ومن المعروف إنه كان في زمن القس والنبي كتب عديدة، وكان لكل شيعة من شيع بني إسرائيل كتاب، ولكل قريّة أو أمّة كتاب، وكل يدعو إلى كتابه. ويشهد القرآن العربي على تعدد الكتب وتوزعها بين أيدي أصحابها بقوله: « وما أهلكنا من قرية الاّ ولها كتاب » (١٥ / ٤)، و « كل أمة تدعى إلى كتابها » (٤٥ / ٢٨)، كما يشهد على وجود كتب سابقة على كتابه(٢١) ، وعلى أن فريقاً من الناس يأخذون من الكتاب نصيباً معيّناً؛ وهم بذلك على ضلال : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة » (٤ / ٤٤)(٢٢) ، وعلى أن فريقا آخر « يلوون ألسنتهم بالكتاب » (٢ / ٧٨)، وآخرون « يكتمون ما فيه وينبذونه وراء ظهورهم » (٣ / ١٨٧)، وآخر يصد عنه (٤ / ٥٥) ...

لأجل هذا كان على القس والنبي أن يوحّدا بين الكتب ليتحقّق لهما النجاح المرتجى. وبالفعل قالها القرآن وأمر بذلك : « ادع واستقم كما أمرت. ولا تتّبع أهواءهم. قل : آمنا بما أنزل الله من كتاب ... وأمرت لأعدل بينكم » (٤٢ / ١٥). وشهد كل من القسّ والنبي على كتابهما بأنه يجمع ما في الكتب السابقة، بل يستنسخانها : « **وهذا كتابنا. ينطق عليكم بالحق. أنّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ** » (٤٥ / ٢٩)، وبأنّ ما فيه كان موجوداً سابقاً : « إنَّ هَذَا لَفِيْ الْصُّحُفِ الأُولَى » (٨٧ / ١٨) و « إنه لتنزيل ربّ العالمين ... بلسان عربي مبين. وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِيْنَ » (٢٦ / ١٩٢ ــ ١٩٦).

---

(٢١) في أكثر من سبعين يشهد القرآن على وجود كتب سابقة عليه. انظر ترجمة القرآن في الفرنسية لـ: « د. ماسون » حيث الشواهد على ذلك.
(٢٢) ٣ / ٢٣، ٤ / ٥١، ٧ / ٣٧.

والنتيجة التي تحقّقت فعلاً على يد القسّ والنبي هي أن القرآن العربي هو أوّلاً الترجمة المفصّلة للكتاب العبراني، التي يسّرها القسّ للنبي بلسان عربي مبين، وتحدّى ببلاغتها شعراء قريش، و « تصرّف » بها بحسب مقتضى الحال، ولكن دون تفريط أو إهمال؛ وثانياً هو الكتاب الذي « نسخ » الكتب السابقة، وأخذ من « الصحف الأولى » و« جمع » بينها، ووحد تعاليمها، بعدما كانت متفرّقة بين أحزاب بني إسرائيل ...

وهو نجاح خطير لأنه تحقّق. في حين أن محاولات أخرى حدثت في تاريخ الكنيسة، ولم يتحقّق لها النجاح وذلك عندما **جمع** « **تاسيان** » **الأناجيل الرسميّة الأربعة في كتاب واحد سمّاه** « **الدياتيسَرون** » ...

النجاح الثالث :

أمّا النجاح الثالث الذي تحقّق على يد القس والنبي فيقوم على « جمع » الفرق والشيع والأحزاب النصرانيّة المنتشرة في مكة والحجاز آنذاك وجعْلِها ديناً واحدًا وأمّةً واحدةً. وما « الإسلام » في حقيقته وجوهره الاّ دين « التوحيد » ، في ثلاثة معان : الأوّل هو « توحيد الكتاب » في قراءة واحدة، وقد بحثنا، في كلامنا على النجاح الثاني، والثاني هو « توحيد أحزاب بني إسرائيل » ، والثالث هو الاقتصار على عقيدة « توحيد الله » كأساس مطلق لتوحيد الكتاب والأحزاب ...

أمّا توحيد الله فواضح في القرآن العربي وفي شهادة المسلمين بـ« أن لا إله إلا الله » . وتتعدّد صيغتها بتعدد الكلام عليها والجهاد لأجلها. وليس

في القرآن أثبت منها. ويؤكد ذلك رفضه العنيف للشرك والمشركين، ورفضـــه البحـــث فـــي طبيعة الله، وإنكاره المطلق لكل تعددية في الذات الإلهية. وما قوله لـــ« لا إلـــه إلا الله » إلاّ لكي يبعد كل خلاف حول الوحدانية اللاهوتيّة. وما انكاره للثالوث المسيحي، ورفضه الجـــدل في طبيعة المسيح، وتنكّره للصلب والموت والقيامة، وتأرجحه في مفهوم « المائدة التي نزّلها من السماء » ... إلاّ اثباتًا لوحدانيّة الله المطلقة ...

لقد عرف القسّ والنبي أن خلافات المسيحيين فيما بينهم وانقسامَهم إلى نســـاطرة ويعاقبة وملكانيين، حسبما عرف عنهم آنذاك، وخلافات النصارى المتعـــددة إلـــى أبيونيّـــة وقيرنثية والكسائية .. كل هذه الخلافات كانت بسبب الجدل اللاهوتي حول طبيعة المســـيح وأسرار الخلاص ... لأجل هذا تجنّب القس والنبي أن يخوضا مع الخائضين. فلزما الاعتدال لئلا يزيد بلبال الانقسامات.

يثبت هذه النزعة التوحيديّة في الله نزعة توحيدية ثانية دعا القس والنبي إليها يكـــون فيها الناس « أمة واحدة » في دين واحد هو « الإســـلام » ؛ صـــفته الأساســـية الاعتـــدال والاقتصاد في العقيدة؛ قال القرآن العربي : « إنّ هذه أمتكم أمّة واحدة » (٢٣ / ٥٢، ٢١ / ٩٢)، « أمة مقتصدة » (٥ / ٦٦) في عقيدتها، جعلها الله « أمّة وســـطاً » (٢ / ١٤٣) بين أمم متناقضة في تعاليمها وفي طقوس عباداتها ...

ويقرّ القرآن بتعدد الأمم وباختلافاتها وانتماءاتها ولَعْنِ بعضها بعض : « كلّما دخلـــت أمّة لعنت أختها » (٧ / ٣٨)، أو « ما كان الناس إلاّ أمّة واحدة فاختلفوا » (١٠ / ١٩)، وسبب خلافهم انتماء كل منهم إلى نبي معيّن أو رسول خاص بهم : « كان الناس أمّة واحـــدة فبعث الله النبيين » (٢ / ٢١٣)، « وهمّت

كل أمّة برسولهم ليأخذوه، وجادلوا بالباطل » (٤٠ / ٥).

ثم يتوقف القرآن على وصف أحزاب بني إسرائيل بأنهم « يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله » (٤ / ٥٠)، فيحذر المؤمنين منهم و « من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً » (٣٠ / ٣٢)، ويمدح « الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم » (٤ / ١٥٢)، وينبه أتباعه بقوله لهم : « لا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات » (٣ / ١٠٥)، وينصحهم : « اعتصموا بحبل الله جميعا ولا (تـ) تفرقوا » (٣ / ١٠٣)، ويأمرهم بـ« أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (٤٢ / ١٣).

ويعود إلى بني إسرائيل المختلفين ويتمنى على كل شيعة من شيعهم أن يتفقهوا في الدين ويعتدلوا في العقيدة : « فلولا (بمعنى هلا) نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين » (٩ / ١٢٢). ويصف تناقضهم فريقين : « فريق منهم يسمعون كلام الله » (٢ / ٧٥)، وفريق يخلّ بالعهد وينبذ كتاب الله، هؤلاء « كلّما عاهدوا عهداً نبذه » (٢ / ١٠٠). وقال أيضاً : « نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم » (٢ / ١٠١)، وقال : « فريقاً منهم يكتمون الحق وهم يعلمون » (٢ : ١٤٦) و « فريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب » (٣ / ٧٨)، وفريق يصدّ عنه (٤ / ٥٥) وآخر يصدف ويعرض (٦ / ١٥٧)...

كل هذه المواقف المتطرّفة والمتضاربة حول كلام الله جعلت من بني إسرائيل أحزاباً وشيعاً وفرقاً لا عديد لها. واعترف القرآن بكثرتها وبخلافاته في قوله : « اختلف الأحزاب من بينهم » (١٩ / ٣٧، ٤٣ / ٦٥)، و « من الأحزاب من ينكر بعضه » (١٣ / ٣٦) و« كل حزب بما لديهم فرحون » (٢٣ / ٥٣، ٣٠ / ٣٢)، ولا يعجب القرآن العربي من كثرة الأحزاب هذه لأن الله كان قد حذّرهم منها مسبقاً واعلمهم بوجودها : « ولما رأى المؤمنون (من العرب) الأحزاب (عند النصارى) قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله » (٣٣ / ٢٢).

ويخشى محمد فيما يخشى أن يكون انتمى إلى حزب منها دون الآخر، أو يكون مال إلى واحد على حساب الآخر، أو ساهم في توسيع رقعة الخلاف فيما بينها : « إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل » (٢٠ / ٩٤). وأوضح القرآن مراراً بأن التفرقة بين الناس ليست من سنن الدين الجديد : « **إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء** » (٦ / ١٥٩، ٣٠ / ٣٢). والذين لم يفرقوا بين النبيين والرسل هم أتباع محمد، وهم بالفعل والاسم مسلمون : « لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (٢ / ١٣٦، ٣ / ٨٤). والمسلمون حقاً هم « الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرّقوا بين أحد منهم » (٤ / ١٥٢)، وقد أعلنوا : « لا نفرق بين أحد من رسله » (٢ / ٢٨٥).

ومن الطبيعي أن تكون مقومات الدعوة إلى عدم التفرقة دعوة إلى الاعتدال في المواقف، والاقتصاد في العقيدة، والتخفيف في الشرائع والواجبات، والتوسط بين المتناقضات، والابتعاد عن الغلو من جهة وعن الإنكار من جهة ثانية ... لهذا وصف أتباع محمد بـ« أمة وسط » (٢ / ١٤٣) وبـ« أمة مقتصدة » (٥ / ٦٦). فهم لا يغلون في الدين كالقائلين بألوهية عيسى[٢٣] ، ولا ينكرون نبوة عيسى كاليهود الظالمين. بل هم يعدلون بالحق[٢٤] ، ويقيمون « دين الحق »[٢٥]، ويأمرون باتباع « دين القيمة » (٩٨ / ٥) أو « الدين القيم »[٢٦]. هكذا « يكون الدين كله لله » (٨ / ٣٩), وهو « الإسلام » [٢٧] .

ومن غريب الأمور في الدعوة إلى الإسلام أن محمداً والقس ورقة لم يردا العرب عن إيمانهم السابق، ولم يكفّراهم بما كانوا يؤمنون. بل كان

(٢٣) ٤ /١٧٠، ٥ / ٧٧.
(٢٤) ٧ / ١٥٩، ١٨١.
(٢٥) ٩ / ٢٩ و٣٣، ٤٨ / ٢٨، ٢٤ / ٢٥ ...
(٢٦) ٣٠ /٣٠، ٤٣، ٦/ ١٦١، ١٢/ ٤٠، ٩/ ٣٦...
(٢٧) ٣ / ٨٥، ٤ / ١٢٥، ٥ / ٣.

همّهما أن ينضمّ الناس إلى الإسلام ويجتمعوا تحت رايته، ويأخذوا بعقيدته التوحيدية. يقول القرآن في ذلك : « قالت الأعراب : آمنّا. قل : لم تؤمنوا. ولكن قولوا : أسلمنا » (٤٩ / ١٤). هذا القول مهم لأنه يدل على أن القرآن لا يقصد من دعوته الجديدة جعل الناس مؤمنين به، بقدر ما يطلب منهم الانضواء تحت لواء الإسلام. فالعرب، كما يبدو من الآية، مؤمنون، ولكنهم ينقصهم أن ينضمّوا إلى الإسلام وتحت لوائه. ولواء الإسلام هو الاقتصار على عقيدة التوحيد في الله. ولكن، ليس أي إله كان، بل إله بني إسرائيل، بعدما تزول عنه الشوائب، وتضمحل حوله الخلافات. وقد أعلن محمّد هوية هذا الإله بقوله الصريح :

« لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل » (١٠ / ٩٠).

وهكذا تحقّق النجاح المنشود. ولم يكن ليتحقق لولا وجود « خبير حكيم » عارف بالخلافات وهوية الأحزاب. وحكمة الداعي إلى توحيدها تقتصر على القول بإله واحد، ودين واحد، وأمة واحدة ... وسوى ذلك ليس من الإسلام في شيء، لأن « الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست (يا محمد) منهم في شيء » (٦ / ١٥٩). بهذه الدعوة التوحيدية يكون « الدين عند الله الإسلام » (٣ / ١٩). « ومَنْ يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » (٣ / ٨٥)، وهو رضوان من الله كبير : « أتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » (٥ / ٣).

ثانياً ــ فَشَل القرآن

لحق بالنجاح الكبير فشل ذريع، وأسرع الفشل كما أسرع النجاح. ولم يكن بالحسبان أن يكون ما كان : مات النبي، ورجعت العصبية القبلية تتحكم بالأحزاب التي خشي منها في حياته. ولكنها رجعت بأشكال جديدة، وحول مسائل جديدة :

ما إن توفي محمد حتى اختلف أتباعه فيما بينهم : « فزعم قوم أنه لم يمت وإنما أراد الله رفعه إليه كما رفع عيسى بن مريم ... ثم اختلفوا بعد ذلك في موضع دفنه، فأراد أهل مكة رده إلى مكة ... وأراد أهل المدينة دفنه بها ... وقال آخرون بنقله إلى أرض القدس ودفنه ببيت المقدس » [١] .

ثم اختلفوا فيمن يكون الخليفة بعده « فافترقت الأمّة ثلاث فرق : فرقة منها سميت شيعة وهم شيعة علي بن أبي طالب ومنهم افترقت صفوف الشيعة كلها، وفرقة ادعت الأمرة والسلطان وهم الأنصار ودعوا إلى عقد الأمر لسعد بن عبادة الخزرجي، وفرقة مالت إلى أبي بكر ... وتنازعوا ... » [٢].

وتوالت الخلافات، واشتدّت العصبيات، وتخطّت إلى أمور الدين وعقائده. وكل فرقة تسلّحت بالسيف كما تسلحت بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية. فكانت النتيجة أن تعددت الفرق حتى بلغت السبعين، واتسع بينها الشقاق، وتأصلت العداوات، واستحكمت البغضاء، حتى جرى الجهاد الذي أوصى به النبي جهاداً على المشركين، حرباً بين المسلمين أنفسهم ...

وامتد الخلاف وتشعب، واتّسعت دائرته حتى شمل شعوباً كثيرة زحف إليها أتباع النبي، وبلداناً عظيمة أخضعوها لحكمهم، وأدياناً أخرى وافقت

عقيدتهم أم لم توافق، ذلّلوا أصحابها. ولم يميز الفاتحون بين نصارى ويهود، ولا بين مجوس وروم، ولا بين مؤمن وملحد ... إنه الجهاد في سبيل « مغانم كثيرة يأخذونها » (٤٨ / ١٩) قد وعدهم الله بها (٤٨ / ٢٠)، ولو كان في سبيل الله لميزوا بين يهودي ظالم ونصراني حنيف، وبين مسيحي يغلو في دينه ونصراني على دين الحق، وبين فتوحات لأجل نشر الإسلام وفتوحات في سبيل الجاه والمال والتوسّع السياسي ...

في غمرة الفتوحات والحروب تولّى الخليفة عثمان بن عفّان جمع القرآن من صدور الصحابة. ولم يوفّر في جمعه زيادة أشياء وحذف أشياء وتبديل أخرى، تبعاً لعواطف الفاتحين تجاه من انهزموا أمامهم أو من قاوموا توسّعهم أو من عاندوا سياستهم... فبت ترى في « مصحف عثمان » مواقف متناقضة لم تكن في قرآن القس والنبي. ونكتفي بمثل واحد لإظهار هذا التناقض الفادح بين « المصحف » و« القرآن »، أو بين « عثمان » و« النبي »، وهو الذي يتعلّق بمفهوم النصارى وموقف كل من المصحف والقرآن.

١ً ـ موقف القسّ والنبي من النصارى :

النصارى في قرآن القس والنبي هم المسلمون حقاً قبل مسلمي العرب. كانوا للنبي قدوة ومثالاً يهتدي بهديهم، ويتقرّب منهم، وينتسب إليهم، ويستشهد بهم، ويمدح مودّتهم، ويجلّ رهبانهم، ويؤمن بإلههم، ويؤيّدهم في رسالتهم، ويسترشد بآرائهم، ويستشيرهم في صحّة تعاليمه ...[٣] وفي كتابه عنهم أقوال مأثورة سجّل التاريخ دورهم في هداية محمّد ورسالته العتيدة بين قبائل العرب.

---

(١) البغدادي، كتاب الفرق بين الفرق، عدد ١٤ ـ ١٩، ص ١٤ ـ ١٦.
(٢) النوبختي، كتاب فرق الشيعة، صفحة ٢ ـ ٨.
(٣) انظر في هذا البحث صفحة ١١٢ ـ ١١٧.

قال القرآن فيهم : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » (٦ / ٩٠)، وأيضاً: « من قوم موسى أمّة يهدون بالحق وبه يعدلون » (٧ / ١٥٩)، وأيضاً : « وممّن خلقنا أمّة يهدون بالحق وبه يعدلون » (٧ / ١٨١). وعندما يشكّ النبي في صحة كتابه بروح يسأل الذين يقرأون الكتاب من قبل (١٠ / ٩٤)، ويحث تابعيه إلى نفس السؤال ليتثبتوا مما هم عليه: « اسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (١٦ / ٤٣، ٢١ / ٧). بسؤالهم هذا يعلمون أين الحق وكيف هو الصراط المستقيم : « فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى » (٢٠ / ١٣٥).

والنصارى من جهتهم يشهدون على صحة ما أتى به النبي : « الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك » (٤ / ١٦٢)، ويجهرون : « آمنّا به كل من عند ربّنا » (٣ / ٧)، ويخرّون ساجدين : « إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً » (١٧ / ١٠٧) لأنهم يعلمون « أنه الحق من ربك فيؤمنوا به » (٢٢ / ٥٤، ١٦ / ٢٧). وهم يشهدون مع الله والملائكة على أن القرآن العربي هو من عند الله (٣ / ١٨). لأجل هذا يكتفي محمد بشهادتهم: « كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » (١٣ / ٤٣).

أضف إلى ذلك موقف قرآن القس والنبي من رهبان النصارى وقسيسهم، فهم « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون » (٩ / ١١٢)، و « تراهم ركعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً » (٤٨ / ٢٩)، « يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » (٥ / ٥٥)، و « يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » (٣ / ١١٣)، وترى « سيماهم في وجوههم من أثر السجود » (٤٨ / ٢٩). وإذا ما سمعوا القرآن يُرَتَّل « يخرّون للأذقان سجّداً » (١٧ / ١٠٧) ... هؤلاء الرهبان الذين عرفهم محمّد، وكان لهم في حياته دور، « لا يستكبرون » (٥ / ٨٢).

٢ ـ موقف مصحف عثمان من النصارى :

أمّا بالنسبة إلى موقف مصحف عثمان فالأمر يختلف تماماً عن موقف قرآن القس والنبي. فيه أصبح النصارى كاليهود ظالمين، وكالوثنيين مشركين، وكالمسيحيين يغلون في دينهم. وأصبحوا، بالتالي، أعداء الفاتحين، تفرض عليهم الجزية، فيعطونها « عن يد وهم صاغرون » (٩ / ٢٩)، ويفرض عليهم الجهاد كالكفار والمنافقين (٩ / ٧٣، ٦٦ / ٩).

واختلط الأمر على الفاتحين، فخلطوا بين النصارى والمسيحيين سواء بسواء. فاتهم الجميع بإيمانهم وبقولهم إن عيسى ولد من الله[٤] وإن « الله ثالث ثلاثة » (٥ / ٧٣). واتّهم الجميع بالغلو في الدين (٥ / ٧٧) وباعتبار الله هو المسيح عيسى (٥ / ٧٢) ... فيما الحقيقة تظهر أن هذا الكلام يوجّه إلى وفد نجران المسيحي، وقد عمّمه مصحف عثمان على جميع بني إسرائيل، من مسيحيين ونصارى ...

واختلط على الفاتحين موقفهم من الرهبانية والرهبان، فظنّوا أن موقف قرآن القس والنبي كموقف مصحف عثمان، واعتبروا الرهبانيّة بدعة : « ورهبانيّة ابتدعوها » (٥٧ / ٢٧)، والرهبان أكلة أموال الناس : « إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل » (٩ / ٣٤)، واتّخذهم الناس « أرباباً من دون الله » (٩ / ٣١) ... فيما الحقيقة تظهر أن القس والنبي يعظمان في كتابهما جميع النصارى لأن منهم قسّيسين ورهباناً لا يستكبرون » (٥ / ٨٢) ...

---

(٤) انظر في القرآن : ٢ / ١١٦، ٤ / ١٧١، ٦ / ١٠١، ١٠ / ٦٨، ١٧ / ١١١، ١٨ / ٤، ١٩ / ٣٥ و٨٨ و٩١ و٩٢، ٢١ / ٢٦، ٢٣ / ٩١، ٢٥ / ٢، ٣٩ / ٤، ٤٣ / ٨١، ٧٢ / ٣، ١١٢ / ٣ ...

لا نجد مبرراً لهذا الخلط بين النصارى والمسيحيين في مصحف عثمان سوى الانتصار السياسي الذي حقّقه الفاتحون. هؤلاء وجدوا سكّان الامصار التي افتتحوها وذلّلوها أعداء لهم، ومن الطبيعي أن يكونوا كذلك، شأن كل مدحور منهزم أمام الفاتح العاتي، ومن الطبيعي أيضاً، والقرآن ما يزال في طور جمعه من صدور الصحابة، أن يسبّ بالمقهورين سياسياً كما يسبّ بالمشركين والمنافقين والكفّار، فزيد، بالتالي، على قرآن القس والنبي، ما يشفي غليل الفاتحين وما يبرّر فتوحاتهم، حتى ولو كان المدحورون على دين الحقّ وعلى إيمان المنتصرين.

ويؤكّد لنا ذلك وجود آيات في غير مكانها، فوجدت آيات مكّية في سور مدنية، وآيات مدنية في سور مكية، وجمعت السور بحسب طولها وقصرها، لا بحسب ظروفها الزمنية، وزيدت كلمات جنب كلمات لم تكن في الأصل. وأصبح مصحف عثمان متحدياً التاريخ، ومستهتراً بأبسط أصوله. ويعمل الباحثون اليوم في ترتيب القرآن ورد سوره وآياته إلى وضعها التاريخي(٥)، كما عمل من قبل مسلمون عديدون في وضع كتب في « أسباب النزول » ، ولكن دون جدوى، بسبب فرض عثمان مصحفه على الناس فرضاً، وحرقه ما سواه.

ويكفي أن نعطي مثالاً على ذلك حيث أقحم اسم « النصارى » إلى جانب اليهود، دون مبرّر سوى العداوة اللاحقة بهم في عهد الفتوحات. لقد ورد

(٥) Voir: H. Grimme, Mohamed, t. I., et t. II.. 1895… Nöldeke-Schwally, Geschishte des Qorans, 2ème éd. 1ère Partie : Uber den Ursprung des Qorans; 2ème Partie : Die Sammlung des Qorans, Leipzig, 1919…Blachère, Le Coran, Classification chronologique des Sorates coraniques..

في مصحف عثمان مثلاً : « كونوا هوداً ــ أو نصارى ــ تهتدوا » (٢ / ١٣٥)، لا يبعد أن تكون لفظة « أو نصارى » مقحمة على النص لأسباب. منها : إن الجدال في سورة البقرة هذه كان بين محمّد واليهود، ولا دخل للنصارى فيه؛ ثم إن الآية التالية (٢ / ١٣٦) تقول بأن الإسلام هو الإيمان بما أوتى موسى وعيسى بلا تفريق، وهو موقف النصارى الصحيح، كما رأينا؛ ثم إن الآية (٢ / ١٣٧) تقتصر على اليهود وحدهم حيث قيل عنهم بأنهم لا يقرّون بالهدى عند النصارى، ولا النصارى يقرّون بالهدى عند اليهود، بدليل قول اليهود : « ليست النصارى على شيء » وقول النصارى : « ليست اليهود على شيء » (٢ / ١١٣). فكيف يجمع مصحف عثمان بينهما إذن ؟! وأخيراً إن لفظة « نصارى » تفسد النظم المسجّع الذي اعتدنا عليه في القرآن، فيكون أصلها إذن : « كونوا هودا تهتدوا » .

وهكذا قل أيضاً عن آيات أخرى أقحمت فيها لفظة نصارى إلى جانب لفظة اليهود. وهو، على ما يبدو، إقحام من عهد الفتوحات. مثال على ذلك قول مصحف عثمان : « لن ترضى عنك اليهود ــ ولا النصارى ــ حتى تتّبع ملّتهم » (٢ / ١٢٠)، ومثال آخر : « وقالوا: لن يدخل الجنّة الا من كان هوداً ــ أو نصارى ــ تلك أمانيهم. قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (٢ / ١١١). وأيضاً : « أم تقولون إن ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً ــ أو نصارى ــ قلْ : أأنتم أعلم أم الله. ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله. وما الله بغافل عمّا تعملون » (٢ / ١٤٠). وأيضاً : « ما كان ابراهيم يهودياً ــ ولا نصرانياً ــ ولكن حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » (٣ / ٦٧) ... وغير هذه الأمثال كثير(٦) ، وكلّها تقع في سور يكوّن موضوعها الأساسي جدال محمّد مع اليهود، ولا دخل للنصارى فيه إطلاقا، وتقع في

(٦) انظر في كتاب الأستاذ الحداد « القرآن والمسيحية » ص ٣٦ ـ ٥٥.

سور من القرآن المدني الذي عرف بمخاصمته لليهود، لا للنصارى، وفي سور هي جدال مع وفد مسيحي على البدعة اليعقوبيّة أو النسطوريّة التي تغلو في إيمانها بالمسيح، وهذه أيضاً من أواخر الدعوة المحمّدية ومن عام الوفود ...

فأنت ترى إذن أن موقف مصحف عثمان يختلف، فيما يخص النصارى مثلاً، عن موقف قرآن القس والنبي. ذلك يخاصم اليهود والنصارى على السواء، وهذا يعتبر النصارى أصحاب مودّة وصفاء. وقد قالها قرآن القس والنبي بصريح العبارة فميّز بين اليهود الظالمين والنصارى أهل المودّة : « لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى. ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً، وإنهم لا « يستكبرون » (هؤلاء) إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق. يقولون : ربنا، آمنا، فاكتبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين. فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. وذلك جزاء المحسنين. والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا (كاليهود) أولئك أصحاب الجحيم » (٥ / ٨٢ ــ ٨٦).

فالنصارى، على ما ترى في هذا النصّ، هم « أقربهم مودّة» ، « منهم القسيسون والرهبان » ، « لا يستكبرون » ، « تفيض أعينهم بالدمع » فرحاً لما سمعوا آيات من إنجيلهم العبراني بلسانهم العربي، وعرفوا أنها « الحق » ، هؤلاء يثيبهم الله في جنّة عدن خالدين، لأنهم من « المحسنين » ... عكس ذلك « اليهود » الذين كفروا وكذّبوا وظلموا وكانوا « شرّ البريّة » . إن لهم الجحيم خالدين في نار لا تطفأ ...

ثالثاً ــ مُحَمّديّون أمّ قرآنيّون

يتأرجح المسلمون اليوم بين نسبتين : نسبتهم إلى القس والنبي، وقل نسبتهم إلى « محمّد » ، ونسبتهم إلى « عثمان » الذي جمع سور القرآن على غير قاعدة. ولنقل أيضاً : نسبتهم إلى « قرآن القس والنبي » ، ونسبتهم إلى « مصحف عثمان » . وبكل بساطة نقول أيضاً : نسبتهم إلى « القرآن » كما وصل إلينا وكما هو بين أيدينا، ونسبتهم إلى « محمد » في مواقفه الصريحة من أهل الكتاب.

فالمسلمون اليوم إذن هم إما « قرآنيون » وإمّا « محمديون » . وهم إلى النسبة الأولى أقرب. والسبب هو « المدينة » . بسبب المدينة اختلطت الأوراق، وفشل محمد. وفشل محمد لم يكن بسبب ذنب اقترفه، أو بسبب سوء تدبير عاناه، بل سببه فتوحات سياسية جرفت كل شيء، وقضت على كل شيء، وصراعات طبقيّة عنصرية انتابتها عصبية عمياء سيطرت على القرآن يوم جمعه.

هذه العصبية العمياء حطّمت الدعوة في مهدها، وفرّقت بين المستجيبين منذ اللحظة الأولى، وبدّدت كل أمل في الوحدة بين الأحزاب والقبائل. منذ البدء انشقّ المسلمون، فكان منهم شيعة وأهل سنّة، وكان فيهم أنصار ومهاجرون، قرشيون وهاشميون، أهل بيت وأهل إيمان... وسبب ذلك سببان : فمحمد لم يتوفّق في تعيين خليفة له كما توفّق به القسّ ورقة، و « مكّة » لم تستطع أن تسيطر على غلبة « المدينة » التي استغلّها الفاتحون ...

والمسلمون اليوم يميلون في نسبتهم إلى المدينة، فخر عزّتهم ونصرتهم على قوافل قريش، وبدء انطلاقهم في سبيل المغانم والمغازى، ونشوة انتصارهم على اليهود والمشركين والأعراب المنافقين، وعزّ عزّهم في افتتاح

مكة وعودتهم إليها واقتحام « أعزّتها » وتهديم أصنامها الخمسة والستين بعد الثلاث مائة. من المدينة كان المنطلق، وفي المدينة ابتدأ النصر، وإلى المدينة يرجع فضل الدعوة إلى الجهاد... أمّا « مكّة » المسكينة فكانت مسالمة آمنة تدعو إلى الإيمان والإحسان والتقرّب من أهل المودّة. مكّة دعت، وما تزال تدعوه إلى « دين الحقّ » ، دين إبراهيم الحنيف الذي لم يكن يهوديّاً ولا نصرانياً مسيحياً ولا مشركاً ولا منافقاً ولا كافراً ...

في « مكّة » خاف الناس هول الساعة، وارتعبوا من يوم الحساب الرهيب، وخشوا الله، وانتظروا يوم الدينونة حيث القضاء العام والقيامة للأبرار والموت للأشرار ... في مكّة تعلّم الناس الاهتمام بالمساكين وإطعام الجياع وسدّ عوز المحتاجين وإقراء الضيوف وتحرير العبيد والماسورين والشفقة بالفقراء والرحمة باليتامى والأرامل والعطف على أبناء السبيل ...

بين مكة والمدينة بون شاسع لا يملي فراغه إلاّ العودة إلى « قرآن القسّ والنبي » أو همّة العودة إليهما بتخطي مغانم المدينة الفاحشة وبالعدول عن الجهاد بغير المحبة والتسامح. المدينة لم تعرف التسامح ولن تعرفه، بل عرفت الغدر والمكر، وكان الله فيها « خير الماكرين » . المدينة غدرت بمحمد وبتعاليمه، فيما المسلمون اليوم يظنّون فيها انتصارهم ومجدهم الأثيل.

على المدينة اعتمد الفاتحون وعلى بعض من مكة جرى السماح. وسعي المسلمين اليوم إليهما معاً. ولهذا يسعون إلى الوحدة كما أن التفرقة في آن معاً. وما نزال نشهد حتى يومنا هذا الصراع الدائم بين موجات وحدوية لا حصر لها وموجات تفرقة لا تملّ. فمن دعوة إلى الوحدة باسم العروبة، إلى أخرى باسم الإسلام، إلى ثالثة باسم محاربة الاستعمار، إلى رابعة باسم الاشتراكية التقدمية، إلى خامسة بعثية عربية واحدة، إلى سادسة خمينية

وسابعة ناصرية، وثامنة قذافيّة، وتاسعة باسم محاربة العدو الصهيوني المشـــترك، وعاشـــرة باسم القضية العربية الفلسطينية... كلّها تكون وكلها لا تكون. وتبقى التفرقة لأنّ بين « مكة » و « المدينة » لا صلح ولا عودة إلى كليهما، وقد كرس « مصحف عثمان » فصـــلهما إلـــى الأبد. فالتاريخ لا يعود إلى الوراء، حتى ولو جر بقرونه، ولا يصلح التاريخ ما أفسده عثمان وما هم عليه الـــ« عثمانيون » اليوم.

إنّ « أرض المهاجر العثمانية » بنيت على التفرقة عندما شيدت قبابها على مصحف المدينة. ومع هذا، وبسبب حنينها إلى مكّة، تنتابها عواطف وحدوية، تتجاذبها عواصف هوج لا محط لهبوبها ولا مرقد، عواصف حب وغرام وعواصف بغض واقتتال ... كلها في بلـــد واحد وفي حزب واحد، وفي قلب واحد، ولأجل مصلحة واحدة ...

وسبب النوبات هذه تزوير جسيم حدث في التاريخ منذ بدء الدعوة ومـــا دام التزويـــر حصل وهو باق حتى يومنا، فسوف تستمرّ نوبات الوحدة إلى الأبد.

اثنان لا غير دعوا إلى الوحدة ونجحا. ولما رحلا رحلت كـــل وحـــدة عـــن « أرض المهاجر العثمانية » . ولم يبقَ من الوحدة المنشودة أبداً إلا الرغبة الدائمة إليها أبداً.

رابعاً ــ اسألوا أهلَ الذّكر

يعزّ عليّ اتّهام الآخرين بالخطأ والضلال، كما يعزّ عليّ ادّعاء المعرفة. ولكنّ التهمة والادّعاء يَهُونَان أمام واقعٍ تاريخي لازمه الخداعُ والمكرُ منذ نشأته إلى اليوم. وجميعنا كنّا ضحيةً بلبلةٍ في الإسلام لا حدود لها ولا نهاية. ليس من مسلم متديّن استطاع الإفراجَ عن الحقيقة، وليس من باحث محقّقٍ تمكّن من قول الحقيقة، وليس من جريء مغامرٍ هَانَتْ عليه حياتُه ليعلنَ ما يضمر. وأخشى أن تكون قضايا الإسلام تسيَّستْ، وعروبة المسلمين استغلّت وثروة العرب استبيحت ليبقى الضلالُ ضلالاً والحقيقةُ مُطاحًا بها في التِّيه.

لا عجب في ذلك، فمعظم عجائب الله حدثتْ في الَوادي : لقد أنزل الله على موسى ناموسَه في صحراء سيناء، والروحُ القدس يكلّم أحبّاءه في سكون البادية الرهيب، والمسيحُ خضع لامتحاناتِ الشيطان في البريّة، والله يطيب له السبيُ مع المسبيين إلى بابل، وأرواح الجنّ ترقص تِيهًا على الرمال، وأبوابُ السماء جميعُها تتصدّع في ليالي القدر، والملائكة نازلة صاعدة على الأنبياء في ظلمات الليل، والقديسون يترنّحون في نجواهم في مناسكهم البعيدة في سكون الغابات ورؤوس الجبال ... إنَّ هولَ الصحراء لعظيم.

لا عائق في البادية يحول دون الإيمان. لا شكّ عند البدوي في إيمان غاصت جذوره في أعماق القلب والوجدان. في البادية يسرح النظر إلى اللامحدود، إلى اللامتناهي، إلى البعيد البعيد، إلى الله. واللامحدود في الصحراء يبدأ من تحت القدمين حتى فوق الرأس : الصحراء مترامية وكذلك السماء أيضاً. وكل شيء بين المترامِيَتَينِ لا محدود : القبيلة تنشقّ على ذاتها إلى ما لا يحدّ من

بطون وفخود وتشعبات، والعيلة تعتزّ بكثرة الأفراد فيها، والزعيم بما يملك من إبـل وأرض وبشر، والعربي أمين بما لا يحَد، ومؤمن بدون شكوك، وكريم الأخلاق حتى التضحية بنفسه، وسخي الكفين حتى بفلذة كبدِهِ الوحيد ... كل شيء في البادية مدفوع إلى تمامه وكماله.

لا استقرار في الصحراء، ولكن لا بدّ من شيء يعوّض عن التيه الدائم. هو الماضي. كل شيء منوط بالماضي. والبدوى أمين على الماضي بلا منازع. كلّما صعد النسب في التاريخ الماضي استقرّ البدوي في الحاضر والمستقبل. كالأغصان التي لا جذور لها تيبس وتموت، العربي الذي لا شجرة أنساب له فضفاضة الفروع يموت لا محالة. هذا هو مستقرّه، وعزّ مجدِه، وفخر مقامه بين البشر. وهذه هي « عصبيته » التي تشدّه إلى الزمان الغابر كما إلى أفراد قبيلته. فهو كالذَرَّة التي لا توجد في الكون إلاّ ملتصقة بأختها.

إن عرفتَ ماضي البدوي تكونُ عرفتَ كلَ شيء عنه : عرفتَ شخصيتُه وعلمه ودينه وتقاليده، وأخلاقه واجتماعيّاته ... لا تعرفُ شيئًا عنه إنْ لم تُلمَّ بالفخذ الذي قُدَّ منه. انتماؤه إلى الماضي هو الدعامة الثالثة اللامتناهية. هذه تحميه من هول الدعامتين الاثنتين اللامتناهيتين ، تحميه من لا محدودية الصحراء، ومن السماء اللامتناهية الأطراف ... فالمبدأ الجوهري للحياة بين المتراميتين أن يكون البدوي أميناً على ماضيه وكل ما فيه. وخوف البدوي من هذه الأبعاد الثلاثة هائل : فهو يخاف السماءَ إنْ أمطرت، ويخافها إن صَحَتْ، يَخاف الاستقرارَ كما يخاف الترحال، ويخاف الماضي كما يخاف المستقبل، يخاف الرمالَ تحت قدميه، ويخاف النجومَ فوق رأسه، يخاف السكون كما يخاف العواصف، يخاف الغريب كما يخاف أخاه وابنه ...

هذا الخوف من كل شيء شدد عزائم الإيمان عنده. ويَخشى أن يبدّل شيئاً في إيمانه. ولشدة الخوفِ يَخشَى أن يفرّط ممّا عنده ومما عند سواه :

فدينه دين إبراهيم وموسى وعيسى، وإيمانه إيمان أهل الكتاب بلا تفريق، وإلهه إلـــه بنـــي إسرائيل قبل أن يتحزّبوا، وشريعته الأنبياء الأقدمين بلا تبديل، وكتابه التوراة والإنجيل وما أنزل إليه ... وما الإسلام العربي في حقيقته وجوهره إلاَّ دين التوحيد الذي لا يُفـــرِّق بـــين الرسل والأنبيـــاء، وما المسلمون إلاَّ القائلون أبداً : « لا نفرّق بـــين أحـــد مـــنهم ونحـــن مسلمون » ...

فالبدوي الذي لا يخاف لا يكون من المسلمين الطيّبين. وأكثر خوف المسلم على الله من أن لا يكون إلهًا. لهذا فهو يصلّي باستمرار « الله أكبر » ، خوفاً عليه من أن لا يكـــون كذلك؛ وكل مرّة يتلفظ باسم الله عليه أن يُتبعَه بأوصاف الإكرام والتجلّـــة. فـــالله، عنـــده، مصحوب أبداً بـــ« سبحانه عزّ وجلّ » ، وبـــ« سبحانه تعالى » ، وبـــ« جلّ جلالـــه » ... وعندما لا يُنعت اسم الله بذلك، يُخشى أن يفقد هويّته ... والخوف على الله ــ انتبه : لا من الله ــ يحتم بُعْدَه، وتعاليته، وكِبَرَهُ، وصمدانيّته ... ففخر إله المسلمين أن يكون وراءَ الســـماء السابعة. وإذا ما ذكر اسمه كيفما كان وأينما كان تهتزّ أركان الكون لهذا الاستهتار المشين.

والمعروف عن الخائف أبداً أنّه لا يشكّ أبداً، لأن الحرّ وحدَه يشكّ. والخائف مقيّـــد بمخاوفه بألف ألف قَيد. والمكبّل بالقيود لا يداخله شكّ ولا ريبة. كل شيء عنده ثابت موفور الحصانة، لا تنتابه هزّة ولا ينال منه بلبال. كل جولات العقل تقف عنـــده، وجميـــع بحـــوث الباحثين لا فائدة فيها ولا نفع لها. وانعدام البحث عند الخائف وفّر له الطمأنينة. والطمأنينـــة عوّضت عليه أهوال مخاوفه. والمطمئنّ لا يبحث، بل لا يرى من البحث فائدة، ولا يشكّ لأن كل الحقيقة في متناوله، ولا يخاف من شيء، بل يخاف على كل شيء ...

وأعظم الأمور أن يخاف المؤمن على الله، فيثبّته في ما وراء الكـــون، وأن يخـــاف على الوحي فيُنيطه بالأزل، وأن يخاف على كتابه فيربطه بـــ« الأفق الأعلى » ،

وأن يخاف على النبوّة فيثبتها بشهادةٍ من الملائكة والكتب السـابقة والأنبيـاء الأقـدمين والملوك والأحبار والجنّ، وأن يخاف على الشريعة فيردها إلى نـوح وابـراهيم وموسـى وعيسى، وأن يخاف على مصيره فيدعمه بقضاء الله وقدره، وأن يخاف على أن لا يكـون خائفاً على شيء وهذا منتهى الطمأنينة.

ولَحِقَ بالطمأنينة الماورائية هذه طمأنينةٌ تامةٌ في أحوال المجتمع وفي أمور الـدنيا وسياسية الحياة. فَأَكْمَلُ نظامٍ للمجتمع هو النظام الذي فَرضَهُ الكتاب، وكل بحث عن نظـام جديد تهوّرٌ في الغيب. كل نهضة علميّة لا تنطلق من الكتاب المنزل تحمل عجزُ نهوضها في نفسِها لأنها ستموت بعد حين من الزمن لا محالة ...

هذه الطمأنينة أراحت أصحابَها من كل عناء : فهم يعرفون أحوال الجنّـة وأفراحهـا بالتمام، ويعرفون لذّاتِها لذّة لذّة، ويعرفون المصير المحتم كيف يكون ويعرفـون الله بجميـع صفاته، ويعرفون آياتِه كلّها ... لأجل معرفتهم هذه هم مطمئنون إلى كـل شـيء : فهـم لا يشكّون، ولا يرتابون، ولا يرفضون، وبالتالي هم لا يبحثون عن ضالّة. كل شيء لديهم ظاهر للعيان، يملكون كل ملفّات الحقيقة في جيوبهم، كما يملكون على كل سؤال جواباً ...

لأجل هذا الارتياح التامّ غزتِ الباديةَ شعوبٌ تضطرب فيها الحقيقةُ فأدخلـتْ عليهـا الاضطرابَ ووضعتْها في مسيرة التاريخ : فكنتَ ترى فيها منذ القديم سياسةَ الرومان، وآثارَ الأحباش، وسيطرةُ الفرس، وعلِمَ بني أرام، وفلسفةَ اليونان، وتكنولوجيّةَ الشـرق والغـرب، واختراعاتِ جميعِ شعوبِ الأرض ... كلّها غزت البادية؛ والبدو إلى هذا الغـزو مرتـاحون مطمئنون، فيما هم يعوّضون عن شدّة غزو الآخرين لهم في غزو بعضهم بعضاً إلى الأبد ...

إن سياسةَ المضطربين مع المطمئنين أن يبقى شعبُ الباديةِ مطمئنّا أبدًا.

سبب الطمأنينة التعلّقُ بالماضي. وكلّما رجع الماضي إلى سحيق التاريخ كانت الطمأنينة أثبت. وما أدراك إذا تعلّق الماضي بـ« اللوح المحفوظ » في « الأفق الأعلى » ! كل شيء في البادية ثابت. على ما يبدو، إلاّ الإنسان. وعوّض الإنسان عن عدم استقراره بكل شيء مستقرّ. ولم يجد مثل « سدرة المنتهى » يربط فيها طرفَ حبله. وليس كالسماء شيء يتعلّق التائهون بِعَمَدِهِ. وليس كجبرائيل يثبّت النبوّة بِعَمَدِ السماء، ويثبّت الكتابَ بالأزلِ، ويثبّت الشريعة بالأبد وإلى الأبد.

لهذا لا تستطيع أن تهزّ مطمئنّاً، ولا تستطيع أن ترى بين الله ونبيّه أيّةَ واسطة، ولا بين الكتاب واللوح كتابًا آخر، ولا بين فردوس عدن وجنّة حورِ العين فردوسًا وسيطاً، ولا بين جبرائيل الملاك والرسول أيّ جبرائيل بشريّ ... لا شيء في التاريخ أو من التاريخ يستطيع أن يكون بين الأزل والأبد.

ولهذا أيضاً يصعب عليك أن تجد ملامحَ القسّ ورقة بن نوفل وراء محمّد، أو أن تجد وراء القرآن العربي الإنجيل العبراني، ووراء الإسلام إسلامًا كان من قبل، ووراء المتّقين من العرب طائفةً من أهل الكتاب ...

كل ما في القرآن العربي من دعوةٍ إلى سؤالِ أهل الكتاب لا منفعة فيه. مرارًا قال الكتابُ: « إنْ كنتَ في شكٍ ممّا أنزلنا إليكَ فاسأل الذينَ يَقرأون الكتابَ مِن قبلِكَ » ، وقال أيضاً : « اسألوا أهلُ الذكر إن كنتم لا تعلمون » ... ومراراً قال القرآنيون : « تنزيل من ربّ العالمين » ...

بين كتاب القسِّ والنبي وكتابِ القرآنيين تدورُ كلُ حكاية التاريخ. لا هؤلاء حادوا عن اطمئنانهم، ولا عثمان بن عفّان ترك لنا مجالاً لمعرفة الحقيقة. وما يزال المطمئنون يحرّمون علينا سؤال أهل الذكر.

******

مَرَاجع الكتاب

١) الكتاب المقدس : العهد العتيق والعهد الجديد، المطبعة الكاثوليكية بيروت.
٢) القرآن الكريم. تفسير الجلالين، مكتبة الملاح بدمشق.
٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مطابع الشعب ١٣٧٨ هـ.
٤) السيرة النبوية لابن هشام، تقديم طه عبد الرؤوف سعد، ٤ أجزاء، دار الجيل بيروت ١٩٧٥.
٥) كتاب المغازي للواقدى، تحقيق الدكتور مارسون جونس، ٣ أجزاء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
٦) الطبقات الكبرى لابن سعد.
٧) التاريخ الكامل لابن الأثير.
٨) إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروفة بالسيرة الحلبية، تأليف علي بن برهان الدين الحلبي، وبهامشها السيرة النبوية والآثار المحمّدية المعروفة بالسيرة المكّية، تأليف السيد أحمد زيني المشهور بدحلان، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٦٢.
٩) صحيح البخاري بشرح الكرماني.
١٠) صحيح مسلم.
١١) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، دار الكتب بمصر ١٨ جزء.
١٢) تاريخ الطبري، دار المعارف بمصر، سلسلة ذخائر العرب ٨ أجزاء.
١٣) ابن كثيّر، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، القاهرة ١٩٦٤.
١٤) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس ١٩٧٣.
١٥) الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق محمد سيّد كيلاني، جزءان، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٦١.
١٦) البغدادي، الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة محمّد علي صبيح بمصر.
١٧) النويختي، كتاب فرق الشيعة، عني بتصحيحه هـ. ريتر، النشريات الإسلاميّة

٤، لجمعية المستشرقين الألماينة، استانبول مطبعة الدولة ١٩٣١.
١٨) الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. جزءان.
١٩) الدكتور جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٠ أجزاء، دار العلم للملايين بيروت، مكتبة النهضة بغداد، ١٩٤٨ ـ ١٩٧٣.
٢٠) محمد عزّة دروزة، عصر النبي وبيئته قبل البعثة، دار اليقظة العربية طبعة ثانية ١٩٦٤.
٢١) جرجس سال الإنكليزي، مقالة في الإسلام، تعريب هاشم العربي (؟) طبعة ثالثة، بولاق بمصر ١٩١٣.
٢٢) سنكلير تدل، تنوير الافهام في مصادر الإسلام ...
٢٣) بندلي جوزى، من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، دار الروائع بيروت.
٢٤) حسنين كروم، محمّد. نظرة عصرية جديدة، فصل : نظرية الثورة والتنظيم.
٢٥) أحمد شلبي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، طبعة خامسة، النهضة المصرية ١٩٧٠.
٢٦) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٥.
٢٧) محمّد حسين هيكل، حياة محمّد، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥.
٢٨) مار أفرام السرياني، منظومة الفردوس، تعريب الأبوين روفائيل مطر ويوحنا الخوند، مخطوط.
٢٩) أقدم النصوص المسيحية، ١ اقلميندس الروماني وراعي هرماس، تعريب الأب جورج نصور. رابطة الدراسات اللاهوتية في الشرق الأوسط.
٣٠) الدكتور طه حسين، في الأدب الجاهلي، طبعة رابعة، دار المعارف بمصر ١٩٤٧.
٣١) الأستاذ الحداد، القرآن دعوة « نصرانية » ، في سبيل الحوار الإسلامي المسيحي ٢، القرآن والمسيحية ٣ . ١٩٦٩.

1) La Bible apocryphe en marge de l'Ancien Testament. Textes choisis et traduites par J. Bonsirven. Ed. du Cerf, Paris 1975.
2) La Bible apocryphe, Evangiles apocryphes, par F. Amiot. Ed. du Cerf, Paris 1975.
3) M. R. James, The Apocryphal New Testament 1953.
4) R. H. Charles, The Apocrypha and Pseudepigrapha of the Old Testament, t. II. 1913.
5) J.- B. Colon, art. Judéo-chrétiens, S. D. B. t. IV, col. 1298- 1315.
6) F. Prat, art. Judaïsants et Judéo-chrétiens, D. B. t. III.
7) L. Marchal, art. Judéo-chrétiens, D.T.C. t. VIII.
8) E. Amann, art. Apocryphes, S.D.B. t. I., col. 460- 533.
9) F. Vigouroux, art. Evangiles des Hébreux, D.B. t. III, col. 552- 554.
10) M.-J. Lagrange, L'Evangile selon les Hébreux, R.B. 2 (1922) pp. 161- 181; 3 (1923) pp. 322- 349.
11) J. Daniélou, Théologie du Judéo-christianisme, Paris 1958.
12) D. Masson, Monothéisme coranique et monothéisme biblique. Doctrines comparées, DDB. 1976.
13) Tor Andrae, Les Origines de l'Islam et Christianisme, traduit de l'allemand par Jules Roche, coll. "Initiation à l'Islam" VIII; Lib. d'Amérique et d'Orient, Adrien- Maisonneuve 1955.
14) CI. Huart, Une nouvelle source du Qoran, dans Journal Asiatique, t. IV (1904) pp. 126-129.
15) W. St. Clair Tisdall, The Original Sources of the Qur'an.
16) Hanna Zakarias, L'Islam. Entreprise juive. De Moïse à Mohammed.
17) La Sainte Bible. Ecole biblique de Jérusalem, Ed. du Cerf, Paris.
18) T.O.B. Ancien et Nouveau Testament. Ed. intégrale.

19) R. Blachère, Le Coran, traduit de l'arabe. Maisonneuve et Larose, Paris 1956.

20) R. Blachère, Introduction au Coran, Ed. Maisonneuve, Paris 1947.

21) R. Blachère, Le Problème de Mahomet, P.U.F. 1952.

22) D. Masson, Le Coran, Introduction, Traduction, et Notes. Bibliothèque de la Pléade, 1967.

23) H. Lammens, art. Mekka, dans Encyclopédie de l'Islam, t. III. p. 509…

24) H. Lammens, L'âge de Mahomet et la chronologie de la Sira, dans Journal Asiatique, t. XVII (1911).

25) H. Lammens, Qoran et Tradition. Comment fut composée la vie de Mahomet, dans Recherches des Sciences Religieuses, t. I (1910).

26) C. Ryckmans, Les Religions arabes préislamiques dans Historie des Religions de Mortier-Gorce, t. III, 1947, pp. 315- 332.

27) Aigrain, art. Arabie, dans les Dictionnaire d'Histoire et de Géographie, t. III, col. 1158-1339:

    1° L'Arabie. 2° Les Origines chrétiennes en Arabie. 3° La diffusion chrétienne dans les régions arabes. 4° Le christianisme dans l'Arabie du Sud. 5° Les Chrétiens à la Mecque.

28) W. M. Watt, Mahomet à la Mecque, trad. Dourveil 1958. Mahomet à Médine, trad. Guillemin et Vaudou 1959.

29) Tor Andrae, Mahomet. Sa vie et sa doctrine, Adrien Maisonneuve 1945. 2 t.

30) A. Cohen, Le Talmud, Traduction de Jacques Marty, Payot, Paris 1977.

مَواضيع الكتاب